

وسيارتول تاريخ الترك

في آسيا الوسطى

ترجمة د. أحمد السعيد سليمان

الكتاب
الشأن
٢٣٥



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ الترك في آسيا الوسطى

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

تاريخ الشرك في آسيا الوسطى

و. بارتولد
تأليف

ترجمة
د. أحمد السعيد سليمان

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

رقم
 تاريخ

رقم
 تاريخ



المهنة المصرية العامة

1997

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
المحاضرة الأولى	١٥
المحاضرة الثانية	
أصول اللغة التركية	٣٣
المحاضرة الثالثة	
الترك فى تركستان	٥٣
المحاضرة الرابعة	
دخول الترك فى الاسلام	٧٤
المحاضرة الخامسة	
آسيا الوسطى فى القرن الحادى عشر	٩٦
المحاضرة السادسة	
ظهور الترك	١١٧
المحاضرة السابعة	
القراخطاي والحضارة التركية فى كاشغر	١٣٨

المحاضرة الثامنة

١٥٨ علاقات الخوارزمشاهية بالمغول

المحاضرة التاسعة

١٧٩ القبيلة الذهبية (آلتون أوردو)

المحاضرة العاشرة

٢٠١ المغول في آسيا الوسطى

المحاضرة الحادية عشرة

٢٢٢ تدمير المغول

المحاضرة الثانية عشرة

٢٤٦ امبراطورية تيمور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

آسيا الوسطى شبه منحرف تحده من الجنوب جبال الهمالايا ومن الجنوب الغربى هضبة الياهير ومن الغرب جبال تيان شان ومن الشمال جبال الألتاي ويا بلونوى وستانوفوى ومن الشرق جبال كنجان وكوكونور .

وتبلغ مساحة آسيا الوسطى المحصورة بين هذه الحدود حوالى ستة ملايين كيلو متر مربع هى فى مجموعها سلسلة من الجبال والهضاب البعدة والمنخفضات .

واذا استثنينا الصينيين الذين يسكنون آسيا الوسطى ، أمكن القول بأن العنصرين اللذين يعمران تلك المناطق هما العنصر التركى والعنصر المغولى وهما مدار البحث فى هذه المحاضرات .

وقد كنا - فى دراستنا لآسيا الوسطى - نقنع من المصادر بما روى الرحالة من العرب والصينيين والأوربيين (١) ،

(١) أهم هذه الرحلات :

(أ) رحلة أحمد بن فضلان الذى جاب بلاد الترك فى سنتى ٩٢١ - ٩٢٢ ، وقد نشر العالم التركى أحمد زكى وليدى نصها العربى مع ترجمته الألمانية سنة ١٩٣٩ بعنوان :

Ibn Fadenn's Reisbericht leipzig 1930 (Abhandlungen für die Kunde des Morgen Landes. XXIV. 3).

(ب) رحلة أبى دلف .

وقد ترجم رور ساو Dr. Alf. V. Rohr Saue الجزء الخاص منها بالترك

وذلك فى سنة ٢٩ بعنوان :

Abu Dulaf's Berichte über seine Reise nach Turkeston, China und Ind is.

(ج) رحلة ابن بطوطة (١٣٢٤ - ١٣٥٢) ترجمها للفرنسية .

= Defremeryet, Sanguitli Paris, 1854.

وبكتب الجغرافيا التي حررها العرب ابتداء من القرن التاسع
الميلادي حتى القرن الثالث عشر (١) ، وبكتب التاريخ العربية

= (د) رحلة غياث الدين النقاش (فارسية) وعنوانها سفر نامه جين وكان غياث
الدين هذا عضوا في هيئة أولدها شاهرخ الى الصين سنة ١٤١٩ وقد ترجمها كاترمير الى
الفرنسية .

الظر (ج ١٤) Notice et Extraits de Mauusuits .

وأما رحلات الصينيين فأهمها :

(١) رحلة هيوان - تسانج وهو راهب صيني قطع في سنة ٦٣٠ ميلادية بلاد الترك
المعروفين بـ (كوك تورك) في طريقه الى الهند ، وقد ترجمها الى الفرنسية Stanislas
Julfen سنة ١٨٥٧ .

بمعنوان : Memoires sur les Contrées Occidentales

(ب) رحلة تسانج تسونج وقد زار هذا الراهب تركستان بينما كان جنكيز خان
يغير على المناطق الغربية ، ترجمت رحلته الى الانجليزية ترجمها A. Waley بمعنوان :
'Travels of an alchemist London, 1931.

وأما كتب الرحلات الأوروبية فقد حررها التجار الأوروبيون ، ومروجو المسيحية
من مبعوثي باباوات روما ، ولويس التاسع وأهمها :

(١) رحلة بلانو كاربيني وقد أولده البابا انوسان الرابع الى قارقورم في ١٢٤٥ -
١٢٤٦ .

(ب) رحلة روبروق وهو قسيس فرانسيسكاني أولده لويس التاسع سنة ١٢٥٣
الى قارقورم أيضا : وقد ترجمها الى الانجليزية W. Rochhill
The Journey of William of Rubruck to the eastern part of the World
London 1990.

(ج) رحلة ماركو بولو (١٢٧١ - ١٢٩١) وهو تاجر من أهل البندقية سافر الى
بلاد المغول وجاب في الطريق بدخشان وختن وصحراء جوبي واتصل بقوبيلاي وطوف في
شمال الصين وجنوبها ورجع بطريق البحر مارا بالملايو وبورما والهند وايران وقد نشر
H. yulé نصها الانجليزي في لندن سنة ١٨٧٦ ثم طبعت ثانية سنة ١٩٢٩ وترجمها
الى الفرنسية : A. J. Charignon .

Le livre de Morco Polo, Pekin (3 Vols) 1924, 26, 28.

(د) رحلة قلاويخو الاسباني :

وقد أولده من قبل ملك قسطلية لزيارة تيمور في سمرقند .

بين (١٤٠٢ - ١٤٠٧) وقد نشرت الاكاديمية الروسية النص الاسباني مع ترجمته
الروسية في بطرسبرج سنة ١٨٨١ .

(١) وأهم هذه المصادر هي كتب المكتبة الجغرافية العربية .

Bibliotheca geographica Arabicorum.

كتاب المسالك والممالك لابن خردادبة (٨٤٠) .

كتاب البلدان لأحمد بن الواضح اليعقوبي كتبه سنة ٨٩١ .

والفارسية (١) ، ثم بما صنف الآورييون أخذوا عن هذه

-
- أخبار البلدان لابن الفقيه الهمداني (٩٣٠)
- المسالك والممالك للأصطخري (٩٥١)
- المسالك والممالك لابن حوقل (١٧٦)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأحمد بن أحمد المقدسي ٩٨٥
- وكذلك تحفة الألباب لأبي حامد الأندلسي الغرناطي (١١٦٢) وقد ترجمه gabriel Ferrand إلى الفرنسية ١٩٢٥ • J. A. 1925 t. CCVII .
- معجم البلدان : ياقوت الحموي ت ١٢٢٩ نشره ويستنفد في ليبتزج سنة ١٨٦٦ - ٧٢ في ٨ مجلدات •
- تقويم البلدان لأبي الفدا وقد نشره مترجما إلى الفرنسية ده سلان De Slane وستايسلاس جويارد S. guyard ١٨٤٨ - ١٨٨٣ ونشر Ch. Schier النص العربي سنة ١٨٤٦ في بوسدن •
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ت ١٢٤٨ والأجزاء الخاصة بالترك هي الأجزاء الثلاثة الأولى وقد نشر تاشنر Fr. Taeschner سنة ١٩٢٩ القسم الخاص بالاناضول • al-umari's Bericht über anatolien, Leipssig.
- (١) أهم كتب التاريخ التي تناولت تاريخ الترك في آسيا الوسطى هي :
- فتوح البلدان للبلاذري ت ٨٩٧ ونشره ده عويه ١٨٦٦ •
- تاريخ الأمم والملوك للطبري ت ٩٢٢ •
- مروج الذهب لعلي بن الحسين السعدي ت ٩٥٧ •
- تجارب الأمم لابن مسكويه ت ١٠٢٩ •
- كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي ينتهي بتاريخ حوادث سنة ٢٥٠ (٩٦١) • نشره مع ترجمته الفرنسية كليمان هيوار C.ement Huart بعنوان :
- التاريخ الكامل لابن الأثير •
- تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج جريجورس بن العبري (ت ١٢٨٦) • Gregorius, Bar Hebraeus.
- وقد نشره Pocock مع ترجمته اللاتينية في أكسفورد سنة ١٦٦٣ ثم نشر في بيروت سنة ١٨٩٠ •
- زين الأخبار (فارسي) لأبي سعيد عبد الحي الكرديزي كتب سنة ١٠٤٠ وعنى بتاريخ خراسان وقد نشر ميرزا محمد خان القزويني هذا الجزء الخاص بخراسان سنة ١٩٢٧ في (طهران) •

== - أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي ت ١٠٧٧ تاريخ بيهقي (فارسي) تاريخ السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، نشره Morley في كلكتا سنة ١٨٦٢ ثم نشره سعيد نفيسي في طهران سنة ١٩٤٥ في مجلد بن ثم نشره بعد ذلك قاسم غني وعلي فياض وترجمه الى العربية الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب والأستاذ صادق نشأت .

- تاريخ بخارى (فارسي) لأبو بكر محمد بن جعفر النرشي ت ٩٥٩ ، قدم لنوح بن نصر الساماني وقد نشره شيفر Ch. Schefer بعنوان : Descriptios topographique et histori que de Bukhara, Paris, 1892.

- تاريخ بيهق : لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي بن فندق ت ١١٦٩ (فارسي) وقد نشره أحمد بهمنيار سنة ١٩٣٨ في طهران .

- طبائع الحيوان لشرف الزمان المروزي ، نشر مينورسكي القسم الخاص بتاريخ الترك والهند والصين .

Sharaf al-Zaman Tahir Marvazi
on China, the Turks and India, 1941.

ولم يكن هذا الكتاب قد وجد أيام ألقى بارتولد المحاضرات ، انظر ص ٨٨ .

- تاريخ جهاتكشا لعطا ملك الجويني ت ١٢٨٢ نشر في سلسلة جب في ثلاثة مجلدات وقد استوزر عطا ملك لهولاكو وتردد كثيرا على منغوليا .

- جامع التواريخ لرشيد الدين بن أبي الخير الطبيب ت ١٢١٨ ويوشك هذا الكتاب أن يكون أهم مصدر من تاريخ القبائل التركية وتاريخ البدو من التتار في عهد جنكيز خان ، وبه فصل مهم عن تاريخ (خطاي) أو (الصين) ومما يزيد قيمته أن المؤلف عين وزيراً لغازان خان سنة ١٢٩٨ (وقد احتفظ بالوزارة في عهد أولجاينو وقدم له الكتاب سنة ١٣٠٧ ثم قتله أبو سعيد سنة ١٣١٨) وقد أعانه منصب الوزارة على الاطلاع على الوثائق في خزائن غازان . وقد أفاد أيضا من (حليات المغول) المعروفة بالكتاب الذهبي (التين دفتر) .

وكان أول من حاول ترجمة هذا الكتاب هو هامر بورجشتال إذ ترجم الجزء الخاص بتاريخ الصين ولكن كلاپروت Klaproth وجد في الترجمة أخطاء كثيرة فنشر ترجمة أخرى في سنة ١٨٢٣ .

Description de la Chine sous la dynastie Mangolt, trav. de persan et accom pagnée de note J. A serie 11, Vol. XI, 1833.

وقد اعتمد دهبسون d'Obseon في كتابه Histoire de Mongols الذي صدر سنة ١٨٢٤ على كتاب رشيد الدين .

وفي سنة ١٨٣٦ بدأ كاتيرمير Quatrmere يترجم تاريخ الايلخانيين عن كتاب رشيد الدين بعنوان . Histoire des Mingols la de Perse .

وقد نشر المستشرق الروسي Herezin في ١٨٥٦ - ١٨٨٨ ترجمة القسم الأول من الجزء الأول حتى هلاك جنكيز خان وذلك في أربعة مجلدات وفي سنة ١٩١٠ نشر =

المصادر (١) •

= بلوشيه Blochet تاريخ بعض خلفاء جنكيز خان :
Histoire de Mongols successeurs de Tchnigiz Khan (G. M. S.)

وفى سنة ١٩٤٠ نشر K. Jahn تاريخ غازان بعنوان :
History of Ghazan Khan G. M. S.

ثم ترجم A. K. Arend تاريخ الايلخانيين الى الروسية ونشره فى ليننجراد
سنة ١٩٤٦ •

- دليل جوامع التواريخ للطف الله حافظ ابرو (١٤٢٠) نشره خ بيانى فى طهران
سنة ١٩٢٨ وترجمه نفس هذا الناشر الى الفرنسية •
Hafizi Abru : Chronique des rois mongols en Iran.

- الملحقات لجمال الدين ابى الفضل بن محمد القرشى وهو دليل على معجم لغوى ،
تناول فيه المؤلف تاريخ القاراخانيين والسلجقة وخانات الجغتائية ونشرت منه اجزاء فى
كتاب برتولد عن تاريخ تركستان •

- سفر نامه لنظام الدين الشامى وهو تاريخ غزوات تيمور ، ترجمه عن الفارسية
الى التركية لجاتى لوكال انقره (١٩٤٩) •

(١) اوسع هذه المصادر هو :
Bibliothèque Orientale. ou Dictionnaire Universel d'Herbelat
ظهرت طبعته الاولى ١٦٩٧ والثانية ١٧٧٦ •

والطبعة الثانية دليل مهم :
Supplement à la Bibliothèque Orientale par C. Visselou, et A. Gselland
وقد كتب Visselou حوالى مائتى صحيفة من هذا الدليل تشتمل على معلومات
قيمة عن الشرق الاقصى واسيا الوسطى من الناحيتين التاريخية والجغرافية ، استقاها
كلها من المصادر الصينية • شرح فى القسم الاول من هذا الدليل كثيرا من الاصطلاحات
التي يستعملها المؤلفون المسلمون عن الصين :

اما القسم الثانى فعنوانه تاريخ بلاد التتار Histoire de la Tartarie

تناول فيه تاريخ القبائل والشعوب فى منغوليا واسيا الوسطى •
ويتناول القسم الثالث دراسة الاصطلاح : (ا خان) •
ويتناول الرابع اسماء الاماكن والشعوب فى الشرق الاقصى واسيا الوسطى •
ثم يعرض فزدلو تاريخ الخمسة الاول من اباطرة المغول •
d'Ohsson J, Histoire des Mangols

تناول تاريخ المغول من جنكيز خان الى تيمور
Howorth : History of the Mongols.
Barthold : Turkestan down to the Mongol invasion.
R. Grousset L'empire de Steppes Paris, 1947.

وبه مقدمة بيبليوجرافية شاملة •

ولكن معلوماتنا عن آسيا الوسطى ما لبثت - يفضل
البعثات العلمية (١) - أن عمقت وتشعبت . وكان أكبر
ما أحرزت هذه البعثات من توفيق هو الكشف عن نقوش
أورخون ثم حل رموزها على يد العالم طومسن Thomsen
فى أواسط القرن التاسع عشر ، ولكن هذه البعثات قلت بعد
الحرب العالمية الأولى ، ثم مازالت تقل حتى أصبحت مقصورة
الآن على العلماء الروس .

وبارتولد (١٨٦٩ - ١٩٣٠) صاحب هذه المحاضرات
أحد هؤلاء العلماء كرس حياته لدراسة المنطقة الممتدة من
بحر قزوين غربا الى منغوليا شرقا ، وعن هذه المنطقة كتب
معظم مؤلفاته .

وقد تناولت هذه المحاضرات تاريخ الترك من عهد
ما قبل التاريخ التركى الى أيامنا هذه ، فهى تعدّ لك عنهم من
لذّن كانوا قبائل لم يؤسموا بعد بالاصطلاح الذى عرفوا به
طوال التاريخ وهو كلمة (الترك) الى أن دالت دولهم فى
آسيا الوسطى فنخضع قسم منهم للروس وخضع الآخر للصين .
ولم يكن بد ، والموضوع على هذا النحو من السعة ، من أن
تكون المامات المحاضر ببعض النقاط سريعة مجملة أقرب الى
الاشارات المبتورة منها الى الشرح المفصل .

(١) بدأت هذه البعثات منذ أواخر القرن الثامن عشر فقد بدأت الاكاديمية الروسية
تنظيمها بأمر من كاترينا الثانية ، وكانت هذه البعثات تعنى قبل كل شىء بممتلكات روسيا فى
آسيا وكثرت بنوع خاص فى المناطق المجاورة للطرق التى تربط هذه الممتلكات بالشرق
الاقصى تجاريا . وكان Prejcevalskii (١٨٢٥ - ١٨٨٨) أهم باحث فى هذه المناطق بعد
ذلك فلما مات واصل Potanin (١٨٢٥ - ١٩١٤) و Koslov الدراسة من بعده
وعنى هذان العالمان بالحدود الصينية التبتية .

وفى نفس الوقت عنى بعض العلماء بدراسة منغوليا وفى سنة ١٨٨٩ اكتشف
Yadrinisev أماكن العواصم التركية القديمة فى القرنين السابع والثامن .
وكانت أهم البعثات هى تلك التى نظمتها الجمعية الفنية - الاوغرية بهستكى .
اذ استطاعت تصوير نقوش أورخون التى وفق طومسن الى قراءتها . وبعد هذا
النجاح كثرت البعثات الأوربية الى أن قصرت أخيرا على الروس .

كما لم يكن بد - وقد القى الموضوع محاضرات - من أن تكون به شروح واستطرادات كثيرة ، الا تكن جميعها وثيقة الصلة بالموضوع ، فانها جميعها ، تلقى أضواء على جوانبه .

وقد عني بارتولد في كتاباته التاريخية بدراسة التأثيرات الحضارية والدينية واللغوية ، وبدراسة العوامل الجغرافية والاقتصادية ، ودراسة الطرق والمسالك التجارية البرى منها والبحرى . .

ومن هنا كثرت مصادره ، فهو لا يكتفى بالمصادر التاريخية والجغرافية التى اشرنا اليها من قبل ، بل يرجع أيضا الى النتائج التى وصلت اليها البعثات العلمية فى آسيا الوسطى ثم يستعين كذلك بالعلوم التاريخية المساعدة فيرجع الى الأبحاث الأثنوغرافية والأثرية ، كما يرجع كثيرا الى علم المسكوكات Numismatographie يضبط به الأسماء ، ويقف به على دقائق الوضع الاقتصادى فى العهود المختلفة ، ثم يرجع بعد هذا كله الى كتب الأدب والفولكلور ، والى كتب التصوف والمناقب والتراجم ، يدرسها ويستنبط منها .

فلا جرم كانت هذه المحاضرات موسوعة مجملة لتاريخ آسيا الوسطى ، كتبها بارتولد وألقاها باللغة التركية فى جامعة استانبول سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ (١) وقد سبق أن ترجمت هذه المحاضرات الى الألمانية فى مجلة العالم الاسلامى الألمانية Die Welt des Islams بعنوان : اثنتا عشرة محاضرة عن تاريخ أتراك آسيا الوسطى .

Zwölf Vorlesungen über die Geschichte der Turken Mittelasiens

ثم ترجمتها م . دونسكيس عن الألمانية الى الفرنسية (سنة ١٩٤٥) بعنوان تاريخ أتراك آسيا الوسطى
Histoire des Turcs d'Asie Centrale.

(١) كان ذلك بدعوة من حكومة اتاتورك وكان المراد بهذه المحاضرات ان تطلع الاتراك على الاصول البعيدة للقومية التركية .

وحاولت المترجمة أن تخرج من هذه المحاضرات كتاباً، فعنوانتها وعنوانت فقراتها ، وحذفت كثيراً من الاستطرادات. وأدرجت بعضها في الحواشي ومن هنا كان النص الفرنسي - وهو ترجمة الترجمة - أسهل تناولاً ولكنه أقل معلومات . وقد ترجمنا نحن هذه المحاضرات عن الأصل التركي ، لم نغادر شرحاً ولا استطراداً ثم زدناها بمقدمة بيليوجرافية مختصرة وبثلاثة فهارس، ليسهل الأخذ عنها ولتحفز على المضي في دراسة مهد من مهد الشعوب الإسلامية هو آسيا الوسطى .

أحمد السعيد

المحاضرة الأولى :

المراد بهذه المحاضرات هو أن أطلعكم ، بقدر ما تسمح لنا ساعات الدرس ، على ما وصل اليه العلماء الروس والأوربيون عن تاريخ أقوام الترك ، ولكنكم سترون أن النتائج التي وصل اليها هؤلاء العلماء ليست عظيمة المقدار ، وسترون أيضا أن كثيرا من مسائل هذا التاريخ لم يحل حلا نهائيا . والسبب في ذلك هو صعوبة الأخذ عن المصادر الأولى لتاريخ الترك ، وضرورة الوقوف على علوم ولفات كثيرة قل أن يجتمع العلم بها لشخص واحد .

فلئن اقتضى الأمر عادة أن نتعلم اللغة لندرس تاريخ أصحابها ولنطلع على ألوان حياتهم ، فإن لدراسة تاريخ الترك وضعاً خاصاً . وذلك أن المصادر الأولى لهذا التاريخ لم تكتب بلغة الترك ، ومن هنا كان موقف المتخصص فيه مخالفا تماما لموقف المتخصص في تاريخ الروس أو أية أمة من أمم أوربا الغربية ، فنحن مضطرون من أجل أن نعرف تاريخ الترك زمان بداوتهم «أى زمان جهلهم الكتابة» الى أن نقرأ حكايات جيرانهم ، فإذا أردنا دراسة تاريخهم بعد أن فتحوا الممالك المتمدينة ، وبعد أن تحولوا هم أنفسهم من البداوة الى الحضارة ، وبعد أن أصبحت هذه البلاد المتمدينة تحت حكم أسر تركية . . اذا أردنا هذا واجهتنا صعوبة أخرى . وهي أن الترك في هذا الدور من تاريخهم تأثروا حضاريا بالعناصر المغلوبة ، وتأثروا أيضا باللغات الأدبية لهذه العناصر ، وبخاصة النثر ، وبدعوا يستعملون في كتاباتهم لغة هؤلاء المغلوبين . ويمكن أن نقول بلا تردد ان أحوال

الترك المقيمين في شرق اسيا وخاصة في منغوليا انما تعرف من المصادر الصينية (يظن كثيرا ان الترك هاجروا من منغوليا في القرن العاشر الميلادي) .

فأما الترك الذين هاجروا الى الجزء الغربي من اسيا الوسطى وتأثروا بالمضارة الاسلامية، فان أحوالهم انما تعرف من المصادر العربية ، ومن المصادر الفارسية بوجه خاص .

فأما في داخل تركستان نفسها، فلم يحزر أى أثر تاريخي في العصور الوسطى وان كان شيء قد حرر فلا بد أنه ضائع .

فاذا أردنا الوقوف مثلا على تاريخ خانات المغول في اسيا الوسطى ، أو على تاريخ تيمور وأحفاده ، فاننا لا نكاد نجد ذلك الا في مؤلفات حررت داخل حدود ايران . والحق أن كتب التاريخ لم تبدأ في الظهور داخل تركستان الا في القرن السادس عشر ، وأنها كثرت في عهد الأوزبك . وقد تكونت في تركستان ثلاث خانيات أوزبكية . احداها في بخارى وقد ظلت تستعمل حتى زمن قريب اللسان الفارسي في المعاملات الرسمية وفي الأدب مع استثناءات قليلة . والثانية في خيوة وكانت تستعمل اللغة التركية الجارية في اسيا الوسطى . والثالثة في خوقند وقد استعملت اللغة التركية أحيانا ، ولكنها كانت تستعمل الفارسية أكثر ، وليس بين الدول التركية جميعها ما يمكن أن نستمد تاريخه من مصادر محررة بالتركية الا الدولة العثمانية ، ولكن لغة المؤرخين العثمانيين تحوى من الكلمات العربية والفارسية أكثر مما تحوى من الكلمات التركية ، وهى لذلك غير مفهومة لكثير من الأتراك . ومن هنا يمكن القول بأنه لا توجد كتب تاريخية كتبت بلغة تركية خالصة . ولئن كان صاحب الدراسات الفارسية لا يستطيع حتما أن يكون مؤرخا لايران (من المعلوم أن تاريخ ايران حتى عهد المغول لم يكتب بالفارسية واننا مضطرون لدراسته في المصادر العربية واليونانية) فكذلك صاحب الدراسات التركية لا يمكن أن يكون مؤرخا للترك

الا نادرا ، اذ ربما اقتضت دراستك فترة من تاريخ الترك أن تكون أولا صاحب دراسات صينية ، وفترة ثانية ان تكون صاحب دراسات عربية ، وثالثة أن تكون صاحب دراسات فارسية .

ومن الآثار التي تهم صاحب الدراسات الترككية وتهم المؤرخ ايضا اثار اورخون ، وهي تغلد اقدم ذكرى للسلطان التركي - وقد اكتشفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهي اقدم اثار ترككية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم ، فأصحاب هذه الآثار قد سمو أنفسهم لأول مرة في التاريخ بالترك ، وهم قوم ظهوروا في القرن السادس واستولوا في زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين الى ايران وبيزنطة ، ونحن من أجل ذلك الجوار نملك مصادر مختلفة تحدثنا عن هؤلاء الأتراك .

ولا يعرف تاريخ البدو الذين مبعقوا هؤلاء الا الصينيون ، وقد كان معروفا - حتى قبل أن تحل نقوش أورخون - أن هؤلاء القوم الذين أقاموا لأنفسهم دولة في القرن السادس هم الترك ، ولئن كان تفسير كلمة Tu—Küe (تو — كه — ئه) الواردة في المصادر الصينية بمعنى «الترك» موطن خلاف ، فان كلمة توركوا Turkoï الواردة في المصادر البيزنطية قد قبلت على أنها بمعنى الترك بلا خلاف .

والفرق بين حكومة الترك في القرن السادس وبين غيرها من حكومات البدو هو أن الدولة عند أتراك القرن السادس كانت منذ نشأتها تحت امرة أسرة ، لا تحت امرة شخص . وبناء على هذا ، فقد كان الخانات الحاكمون في غرب البلاد مستقلين من بداية أمرهم استقلالا تاما ، فكانوا يستقبلون السفراء ويعقدون المعاهدات دون أن يراجعوا في ذلك الخاقان الأكبر « باشخاقان » المقيم في الشرق كما كانت تفعل القبيلة الذهبية « آلتين أوردو » في أواخر عهد المغول ، ورغم أن دولة أتراك الغرب T'ou Kiue لم تكن تبلغ في

أواخر أيامها درجة دولة المغول، إلا أنها كانت تتصل ثقافيا بالخارج وكانت واسطة لاتصال حضارة الشرق الأقصى بحضارة غرب آسيا، ومن هنا عني بها علماء أوروبا وبخاصة أصحاب الدراسات الصينية . وأية هذه العناية الكتاب الذي وضعه عالم الصينيات الفرنسي شافان Chavannes في أوائل القرن العشرين والذي نشرته الأكاديمية الروسية والذي تناول أترك الغرب هؤلاء .

وفي هذا الكتاب قارن المؤلف بين الأخبار التي سجلها الصينيون عن هؤلاء الأتراك وبين المعلومات التي وردت عنهم في المصادر الإسلامية والبيزنطية والأرمنية ، هذا على حين أن أترك الغرب أنفسهم لم يتركوا عن تاريخهم إلا بعض نقوش يسيرة على شواهد القبور .

نقوش أورخون

وتتناول نقوش أورخون فترة نصف قرن فقط من ٦٣٠ الى ٦٨٠ وهي الفترة التي كان أترك الشرق في أثنائها تحت حكم الصين . وتتحدث كذلك عن أن هؤلاء الترك قد استطاعوا الحصول على استقلالهم تحت قيادة بعض الخانات الجدد ، وأن هؤلاء قد استطاعوا في زمن قصير أن يخضعوا لحكمهم أبناء جنسهم من أترك الغرب ، ومع أن العالم الدانمركي طومسن Thomsen قد قرأ هذه النقوش منذ ثلاثين سنة (١) فإنها مازالت موضع بحث وتأويل ودراسة . ويجب على من يعتمدون على ترجمة هذه النصوص « لأنهم لا يفهمون لغة النص الأصلي » أن يتحفظوا في استنتاجاتهم التاريخية ، ولا شك أن لتراجم طومسن ورادلو ف قيمة كبرى في توضيح هذه النصوص . وكان طومسن قد أعلن بعد أن نشر ترجمته الأولى أنه لن يشتغل ثانية بهذه النقوش ، ولكنه لحسن الحظ لم يحقق هذه النية ، ووضع عنها عدة أبحاث ،

(١) أي مئتين سنة الآن .

وقد نشرت محاولته الأخيرة لترجمة هذه النصوص في المجلة الشرقية الألمانية Z.D.M.G سنة ٢٤ - ٢٥ .

ومع أنه في محاولته الأخيرة قد قام بتصحيحات صائبة موفقة لترجمته الأولى، فما زالت في ترجمته فروض قد تسوق القارئ إلى أخطاء جسيمة . فمن ذلك ما يسوقه طومسن في ترجمته لوصف معركة اشترك فيها كول تكين أخو المخان ، ففي أثناء المعركة رمى الأعداء كول تكين بأكثر من مائة سهم أصابته ، ووردت في نقوش أورخون (بحسب قراءة طومسن) عبارة « يارقندا يالماسيندا » وقد ترجمها طومسن هكذا « في تطهيمته والهلل الماسى الذى على جبينه » وهكذا قرأ كلمة « يالما سيندا » كأنها أى - ألما سيندا ومعنى هذا أن كول تكين كان يضع على رأسه مغفرا في شكل هلال مزين بالماس ، وان صح هذا لكان أمرا مهما عند المؤرخين ولكن معنى كهذا لا يمكن مع الأسف أن يخرج من النص .

ولما لم اكن من أصحاب فقه اللغة فاني لا أستطيع الجدل في معانى الكلمات ولكنى مع هذا سأكتفى بالقول بأن هناك كلمات مكتوبة برسم واحد ، ولكن قراءتها وترجمتها كانت تختلف من موضع إلى موضع، ويخيل إلى أن مثل هذا التصرف لا يقبل إلا في حالات الضرورة القصوى وقد كان طومسن في غنى عن هذا التصرف ، بل انه لو لزم معنى واحدا للكلمة لكانت الترجمة أكثر استقامة وتوفيقا . ومن الأمثلة على ذلك كلمة أولمك olmek بمعنى الموت فانها ترد كثيرا في النص، وتستعمل أحيانا بصدد شعب بأسره ولا شك أن معناها في مثل هذا المقام ليس الموت بالمعنى الأول للكلمة وانما معناها الاضمحلال والتشتت وأن هذا الشعب ينهض بعد حين ، وقد فهمها طومسن على هذا النحو ، ولكنه مع هذا يقرأ هذه الكلمة أحيانا وبغير ضرورة : (أولمك almak) ويكون معناها عندئذ الانقسام ، ولو لم يغير طومسن الكلمة ولا معناها واحتفظ لها بنفس الترجمة الأولى « اضمحلال » لكان المعنى أكثر

توفيقا وخاصة في مثل عبارته « يا كيليب أولمك » أى هلك بالاثم ، فمع أن العبارة تفيد أن الهلاك كان نتيجة حتميه لما ارتكب من خطأ ، فان طومسن يترجمها هكذا « . . انك انقسمت لأنك خنت العهد » وهى ترجمة خاطئة فيما أظن .

وكان رادلوف قد ترجم هذه العبارة ترجمة صحيحة فى ترجمة له قديمة . وقد نشرت ترجمة طومسن أول الأمر باللغة الدانمركية ثم نشرت مرة ثانية بالألمانية بإذن منه وبعد أن أدخل عليها بعض التصحيحات بنفسه . وقد ادعى مترجم هذه الترجمة الألمانية أنها بلغت الكمال وأن ترجمة رادلوف قد أصبحت بعد ظهور الترجمة الألمانية عتيقة . ولكننا بعد أن سردنا الأمثلة المتقدمة وبرهنا على أن قراءة بعض المواضع مازالت خلافية نقرر أنه توجد فى ترجمة رادلوف تأويلات أصح من تأويلات طومسن .

النظام السياسى والاجتماعى عند أتراك الأورخون

وتصور نقوش أورخون حياة قوم من البدو وحكومتهم وقد سبق أن بين رادلوف الفرق بين قيام الدول البدوية وانقراضها ، وبين ما يفهمه الأوربيون من هذا اذا هم تحدثوا عن « الدولة » بالمعنى الحديث وذلك فى كتابه Aus Sibirien وأيضا فى مقدمة طبعة قوتادغو بيليك وقد ترجمت هذه المقدمة الى الروسية بعنوان : (حول مشكلة الأويغور) وقد أيدت نقوش أورخون نظريات رادلوف كما أقر بذلك طومسن .

ويرى رادلوف أن البدو لا يفكرون فى الظروف العادية فى أن تضمهم رابطة سياسية ، بل يرى كل فرد أن أسلوب الادارة فى العشيرة تكفل له الأمن ، أى أن الجماعة فى هذا الدور من أدوار التطور تكون من القوة بحيث تنفذ ارادتها دون وجود سلطة تنفيذية ، بل تجرى أمورهم طبقا للمعرف

الذى تولده علاقات العشائر بعضها ببعض بغير حاجة الى عقد ميثاق أو الى تكوين جهاز ادارى ، على أن الخانات وهم رمز السلطة فى الدولة كانوا يستطيعون فى أحيان نادرة أن يخضعوا لحكمهم شعبا كاملا أو عدة شعوب ، وكانوا فى مثل هذه الحال يقبضون على أزمة الأمور بالقوة فلا هم يعيئون ولا هم ينتخبون ، وانما يجد الشعب أو تجد جماعة الشعوب نفسها أمام الأمر الواقع فتقبله بلا مقاومة ، أو تضطر الى قبوله بعد مقاومة طويلة . وكان الخان لا يستطيع اخضاع قومه الأقربين من البدو الا بعد معارك دامية قد تكون أحمى وطيسا من تلك التى يخوضها فى غزو البلاد المتحضرة . وكانت غنائم هذه الحروب هى التى تصلح بين الخان وبين قومه .

وتؤكد نقوش أورخون أن الخانات كانوا ينحدرون من الأتراك الغز أو التغزغز ومع هذا ، فانهم يحاربون دائما قبائل الغز وغيرها من قبائل الترك .

وتمدنا نقوش أورخون ، عن هذه الحروب الداخلية بمعلومات أكثر تفصيلا مما تمدنا به عن الحروب مع الصين وغيرها من البلاد المتحضرة المجاورة . وكانت هذه الحروب الخارجية فى نظر الخان وأتباعه وسيلة طبيعية للحصول على الغذاء والكساء للجياع والفقراء .

وقد تناولت هذه النقوش عاملا من عوامل قيام الدولة عند البدو غفل عن ذكره رادلوف وذلك العامل هو اشتداد النزاع بين الطبقات وتوتر العلاقات بين الأغنياء والفقراء وبين « البكوات » والعامة . وتروى هذه النقوش أنه حين حكم الصينيون بلاد الترك سارعت الأرستقراطية التركية — استبقاء لامتيازاتها — فوطنت نفسها فى يسر على ذل الحكم الأجنبى وتنكرت للتقاليد وللعادات القومية فكانت لذلك خائنة . هذا على حين لم يسغ العامة الحكم الأجنبى بسهولة ، ولم يتخلوا عن تقاليدهم ، بل ازداد بغضهم للبكوات بسبب

تقليدهم للصينيين وتخلقهم بأخلاقهم . وقد أفاد أبناء الخان من هذا الوضع فأثاروا الشعب ضد الحكم الصينى وحصلوا بذلك على الاستقلال للدولة التركية .

وفى تاريخ الأقاليم البدوية لآسيا الوسطى مثل آخر لشعب ، ولدولة قامت نتيجة للصراع الداخلى بين الطبقات ، وتلك هى دولة جنكيز خان أو دولة المغول . الا أن هذه الدولة قامت نتيجة انتصار الأرستقراطية ، فقد كان جنكيز خان - مثله كمثله خاقان الترك فى القرن الثامن - لا يذكر مصلحة العامة ولكن يتحدث عن الخدمات التى أداها لأبناء طبقتهم من أصحاب الأرستقراطية . والحق أن هذا النصر للأرستقراطية قد ضمن لها ولطبقة البكوات حياة آمنة فى الوطن ونصيبا عظيما فى غنائم الحروب .

والمعلومات الخاصة بكفاح هذه الطبقة لم تحفظ الا فى قصص البطولة المغولية ولا ذكر لها فى المصادر الصينية ولا الأرمنية ولا الأوربية ، وكذلك لا يوجد فى المصادر الصينية ولا فى غيرها ذكر للصراع بين الطبقات فى ذلك المجتمع التركى ، ولو كان البدو قد سجلوا عن أنفسهم أكثر مما سجلوا لكان أثر الصراع بين الطبقات فى تكوين دول البدو أكثر وضوحا .

وتشتمل نقوش أورخون على كثير من المعلومات الخاصة بالنظام الداخلى للدولة التركية فهى تعدد مثلا أسماء المناصب المختلفة وان كان من المحتمل أن تكون أسماء هذه المناصب لم تقرأ قراءة صحيحة . وعلى أية حال ، فانه يفهم من الأسماء التى أمكن قراءتها حتى الآن أنها ليست من أصل تركى وانما وردت على الأتراك من الخارج فمثلا اللقب شاد « وهو لقب أعضاء أسرة الخان الذين يرأسون القبائل » يحتمل أن يكون فارسيا وأن يكون أصله كلمة شاه . ومما يلفت النظر أيضا وجود علامة الجمع المغولية وهى حرف التاء فى أواخر بعض هذه الأسماء . وقد ذهب الأستاذ بليو Pelliot فى محاضرة

له القاهها فى لينجراد خريف سنة ١٩٢٥ الى أن الأبر
 المذكورين فى المصادر الصينية باسم Les avares
 « جو - جن » J'ou-Jan من نسل المغول ، وذهب كذلك الى
 أن أسماء المناصب المنتهية بحرف « ت » ليست الا ميراثا أخذه
 الأتراك « تو - كيو » عن المغول . ويرى بليو أن الترك
 أخذوا أصول الحكم ونظام الدولة عن الأبر .

وتدعونا هذه المسألة الى ان نتساءل : كيف كانت العلاقات
 بين الترك وبين الاقوام المتمدينة فى الغرب من ناحية وبينهم
 وبين من سبقهم من البدو فى اوربا وآسيا من ناحية اخرى ؟
 كان يعتقد حتى زمن قريب أن مدنية الشرق الافصى لم
 تتأثر مطلقا بالمدنية الغربية ، وأن الأقوام التى عاشت فى
 منغوليا لم تتأثر بدورها الا بحضارة الصين ، وقد ذهب ادجار
 بلوشيه فى الكتاب الذى نشره سنة ١٩١٠ بعنوان « مدخل
 تاريخ المغول لرشيد الدين » الى أن كل كلمة غير تركية فى
 نقوش أورخون فهى صينية ، وذهب كذلك الى أن المغول
 عرفوا منذ أقدم عصورهم حضارة الصين وأنهم لم يقفوا على
 الحضارة الاسلامية الا بعد أن تكونت لهم حكومة قومية وبعد
 أن خرجوا لفتح بلاد الاسلام . ولعل أقوى ما تنقض به هذه
 الفكرة هو وصول الرسم الأبجدى من غرب آسيا الى الترك
 فى القرن الثامن والى المغول فى القرن الثالث عشر .

أبجدية نقوش أورخون

وقد لوحظ منذ عرفت آثار ينيسى فى القرن الثامن
 عشر أن حروفها هى عين الحروف المسطورة على آثار
 الأورخون ، ولوحظ أيضا أن بعض هذه الحروف يشبه حروف
 الأبجدية الأوربية ، وأن الحروف التى على آثار ينيسى أقدم
 من الحروف التى على آثار أورخون ، ويعتدل أن ترجع الى
 القرن السابع .

ولكن ليس من الممكن تحديد تاريخها بالضبط . ومما
 يلفت النظر فى نقوش ينيسى أنها لم تستعمل أى تاريخ حتى

ولا طبقا لتقويم الاثنى عشر حيوانا ، وهو التقويم المستعمل عند أتراك الاورخون ، وبما ان القيرغيز فى ذلك الزمان كانوا يقيمون فى سهل ينيسى الأعلى طبقا لما ترويه المصادر الصينية والمصادر الاسلامية - فيحتمل أن تكون هذه الحروف هي حروف القيرغيز -

وتروى المصادر الصينية أن تقويم هؤلاء القيرغيز هو تقويم الاثنى عشر حيوانا ، بل لقد ذهب بعض العلماء الى أن القيرغيز هم مبدعو هذا التقويم - وقد درس العالم الفنلندى دونر Donner أصل نقوش اورخون وينيسى ورأى أن هذه النقوش تشبه الكتابة الموجودة على مسكوكات الدولة الاشكانية التى وليت الحكم فى ايران من القرن الثالث ق - م - الى القرن الثالث بعد الميلاد -

وقد عثر الباحثون فى المنطقة التى يحدها شرق تركستان وغرب الصين على وثائق مكتوبة بلغة ايران الشرقية وهى اللغة التى تسمى عادة لغة الصفد « والصفد منطقة فى حوض نهر زرفشان محصورة بين مدينتى بخارا وسمرقند » - وترجع هذه الوثائق الى القرن الأول الميلادى ويرى جوتيو gauthiot ، وهو أكثر العلماء اشتغالا بآثار الصفد ، أن نقوش أورخون وينيسى مأخوذة فى الأصل من الحروف الصفدية وأنها ترجع الى رسم قديم لهذه الكتابة يرجع الى ما قبل القرن الأول للميلاد ، هذا على حين أننا لا نستطيع ارجاع النقوش التركية التى عثر عليها الى ما قبل القرن السابع ، وبناء على هذا فانه ما لم يعثر على أثر تركى تشابه كتابته الكتابة الأولى للصفد ويقاربها زمانا ، فانه لن يمكن تعيين أصل الأبجدية التركية القديمة تعيينا علميا -

ولم يكن الترك يكتفون بأن يستعيروا الأبجدية كما هى بل كانوا يضيفون اليها علامات من عندهم فمثلا اذا أرادوا التعبير كتابة عن جرس الكلمة التركية (أوق) رسموا سهمها هكذا « » ذلك أن السهم يسمى بالتركية أوق وبالإضافة الى هذا فانهم أخضعوا الأبجدية المستعارة للقوانين الصوتية للغة

التركية وبخاصة قانون تناسب المقاطع ويمكن لهذا أن يقال ان أقدم أبجدية استعملها الترك كانت أكثر تطورا من بعض الأبجديات التي استعملوها في الأزمنة الأخيرة (١) . وليس بعيدا أن يكون الترك قد كتبوا وثائق أخرى بهذه الأبجدية وأنهم لم يقتصروا على كتابتها فوق الآثار، ويلاحظ أن الرسم الخطي لهذه الأبجدية كان أكثر ضبطا وتطورا فوق أثر أقامه أحد أحفاد الخان لجده ، وأثر آخر أقيم باسم «تونيوقوق» وهو رجل استوزر لثلاثة خانات ، ويدل أسلوب هذه النصوص على أن نصيب الترك من المدنية لم يكن منخفضا بنسبة ما كانوا عليه من حياة البداوة حتى ان الخان ليدعو جميع أقوام الترك الى أن تنظر فيما خلف من آثار لتري ألوان ما أحرز من نجاح ، ولتري المشاكل التي واجهها نتيجة لعصيان الشعب ، وانه ليصعب أن نعتقد ان الشعب كان كله قارئاً كاتباً ولكن وصية الخان هذه تدل على أن سلطاته وواجباته كانت أوسع مما تصور شافان حين زعم أن الخان انما يصف في هذه الكتابات رؤيا مجد عفيف Rêve de gloire brutale ، فان هذه النصوص تبكى الدماء التركية التي أزيقت أنهارا في الأيام السود ، ولكنها لا تذكر ما أراق الأتراك من دم العدو ولا تصرح بعدد القتلى منهم ولا تفخر بما أظهر الترك في حومة الوغى من عنف وتعطش للدم ، على حين أن كل هذه الأمور كانت مدار فخر في نقوش الحكام الآشوريين .

الدين

إذا أردنا أن نفهم الحياة الروحية لقوم ما وجب أولا أن ندرس عقائدهم الدينية . ولكن الآثار الموجودة لا تذكر شيئا عن هذه العقائد ، وان كانت تتحدث عن عبادة السماء

(١) يعرض المؤلف هنا بالخطا العربى وذلك في سنة ١٩٢٧ أى قبل أن تفرض الأبجدية اللاتينية في تركيا بعام واحد - (المترجم) .

والارض ، وذلك أننا كثيرا ما صادف في تلك النقوش عبارة
 تورك كوكى « سماء الترك » وعبارة تورك يرصوبى « ارض
 الترك وماؤهم » وتستعمل كذلك كلمة (ته كرى) بمعنى
 « سماء » وبمعنى « الألوهية » . ويمكن ان نستنتج من
 العبارات المشتملة على كلمة يرصوب أى « الأرض والماء » أن
 الارض والماء يكونان ألوهية واحدة لا ينفصل جزأها وانه
 لا يراد بهذه الكلمة مجموعة الأرواح الأرضية ، وانما يقصد
 بها اله واحد معين . وقد زاد طومسن غموض هذه الكلمة
 « يرصوب » فى ترجمته الأخيرة ، حيث ذكرها بصيغة الجمع
 « اراضى الترك ومياهم المقدسة » . ومن بين الألوهيات
 المنعزلة عن غيرها يذكر روح واحد هو الروح الحارس
 للأطفال الرضع والمسمى (أوماى) umay وقد كان الخان يقرن
 دائما بين هذا الروح الحارس وبين أمه . ومازال الاتراك
 الشامانيون فى الألتاي يقدسون أوماى حتى أيامنا هذه .
 ولا شك أن الأتراك (توكيو) كانوا شامانيين مع أن
 الكلمة التركية المقابلة لكلمة (شامان) وهى « قام » لا ترد
 أبدا فى النقوش الأثرية ، وتذكر نقوش ينيسى كلمتى
 (ته كرى) و (بل Be) ولا شك أن Bel هذا هو أحد الأرواح
 (الجن) التى يقدسها الشامانيون وان كانت هذه الكلمة لم
 ترد فى نقوش أورخون الأثرية ، ومع أن انتشار الديانات
 المتحضرة بين الترك كان موضوع بحث فى المصادر الصينية
 فانا لا نجد شيئا بخصوصه فى نقوش أورخون . وتروى
 المصادر الصينية أن الخان أراد اقامة معبد بوذى فى عاصمة
 ملكه ولكن مستشاره (تونيوقوق) حوله عن هذا رأى بقوله
 ان الديانة البوذية تؤثر تأثيرا سيئا على خصائص الترك
 العسكرية .

هذا وما زالت المعلومات قليلة عن الدعاية الدينية الآتية
 من الغرب . وقد كان انتشار الأبجدية الايرانية بين الترك
 نتيجة محضة للعلاقات التجارية (مثلها كمثلى الأبجدية
 الفينيقية فى العصور القديمة) ومن هنا ، فلم يكن لانتشارها

بين الترك أى تأثير دينى فصلا عن أن الديانة القومية للايرانيين وهى الزرادشتية لم يكن لها نشاط تبشيرى عالمى ، وقد ظلت الولايات الشرقية لايران مفصولة عن الولايات الغربية بعد فتح الاسكندر وتعرضت بذلك للتأثير البوذى الوافد من الهند ، وقد كان مروجو الديانة البوذية من الهند يستخدمون فى تبشيرهم الأبجدية الهندية . وان بين أيدينا الآن بفضل البعثات الأوربية لكشف الآثار وثائق تركية مكتوبة بالحروف الهندية . ومع هذا فان البوذيين ما لبثوا بعد استخدام هذه الحروف أن تحولوا بسرعة الى الحروف

الصفدية التى انتشرت بينهم فيما بعد كما سنرى . وقد دخلت فى آسيا الوسطى أبجديتان أخريان هما الابجدية المانوية والأبجدية السريانية ، وذلك أن الديانتين المانوية والمسيحية دخلتا هذه المنطقة ابتداء من القرن الثالث الميلادى ودخلت مع كل منهما أبجديتها الخاصة ، ومع أن المانوية ترمى الى التوفيق بين الزرادشتية والمسيحية والبوذية ، فانها فيما يبدو دخلت فى آسيا الوسطى قبل المسيحية ومعنى هذا أنه قد نشأت علاقة بين الدين وبين الأبجدية فاستعمل المانويون أبجديتهم واستعمل النصارى أبجدية أخرى سموها السريانية . وكانت الفرق المسيحية المختلفة التى انتشرت فى آسيا

تستخدم أنواعا مختلفة من هذه الأبجدية السريانية وهكذا ظل الترك والايرانيون الذين قبلوا المسيحية أو المانوية ، يستعملون أبجدية هذه أو أبجدية تلك بحسب الديانة التى أدخلوا فيها . ومع هذا فان هناك نصوصا مسيحية ومانوية كتبت بالأبجدية القومية ، وهى الأبجدية الصفدية ويوجد الى هذا نص مانوى كتب مرة بالمانوية وأخرى بالصفدية . ولم تكد تسقط دولة الأتراك الغز حتى أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع كما سنبين فيما بعد . والآن نتساءل : الى أى مدى كان نجاح التبشير الدينى مطردا مع اتساع التجارة الصفدية فى الاستبس فيما بين القرنين السادس والثامن ؟ لا شك أن الطريق التجارى المؤدى الى الصين كان

مجالاً لنشاط المبشرين والتجار من الصفد ، وقد تأسست في هذا الطريق مستعمرات صفدية حتى منطقة لوب - نور . وقد أدت أبحاث بليو الى اثبات أن مستعمرة صفدية أقيمت في لوب - نور في القرن السابع وأنها كانت لا تزال تتمتع بعد قرن من الزمان بنوع من الحكم الذاتي ، وفي نفس الوقت كان التجار من الصفد يجدون لبضائعهم سوقاً في مناطق الاستبس التركية ، وبخاصة في معسكرات الخان ، وعلى هذا النحو تكونت مستعمرات صفدية في تلك المناطق .

ويروى السائح الصينى هيوان - تسانج الذى جاب آسيا الوسطى حوالى سنة ٦٣٠ أن مدناً تجارية صفدية كانت موجودة في المناطق التى يسكنها أتراك الغرب والتى كانت تمتد حتى نهر جو . وعلى الرغم من أن هذا السائح قد مر بالساحل الجنوبى لبحيرة ايصيغ ، فإنه لا يذكر المدن الواقعة هناك .

ولكننا نجد ذكر بعض المدن المؤسسة في تلك المنطقة في ثنايا تاريخ أسرة تانج Tang (الا أن تاريخ آسيا الوسطى ينتهى بتاريخ الأحداث التى وقعت في السنوات الأولى من القرن التاسع) .

الشامانية

تظهر العقائد الشامانية في مراسم الجنائز والدفن عند الترك ، وتروى المصادر الصينية أن الأتراك يقيمون الى جوار قبور الجند تماثيل لقتلى هؤلاء ، وقد عززت نقوش أورخون هذه الرواية الصينية ، وهى تحدثنا بأن هذا النوع من التماثيل كان يسمى «بالبال» Balbal ، ويظهر أنها كلمة من أصل صينى .

ولكن نقوش أورخون لا تحدثنا عما اذا كانت هناك مراسم خاصة تقام في أثناء وضع هذه التماثيل ، فأما المصادر البيزنطية فتحدثنا بأن الرؤساء العسكريين الذين

يقعون فى أسر الترك كانوا يدبحون عادة الى جوار قبر الخان ، ولا شك أن أساس هذا التقليد يرجع الى عقيدة تتوجد عند شعوب أخرى شامانية ، وهى أن القتلى يصبحون فى العالم الآخر خدما لقاتليهم أو لمن كان القتل باسمهم .

وهذه العقيدة حد فاصل بين ديانة الشعوب البدائية وديانة الشعوب المتحضرة ، وذلك أن الشامانية وما شابهها من ديانات البدائيين لا تقوم على أسس أخلاقية وليس معنى ايمانهم باليوم الآخر أنهم يؤمنون بالحساب وبأنهم سيسألون عما يفعلون . ولذلك فإن القاتل عندهم لا يخاف عقابا يوم القيامة ، بل يعتقد أن منزلته ذلك اليوم تزداد ارتفاعا بزيادة عدد من قتلهم .

وقد أيدت آثار أورخون بالتمائيل التى اكتشفت معها المعلومات التى وردت فى الكتب ، وأبطلت الأفكار التى كانت تنزع الى تجرييح هذه المعلومات ، وقد لوحظ أن هذه التماثيل المسماة (بالبال) ، والتى ترجع الى القرن الثامن هـ من حيث الشكل عين التماثيل التى يسميها الروس (المرأة الصخرية) (طاش نيته) (Kamennaya baba) والتى توجد فى مساحات واسعة فى مناطق الاستبس الروسية وبالإضافة الى المعلومات الصينية الخاصة بإقامة (البال بال) فإن لدينا معلومات أخرى أمدنا بها أحد رجال القرن الثالث عشر وهو المروج الكاثوليكي جيوم روبروق فقد روى أن الأتراك المقيمين فى جنوب روسيا ويسمون قومان أو بالوويتس طبقا لرواية الحوليات الروسية كانوا يقيمون على عهده تماثيل مشابهة (للبالبال) وكانت تقام بحيث تكون وجوها متجهة الى الشرق . وعلى الرغم من أن المصادر الصينية قد اتفقت مع مصادر أخرى مستقلة عنها وهى المصادر الأوروبية ، فإن رادلوف فى كتابه Aus Sibirien يخطئ مؤرخى الصين ويخطئ روبروق ، ويدعى أن هذا النوع من التماثيل قد أقيم فى روسيا قبل ظهور الترك وقبل أن يتوغلوا فى هذه المناطق بقرون عديدة .

وقد كان هذا الراى ممكنا قبل أن تحل النقوش التى وجدت على آثار ينيسى ولكن الكتابة التى وجدت على تماثيل بالبال الينيسى وعلى نفس التماثيل بجوار أورخون قد حلت وتبين أنها تركية خالصة ، فلا شك اذن بعد فى أن التماثيل المسماة (المرأة الصخرية) من أصل تركى .

وقد اعترض رادلوف فى نفس الوقت على بعض المعلومات الصينية الخاصة بالترك ، فهو يكذب مثلاً ما ترويه هذه المصادر من أن الترك كانوا يشتغلون بالحدادة قبل أن يؤسسوا لأنفسهم دولة ، ويرى أن صناعة التمددين لا تلائم حياة البداوة . وليس بنقوش أورخون ما يؤيد الرواية الصينية ولا ما ينقضها ، ولكن الروايات الشعبية عند الترك وعند المغول تؤكد امكان استعمال الأسلحة الحديدية مع الحياة البدوية . ويرى رادلوف أن ما ترويه المصادر الصينية من أن الترك يحرقون جثث الموتى يمثل تناقضاً بين روايات الكتب وبين ما تدل عليه الآثار المادية ، ذلك أنه لم يجد أى أثر لمادة احراق الموتى فى كل القبور التى درسها ، وكل ما تمدنا به نقوش أورخون فى هذا الموضوع هو أن الترك يعتقدون أن روح الانسان تتناسخ بعد موته فتصبح طائراً أو حشرة ، ويقول الترك اذا مات ميتهم انه (طار) « او جدى » ومعلوم أن أتراك الغرب حتى بعد اسلامهم كانوا يقولون فى مكان كلمة « أولدى » = (مات) العبارة التركية (شونقار بولدى) أى لقد صار صقراً ويفهم من هذا أنهم كانوا فى الغالب لا يعنون بالمحافظة على الجسم الانسانى ، ومع هذا فهناك رواية خلاصتها أن جثة قائد تركى وقعت فى أيدي العرب فكان ذلك عند الترك أشد من الموت نفسه ، ولكن يحتمل أن يكون هذا الاحساس غير راجع الى الدين ولكن الى الشعور بالكرامة ، فقد كان الترك يرون أن الذل كل الذل هو أن تقع المرأة أو أن تقع جثة القائد فى يد العدو اثناء الحرب . وربما كانت الحفريات التى تجرى فى أماكن دفن الخانات أقدر على اعطائنا معلومات مفصلة عن مراسم

الدفن والجنائز عند الترك . وقد قام بهذه الحفريات رادلوف وزملاؤه ثم قام بنفس العمل من بعدهم الأستاذ فيلاديميرتسوف Veadimirtsoff سنة ١٩٢٥ ولكن هذه الحفريات لم تؤد الى ظهور أى قبر حتى الآن ويحتمل أن يكون الترك - شأنهم شأن غيرهم - يحفرون عند دفن الخان حفرا كثيرا ويضعون جثة الخان أو رماده فى أحداها - صونا للخان من أن يهان أو أن يحقر بوقوع جثته فى يد العدو .

ولعل النتيجة اللافتة لحفريات فيلاديميرتسوف هى وجود تمثال قد حفظ بعناية شديدة فى قبر أحد رجال الحرب من الترك . وقد رؤيت فى هذا التمثال كل ملامح الترك ، وكان هذا النوع من التماثيل يوجد فيما قبل فوق سطح الأرض ولكن رموس التماثيل كانت دائما لا توجد ، وكان كسر رموسها من فعل المغول فانهم كانوا يعتقدون أن صور القدامى تورث الشر للأحياء ، ويرى من هذا أن كسر رموس التماثيل عرف فى أماكن لم ينتشر فيها الدين الاسلامى الذى جرت العادة حتى يومنا هذا على أن ينسب اليه هذا الفعل . ويحتمل أن تعطينا الحفريات التى ستجرى مستقبلا معلومات جديدة كثيرة عن هذا الموضوع ولكن لا يصح - حتى تظهر نتائج الحفريات - أن ترد روايات الصينيين الخاصة باحراق الترك جثث الموتى ، بخاصة أنه ظهرت بعد حفريات رادلوف بعض قبور فى الاستبس وبداخلها آثار الاحراق ، وكان الصينيون يستطيعون رؤية مراسم الدفن عند الترك من قريب ، وقد اضطرب بعض الخانات - تحت سيطرة الأعداء - الى الفرار الى الصين ، وكانوا يدفنون طبقا لعاداتهم تحت أعين الأهالى ، ومن هنا يمكن القول بأن احتمال خطأ المصادر الصينية بعيد .

وبعد فقد أردت بهذا الدرس توضيح الأفكار التى حصلناها من دراسة النقوش والآثار والتماثيل التى خلفها قوم تسموا لأول مرة فى التاريخ ب (الترك) .

وأمامنا الآن مسألتان : الى أى حد يمكن أن تعيننا هذه النتائج على معرفة أى الشعوب السسابقة على الترك كان يؤاخيهم من قريب أو من بعيد ، وإلى أى حد يمكن ان توضح لنا أحداث دولة الترك بين القرنين السادس والثامن حياة الترك فيما أعقب ذلك من عصور ، وسيكون الدرس القادم خاصا بهذه الموضوعات -

المحاضرة الثانية

أصول اللغة التركية :

بالإضافة الى الصعاب التي تعترض دراسة تاريخ الترك بآسيا الوسطى ، والتي عددناها في المحاضرة الماضية ، توجد صعوبة أخرى مهمة وهي انعدام التناسب من حيث الكم بين المعلومات التي تخص حقب التاريخ المختلفة ، فبينما تكثر المعلومات وتعمق عن حقبة معينة من تاريخ قوم من الترك أو عن بلد معين من بلادهم ، اذا نحن نقنع مضطرين ، اذا أردنا أن نقف على حياة هؤلاء القوم أنفسهم قبل هذه الحقبة أو بعدها ، ببضع كلمات مأخوذة عن أى مصدر ، هذا على حين أن فهم تطور الأحداث التاريخية لشعب أو لبلد ما يقضى بأن نكون قادرين على تأمل كل صفحة من تاريخ هذا الشعب ، ولقد يدفعنا خلو المراجع من المعلومات المطلوبة الى سوق الفروض والأفكار الشخصية ، ومن هنا يستحيل حسم المشكلة بالوسائل العلمية الصحيحة .

ان لنقوش أورخون — كما بينا في المحاضرة الماضية — منزلة خاصة في تاريخ الدول البدوية التي قامت على حدود الصين حتى عهد المغول .

وأما الدول البدوية التي قامت في مناطق الاستبس قبل تكون الامبراطورية التركية ، أى قبل القرن السادس ، فان مراجعها التي لا مناص من القناعة بها هي الاشارات المقتضبة الواردة في المصادر الصينية ، لا بد من القناعة بهذا لأن هؤلاء الترك أنفسهم قد اختفوا من مسرح التاريخ، دون أن يخلّفوا ولو بضع كلمات من لغاتهم واذا أردنا أن نجد اللغة التي كان يتكلمها أى قوم من أقوام الترك ، فان مرجعنا الأول المعترف

به حتى الآن هو تلك الألفاظ المفردة الواردة في التواريخ الصينية والمسطورة أيضا بالحروف الصينية وهي على الخصوص أسماء ، وألقاب ، وأسماء مناصب ثم نستطيع (مستعينين بقواعد التلفظ الصينية) أن نرجع هذا اللفظ أو ذاك إلى هذه اللغة أو تلك ، كما نستطيع أيضا أن نضبط تلفظه ، وقد أعانت نقوش أورخون العلماء القدامى على مراجعة هذه الطريقة من طرق الاستدلال ، وعلى مراجعة النتائج التي وصلوا إليها ، ومع هذا فإن هذه المراجعة لم تشف ، بل إن ما قام به أكابر علماء لغات الترك من أبحاث كان خطأ ، مع أن الكلمات التي تصدوا لها كانت تركية من تراث أقوام لا شك في تركيبهم ، ومن ذلك مثلا أن رادلوف - قبيل أن تكشف نقوش أورخون - حاول أن يدرس ألقاب الحكام الأتراك الواردة في المصادر الصينية وبالرسم الصيني ، ولكن نقوش أورخون دلت فيما بعد على أن جل الفروض التي ساقها رادلوف لحل تلك الكلمات كانت بلا أساس (هذا وقد نشرت أبحاث رادلوف في جملة من تأليفه ، منها مقدمة لطبعة قوتا - دغو بيليك) . كان رادلوف يقرأ مثلا في المصادر الصينية « به ك » وحقيقتها « بيلكه » وكان يقرأ « آيدينلق » وصوابها « آي ته كرى » ، بل إن كلمة « آيدينلق » لم تكن موجودة في اللغة التركية في ذلك الزمان .

وتبين نقوش أورخون أن الصينيين كانوا يطلقون أحيانا على بعض هذه الشعوب أسماء مغايرة تماما لما تطلقه هذه الشعوب على نفسها . فكلما تحدثت المصادر الصينية مثلا عن (قيطا) ذكرت معهم اسم شعب آخر هو (هي) ، على حين أن نقوش أورخون تسمى هذا الشعب الذي يذكر دائما مع الخطاي باسم (تاتاي) ويتفق العلماء في أوروبا على أن هاتين الكلمتين المختلفتين (هي) و (تاتاي) اسمان لشعب واحد .

ومما يزيد الصعوبة على الباحثين في تاريخ الدول البدوية أن علماء الصينيات لم يحددوا قواعد نطق الحروف

الصينية في المدة المقابلة لقيام كل من هذه الدول . وقد تكررت محاولة تعيين لغات بعض الشعوب في آسيا الوسطى ، بالاستعانة بما خلفته تلك اللغات من القَاطِطِ مسطورة بالحروف الصينية وكانت أولى هذه المحاولات خاصة بلغة أقدم هذه الشعوب وهو شعب الهياطلة .

ومعلوم أن الهياطلة أقاموا دولة قوية على حدود الصين في القرن الثاني ق . م . ثم هاجروا الى أوربا حيث عُرِفوا تماما في القرن الخامس ويُعتبر الهياطلة تركا ، ويقول الصينيون عن الأتراك في القرن السادس انهم من سلالة الهياطلة .

وقد قام الاستاذ الياباني شيراتورى Shiratori ببعض الأبحاث على المفردات المنسوبة للهياطلة في المصادر الصينية ، وذلك لمعرفة ما اذا كانت لغة الهياطلة لغة تركية ام لا ، ويكفي لمعرفة مدى فشل هذه التجربة أن تعلم ان الاستاذ شيراتورى رجح هو نفسه عن فكرته وقرر أن الكلمات المنسوبة للهياطلة يمكن توضيحها أكثر بالاستعانة بلغة التونغوز . ذلك أن البدو الذين أقاموا حكومتهم على حدود منغوليا الشرقية بعد الهياطلة أصلهم على الأرجح من التونغوز ، ولم نعرف اسم هؤلاء القوم الا من الكلمة المكتوبة بالرسم الصيني : (سيانبي) Siempi ويذكر هؤلاء التونغوز بوصفهم أعداء الهياطلة وجيرانهم من الشرق وقد حلوا محل الهياطلة في منغوليا في أواخر القرن الأول للميلاد ، وأسسوا - مثلهم في ذلك كمثل الهياطلة - أسرات حاكمة في المناطق الشمالية للصين .

ولم ينسب مؤرخ واحد هؤلاء السيانبي الى الأصل التركي كما حدث للهياطلة بل قيل انهم تونغوز ، ولكن الأستاذ بليو يقول في بعض محاضراته بلنجراد ان معجما للغة السيانبي قد وجد بين بعض الآثار الصينية ، وأنه قد تبين بدراسة هذا المعجم أن لغته تركية خالصة . ومن هنا فلا شك

فى أن السيانبى قوم من الترك ، وهذا الذى أعلنه بليو بالغ غاية الأهمية لأنه يدل على إمكان استنباط معلومات محددة وصريحة عن لغات البدو المتأخمين للصين من المصادر الصينية . وليس العثور على معجم للغة السيانبى حادثا مفردا ، فقد سبق أن أعلن بليو فى مقال مطبوع عن العثور بين بعض الآثار الصينية على معجم للغة (خطاى) وهم قوم مذكورون فى نقوش أورخون ويفهم من هذا المعجم أن ال (خطاى) الذين كانوا يعتبرون حتى الآن من التونغوز كانوا يتكلمون اللغة المغولية .

والحق أن آراء بليو التى عرضتها فى المحاضرة السابقة لم تتضح لي تماما ، فهو يعتبر الأبر *Les avars* من سلالة المغول . وقد كانت لهؤلاء الأبر حكومة قبل الترك ، وهى ان لم تبلغ ما بلغته حكومة الترك من سعة ، فقد استطاعت فى القرن الخامس وفى النصف الأول من القرن السادس أن تحكم كل القسم الشرقى من آسيا الوسطى (فعلى أى أساس بنى بليو هذا الرأى ؟ لا أدرى !

ان الاسم الذى أطلقه الصينيون على الأبر لا يمت بصلة لاسمهم الحقيقى فقد سماهم الصينيون « جوجن » أو جوان *Jouan Jauan* وهو اسم لنوع نادر من الذئب ولا شك أن الصينيين يعبرون بهذا الاسم عن استخفافهم بالبدو وبغضهم لهم .

ولا نصادف كلمة أبر فى المصادر الصينية ولا ندرى أموجوده فى نقوش أورخون أم لا . وقد وزدت فى هذه النقوش كلمة بارباروم *par parum* أو آبا أبوروم وقد وردت مرة واحدة على أنها اسم لشعب عاش فى الماضى ولم يكن معاصرا لكاتب النقوش ، وقد قرأها طومسن فى آخر ترجمة له على أنها كلمتان مستقلتان كل منهما اسم لشعب مستقل ، ولكن طومسن وضع علامتى استفهام بعد الكلمتين فبدل بذلك على غموض المعنى . أما كلمة أبر فأنها تصادف

فى المصادر البيزنطية والآوروبية والروسية (وترد فى كتب الوقائع الروسية فى صيغة Obry أوبرى) ويفرق البيزنطيون بين الأبر الحقيقيين واللصقاء ، وعندهم أن الحقيقيين قد بادوا واندثروا فى الشرق وأن الأبر الذين هاجسروا الى أوروبا انما تسموا فقط باسم الأبر الحقيقيين وانتسبوا اليهم ، ولا يخلو فأما أن يكون الأبر قوما واحدا أو قومين متشابهين *

على ان هناك حقائق تعزز رأى بليو منها ان بعض الكلمات البلغارية القديمة وردت فى كتاب حوليات سسبى يرجع الى عهد الأرسطقراطية البلغارية القديمة على نهر الدانوب ، وبما أن البلغار ليسوا صقالبة حتى انهم مازالوا يحتفظون فى مظهرهم بعلامات غير صقلبية ، وبما ان من المحقق ان هذه الكلمات الملعزة لا علاقة لها بلغة الصقالبة ، فقد حول تقريبها الى اللغة التركية أو الى لغة قريبة منها ، وأشهر رأى فى هذا الصدد هو رأى العالم الفنلندى ميقولا Mikkola فقد ذهب الى أن هذه الكلمات الملعزة هى الأسماء الواردة فى تقويم الاثنى عشر حيوانا ولكن لوحظ أن عام الحصان وهو بالتركية (بيلقى) أو (أت) قد سمى اسما مغوليا هو (مورين) Morin ، وقبل أن تظهر النظرية القائلة بأن الأبر من أصل مغولى كان وجود كلمة مغولية فى مثل هذا التقويم يعتبر شيئا غريبا ، واذا تحقق أن الأبر من أصل مغولى كان معنى هذا أن هذه الكلمة وردت على البلغار من الأبر الآتين من الشرق *

وسأكتفى بهذا المثال ، ولن أتعرض لمحاولات أخرى قليلة الأهمية لبعض العلماء الذين يحاولون العثور ببعض الكلمات المغولية فى الغرب فى تواريخ سابقة على ظهور المغول على مسرح التاريخ ، ولقد ذهب بعض كبار هؤلاء العلماء الى فروض علمية غاية فى الجراءة ومن بين هؤلاء العالم «مار كارت» ، فانه يقارن مثلا بين كلمة جفانيان وهى

اسم لمنطقة في حوض جيحون وبين الكلمة المغولية تسباغان (بمعنى أبيض) وعلى الرغم من أن المسألة خلافية فإن مازكارت يبدأ قوله بتأكيد أن هذه الكلمة مغولية .

ومن ناحية أخرى يمكن أن تقوم بعض الاعتراضات على رأى بليو القائل بأن الأبر من سلالة المغول ، ذلك أن حكم الأبر أو جوان جوان كان قد امتد غربا منذ القرن الخامس حتى أشرف على حدود قار أشهر في تركستان الصينية وقد ألجأ توسعهم هذا قوما من الهياطلة - كان الأتراك قد فتحوا بلادهم - إلى الهجرة غربا نحو حوض جيحون ، فإن كان هؤلاء الأبر وهم على هذا القدر من الأهمية مغولا فكيف لم تتميخ عن الحفريات ولا الأبحاث الكثيرة في آسيا الوسطى عن نص مغولي واحد يرجع تاريخه إلى ما قبل جنكيزخان ؟

ومع هذا فهناك فكرة ربما عززت رأى بليو، ذلك أنه من المحتمل أن العلاقات التجارية بين تجار الصغد وبين البدو في آسيا الوسطى لم تبلغ في عهد الأبر ما بلغت فيما بعد في عهد الأتراك ال (تو - كيو) .

وذلك رغم ما نعلمه من أن العلاقات التجارية كانت قائمة في القرن الخامس بين (الصغد) وبين الهياطلة سواء المهاجرون منهم إلى أوروبا ، أو أولئك الذين كونوا لأنفسهم دويلات على حدود الصين . ومهما يكن من شيء فإن ما ساقه بليو يدعونا إلى أن ننتظر من علماء الصينيات معلومات أكثر فيما يتعلق بأصل أقوام البدو في آسيا الوسطى ، واننا ننتظر أيضا أن تستفيد الدراسات التاريخية من التقدم الذي أحرزه علم اللغات ، أو أن يفيدنا هذا التقدم على الأقل في اصلاح بعض الأخطاء . ولا مجال اليوم للمقارنات اللغوية التي قام بها اللغويون القدماء على أصول غير علمية ، فقد كانوا يستعينون مثلا على توضيح كلمة من كلام الهياطلة أو غيرهم من الشعوب البدوية باللهجات التركبية الموجودة الآن ، ولا يتساءلون إذا كانت هذه الكلمة قد وجدت بصورتها

الحالية فى تلك اللغة القديمة أم لا • ومن ذلك أن الأستاذ شيراتورى حاول أن يشرح لقب الحاكم عند قوم عاشوا قبل الميلاد، فاستعان على ذلك بكلمة موجودة الآن فى بعض اللمحات التركية بآسيا الوسطى وهى كلمة (بى Bi) مع أن هذه الكلمة ليست الا تحريفا محدثا للكلمة التركية (به ك) وهى صيغة لا تصادف قبل القرن الخامس عشر •

وحاول ماركارت أيضا أن يوضح كلمة وردت فى نقوش أورخون بكلمة تستعمل الآن بمعنى نهر وهى كلمة اتيل ، على حين أن هذه الكلمة أخذت من لغة الجوفاش ولا تصادف الا فى لغة التتار أى أتراك الفولجا •

ويمكن القول بأن النقوش التركية التى اكتشفت فى آسيا الوسطى والآثار الدينية ، تساعد كلها على معرفة التطور التدريجى للغة التركية ، وعلى تحديد المكان واللهجة اللذين تنتمى اليهما الكلمة ، كل أولئك بصورة علمية •

ولو أن النماذج الأولى للغة المغول كانت قد اكتشفت لبلغت الآن الأبحاث المتعلقة باللغات التركية والمغولية — من حيث المنهج العلمى — ما بلغت اللغات الهندية الأوروبية واللغات السامية •

ولكن ما دامت آثار اللغة المغولية قبل القرن الثالث عشر غير موجودة ، فسيظل تاريخ لغة المغول — حتى يتم كشف هذه الآثار — أكثر ابهاما وغموضا من تاريخ لسان للترك ، على أن دراسة اللهجة الموجودة الآن للغة ما تفيدنا فى تاريخ هذه اللغة • ذلك أن اللغات جميعها تحتفظ فى لسان الخطاب ببعض الكلمات العتيقة التى انعدم استعمالها فى لغة الأدب، ولكن هذا أيضا لا يساعد علماء اللغتين التركية والمغولية. مثلما يساعد علماء اللغات الهندية الأوروبية والسامية ، لأن اللغة المغولية كانت متشابهة اللهجات بحيث لا يمكن أن تؤدى المقارنة بينها إلى استنباط أية فدلكة تاريخية •

وبما أن الترك قد انساحوا في بقعة من الأرض أرحب من التي انتشر فيها المغول ، فقد كان ينتظر أن تكون الفروق بين اللهجات التركية أكبر ، ومع هذا فإن معظم اللهجات التركية متشابهة وليس امام عالم التركيات سوى لهجتين اثنتين متميزتين احدهما عن الأخرى وهما لهجة (ياقوت) ولهجة (جوفاش) وهكذا يمكن اذا قورن هذان اللسانان باللهجات التركية الأخرى أن نحصل على المواد الأساسية التي تلزم لايضاح تاريخ اللغة التركية وتاريخ الترك أنفسهم .

الياقوت والجوفاش

انسلخ الناطقون بلغة (الياقوت) عن الأقوام السربية منذ أقدم العصور وهاجروا الى المناطق الشمالية السوى . وهم بذلك لم يشتركوا في الحياة التاريخية للأتراك ، واما لغة جوفاش فقد استعملت على الضفاف الوسطى لنهر الفولجا وصودفت آثارها في الطريق الذي سلكته أقوام الترك المهاجرة من آسيا الوسطى ويظن أنها كانت في الفصور الوسطى أوسع استعمالا منها الآن ، اذ يسجل جغرافيو العرب أن الأقوام التركية التي تبدأ بالبجناك في جنوب روسيا ثم تنتشر حتى حدود الصين تتكلم بلغات متشابهة الا البلغار في حوض الفولجا والا (الخزر) ، فان لغتهما لم تكن تفهم عند سائر الأقوام التركية ، ويزيدون على هذا أن ذلك اللسان كان مغايرا للسان الفن Finn ، ولهجة الجوفاش الآن هي بنفس هذا الوضع فهي أشبه باللهجات التركية منها بلهجة الفن ، ولكنها مع هذا غير مفهومة لا عند الترك ولا عند الفن . ويسمى البلغار والخزر نهر الفولجا (أتيل) وهي كلما جوفاشية بمعنى نهر ، ومن هنا ذهب أصحاب الدراسات التركية الى أن لغة الجوفاش هي بقايا اللسان القديم للبلغار وربما كذلك للخزر .

وقد درست فى زمن ما خصائص لغة الجوفاش وذهب رادلوف - فى ذلك الوقت الى أن هذه اللغة هى نتاج خلطة اللغة التركية باللهجات الفنية .

وقد حاول بعض العلماء بعد ذلك اثبات أن لغة الجوفاش قد حفظت بقايا اقدم دور من ادوار تطور اللغة التركية ، وكان آخر من درس هذا الموضوع ووصل الى نفس النتيجة هو بوب poppe ، وقد نشر مقالاته فى « أخبار الأكاديمية الروسية » وكان بوب يرى فى أول الأمر أن اللسان الجوفاشى - مع دخوله فى مجموعة اللهجات التركية المغولية - لا يرتبط بهذه ولا بتلك بل يكون فى هذه المجموعة شعبية ثالثة - ولكن ما لبث بوب بعد المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع فى أكاديمية ليننجراد أن قرر أن اللسان الجوفاشى هو اللسان التركى ، الا أنه يمثل أقدم مرحلة لتطور هذا اللسان ، وقد انفصل اللسان الجوفاشى عن أصله ، زمان انفصل اللسان المغولى عن اللسان التركى ، ولم يكتسب هذا اللسان بعد الملامح المميزة للغات الترك الأدبية ولهجاتهم الحالية ، واذا قبلت هذه النتيجة علميا بصورة نهائية ، كانت لها عند المؤرخين أهمية كبرى .

ولئن كان البلغار والخزر لم يذكروا قبل القرن السادس ، فان من المحقق أنهم وفدوا على حوض الفولجا قبل أن تتكون امبراطورية الأتراك (توكيو) فى منتصف ذلك القرن .

ويمكن الجزم بأنهم وفدوا على تلك المنطقة فى الفترة التى يقال انها دور هجرة الهياطلة ، وقد كان هؤلاء الهياطلة يقيمون بالقرب من نهر الفولجا فى القرن الثانى ، زمن الجغرافى بطليموس وفى ذلك الوقت لم يكن يذكر الاسم الجوفاشى لنهر الفولجا : (أتيل) وهو الاسم الذى صار فيما بعد عاما فى سائر اللهجات التركية ، ولكن نهر (ياييق) كان يحمل اسمة الحالى التركى الأصل ، والذى نصادفه عند

بطليموس في صيغة (دايق) ، والظاهر أن استعمال الدال بدل الياء الواقعة أول الكلمة يطبق في اللسان المحلي لأواسط الفولجا بعد زمن بطليموس حتى ان كلمة (يوغ) الواردة في نقوش أورخوش ومعناها « مراسيم الميتم » ترد في مصادر القرن السادس البيزنطية بصيغة دوخيا Dochia . ولا تتفق هذه الظاهرة مع قواعد النطق الحالية للسان الجوفاش ، ذلك أن الياء في اللهجات التركية تنقلب في لسان الجوفاش وفي لسان الياقوت الى « س » ومهما يكن ، فان التطور الصوتي للهجات الجوفاش والترك لم يوضح بعد كما ينبغي ، وأما كلمة « دايق » الواردة عند بطليموس فربما كانت أقدم كلمة تركية وردت في نص موثوق به .

واذا كان لسان الجوفاش يمثل بقايا مرحلة من مراحل التطور الأولى للسان التركي ، فان الأحداث التاريخية تسمح لنا بأن نفرض أن لسان الهياطلة كان بنفس الوضع . ويستنتج من هذا أن لسان الهياطلة لم يكن تركيا بمعنى الكلمة أي أنه لم يكن اللسان الذي تتكلمه الأقوام التركية جميعها ما عدا الجوفاش والياقوت . ويحتمل أن يكون الهياطلة قد وطنوا لسانهم في أقصى المناطق الغربية وأنهم استطاعوا أن يدخلوا آثارا من لغتهم في لغات الأقوام التي تأثرت بهجرتهم مباشرة أو بالواسطة ، ومن هذا القبيل الكلمات التركية في اللغة المجرية .

ويحتمل أن يكونوا هم الذين نشروا بعض اصطلاحات الصين الحضارية في المناطق الواقعة في أقصى الغرب ، فكلمة كتب مثلا في اللغة المجرية مشتقة من كلمة من أصل صيني هي بيتيمك ، ويجب أن يكون لسان السيانبي - وهم جيران الهياطلة من الشرق - راجعا الى أبعد دور من أدوار تطور اللغة التركية ، ولكن حل هذه المسألة يتطلب المبادرة الى نشر المعجم « السيانبي - صيني » الذي حدثنا بليو عن وجوده .

وما زالت الفروض العلمية المتعلقة بنشاط الترك ، في الجزء الغربي من آسيا الوسطى في القرنين الأولين قبل الميلاد وبعده غير مؤيدة بالأدلة .

الهند / سكيت

ويفهم من الكتب اليونانية القديمة وبخاصة كتاب (الأقاليم والأماكن) لبقرات أن اليونان عرفوا عدا الأقاليم الهندية الأوروبية أقواماً أخرى ولكننا لا نعرف بصورة حاسمة إذا كان الترك من بين هذه الأقاليم ، ويميل شافان Chavannes وهو يحاول أن يثبت أن تقويم (الاثني عشر عاماً) تركي إلى أن يقول بأن القوم الذين كانوا بأواسط آسيا في القرن الثاني ق . م - دولة عاشت فيما بعد قروناً ، كانوا كذلك من الترك ، وأنهم هم الذين غزوا كثيراً من الأقاليم الهندية ، وأنهم هم الذين سماهم اليونان (هند / سكيت) .

وقد اعترض على شافان بأن تقويم الاثني عشر حيواناً يحتوى على (عام القرد) ، على حين أن القرد لا يوجد في بلاد الترك ، ويرد شافان بأن الترك - وقد فتحوا الهند في القرن الأول قبل الميلاد - قد رأوا القرد ، والآن فلا يكاد يوجد من يؤيد نظرية شاوان الخاصة بتقويم (الاثني عشر حيواناً) ولا نظريته الخاصة بأن (الهند / سكيت) أصلهم من الترك ، إلا عالم الصينيات المشهور فريدريخ هيرث Hirth الذي يصر على هذا الرأي ، ويبدو أن هذا التقويم نشأ في الهند وأن الصينيين قد أخذوه عن الهنود ، ثم انتقل في الأزمنة القديمة من الصين إلى الترك .

الطوخاريون

والطوخاريون يكونون الطبقة الأولى بين ال (هند / سكيت) وقد سميت المناطق الواقعة في أعالي مجرى نهر

جيحون باسم (طخارستان) نسبة الى هؤلاء الطوخاريين ، ولكن المؤلفين المسلمين لم يعرفوا الأصل الاتنوغرافى لهذه التسمية . وكان الطوخاريون يعيشون أول الأمر فى تركستان الصينية ، ويعد لسانهم بين السنة آسيا الوسطى التى حررت بها نصوص بوذية ، وقد عثرت البعثات الأوروبية للتفتيش عن الآثار على وثائق فى شرقى تركستان مكتوبة بلغات مختلفة ، ولكن لم يكمن بعد المناقشات الطويلة تحديد اللسان الطوخارى من هذه اللغات .

ومهما يكن ، فإن الخلاف محصور بين لغتين من العائلة الهندية - الأوروبية كتبت احدهما على الآثار القريبة من ختن وكتبت الأخرى على الآثار القريبة من كوجا .

الترك

ولا شك أن الترك الذين يتكلمون ما نسميه اليوم (اللغة التركية) كانوا موجودين منذ أقدم العصور ، ولكن من العبث أن نفرض أن كلمة (ترك) كانت موجودة قبل القرن السادس ، وقصارى ما يمكن قوله فى أصل هذه الكلمة ومعناها هو أن نسوق بعض الفروض .

يرى طومسن فى آخر مؤلفاته أن كلمة (تورك) اسم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح اسم لأسرة حاكمة ، ويحتمل أن يكون المعنى الأول للكلمة (تورك) أو (توروك) هو القوة والاحكام .

ويعترض على هذا بأن نقوش أورخون لا تؤيده ، فقد وردت كلمة (ترك) فى هذه النقوش بمعنى (قوم) ووردت مرة واحدة بغير هذا المعنى ، ولكنها حتى فى هذه المرة المفردة لا تدل على معنى القوة أو الاحكام .

ويتحدث الخان عن قاغان التوركش فيقول : (توركم بودونم) أى تركيى وقومى (كندى توركم كندى قوم) ، ويترجم طومسن هذه العبارة هكذا : (انه ملك لأتراكى ،

لشعبي) فاذا لم تكن كلمة (تورك) اسم جنس وكانت صفة ،
للزم أن يكون المعنى (المسوى والمهيا) أو نحو هذا ، ذلك أن
الخان يريد أن يقول فى هذا المقام أن قاغان تركش خرج
عليه بعد أن سواه بيديه وجعل منه شيئا .

ويمكن أن نفرض أن كلمة تورك لها علاقة بكلمة
(تورو) التى يكثر استعمالها فى نقوش أورخون بمعنى
الجماعة المتحدة بالقانون وبالتقاليد ، ويقول الخان ان قومه
(بودون) منحوه السلطة وولوه سيادة القوم (تورو) .

وليس فى نقوش أورخون ما يعين على تحديد القبائل
التى كانت تسمى (تورك) تحت حكم ال (توكيو) ، كما
أننا لا نعلم كيف اتسع مدلول الكلمة حتى شمل القبائل
الأخرى ، ولا كيف تطور حتى اكتسب معناه الحالى ، كان
الخان يقول لقومه : (التورك) و (لغز) و (التغزغز) ، على
حين تصف بعض المصادر الأخرى ال (تغزغز) بأنهم أعباء
الخان ، وقد وصل رادلوف - قبل أن تحل نقوش أورخون -
الى أن الأتراك الذين دامت دولتهم من القرن السادس الى
القرن الثامن كانوا ينتسبون الى الأتراك الغز ، وقد صدقت
النقوش الأثرية ما ذهب اليه رادلوف . وقد كان هؤلاء
(الغز) أو (الترك) ينقسمون قبائل عدة ، وفى الشرق
يوجد ال (ثولوس) و ال (طاردوش) ، وفى الغرب يوجد
ال (توركشن) ، ويذكر عدا الغز قبائل أخرى من الترك أى
(الترك) بالمفهوم الحالى للكلمة ، وأشهر هؤلاء هم
ال (قارلوق) و (الاويغور) والقيرغيز ، ولكن ليس لدينا
دليل على أن هذه الأقوام كانت تسمى نفسها (تركا) ويحتمل
أن يكون المفهوم الحالى لكلمة تورك اصطلاحا اسلاميا .

وقد لاحظ العرب أن أقواما كثيرة ممن حاربوها فى
القرنين السابع والثامن كانت تتكلم نفس اللغة التى يتكلمها
الأتراك ، فأطلقوا عليهم كلمة ترك ، وبعد هذا بدأت الأقوام
التى دخلت فى الاسلام تسمى نفسها (تركا) ومع هذا

فيوجد الآن من الأتراك الذين دخلوا في الاسلام من لا يسمون لغتهم (تركية) . ولم تنتشر كلمة ترك خارج المحيط الاسلامي كثيرا ، إلا أن لدينا في هذا الخصوص حالة استثنائية ، ذلك أن هناك أثرا خاصا بالديانة البوذية ، وقد ذكر فيه أنه كتب باللغات التركية (تورك أو يغورتيلي) على أن الروس والأوربيين الغربيين في الأزمنة المتأخرة لم يطلقوا كلمة (ترك) لا على البجناك Petchénégues ولا على البولوفتسى Polovtsy (قومان) ، وإنما أطلقوها على السلاجقة ثم على العثمانيين .

وهم جميعا (العثمانيون والسلاجقة) منعقدون من الغز مثلهم كمثل أتراك الأرخون وترد في كتب (الحوليات الروسية) كلمة تركي Torki وهي في الغالب بمعنى كلمة (ترك) وان كانت تشير مع هذا الى الشعب المسمى في المصادر البيزنطية (Uz) أي (الغز) .

ومن بين أسماء الأقوام التي ذكرت في نقوش أورخون لا نجد اسما ذكر في المصادر الصينية ، (السابقة على تلك النقوش) غير اسم القيرغيز ، ذلك أن هذا الاسم يرد في الحكايات المتعلقة بوقائع حكم الهياطلة أي في الفترة الواقعة قبيل ميلاد عيسى وبعيده ، وهو يرد في أقدم المصادر الصينية بهذه الصورة (قين - قون Kien - Kun) وقد حاول الأستاذ بليو أن يوضح هذه الكلمة بكلمة أخرى مغولية في صيغة المفرد وهي قيرقون Kyr - Kun وهكذا يكون الصينيون قد عرفوا القيرغيز بواسطة قوم من اقوام المغول ، وترجع أصدق المعلومات الصينية عن القيرغيز وعن مواطنهم في حوض ينيسي الأعلى الى عهد الحكم التركي ، ويسمى الصينيون قيرغيز ذلك العهد (هاقاس Hakas) وهي تحريف لكلمة Ki—li—Ki—slu المسطورة بالهروغليفية الصينية . ولما منحت روسيا بعد ثورتها الحكم الذاتي للأتراك القاطنين في أعالي ينيسي أي في منطقة مينوسنسق Minoussinsk (سابقا)

احتاجوا بعد هذا الاستقلال الذاتي الى أن يتخذوا اسما يشملهم جميعا (ولم تكن بهم حاجة الى مثل ذلك في عهد القيصرية) ، وقد اختار المثقفون منهم اسم (هاقاس) لأنه وارد في المصادر الصينية ولأن له أهمية سياسية ، ولم يكونوا يعلمون أنه تحريف اسم القيرغيز ممن لا يعيشون الآن في منطقة (مينوسنسق) وتوجد بعض الكلمات القيرغيزية في تاريخ أسرة Tang الصينية ، وهي تدل على أن القيرغيز كانوا يتكلمون التركية في ذلك الزمان ، ومن هذه الكلمات كلمة (آي) بمعنى (القمر) ، وتدل أوصاف الصينيين للقيرغيز على أنهم كانوا مغايرين من الناحية الأنتروبولوجية لغيرهم من الترك فقد كان شعرهم أشقر - وعيونهم زرقا وأيدت المصادر الإسلامية فيما بعد معلومات المصادر الصينية ، فالكرديزي وهو مؤرخ إيراني عاش في القرن الحادي عشر يقرر - مستقيا معلوماته من مصادر مجهولة لنا - أن شعر القيرغيز أشقر ، وأن ذلك أدى الى الظن بوجود قرابة بين القيرغيز والصقالبة .

ولا يمكن في هذا الصدد اثبات ما ذهب اليه ماركارث من أن هذه المشابهة تدل على أن قوما قد هاجروا من أوروبا الى تلك البقاع - ولا تكفي المعلومات التي بين أيدينا لتعليل التغيرات التي اعترت هؤلاء القيرغيز على مر الزمان حتى اكتسبوا شكلهم الحالي وسموا (قاراقيرغيز) أي (القيرغيز السمر) ، ويدل ذكر هؤلاء القيرغيز في المصادر الصينية القديمة على أنهم كانوا داخل نطاق العلاقات التجارية الدولية منذ أقدم العصور ولعل ولاية مينو سنسق أن تكون أكثر الولايات دخولا في هذا النطاق ، وقد وجدت في مينو سنسق آثار قديمة يصعب ردها الى عصر معين ، بل مازال الجدل دائرا حول معرفة أيها يرجع الى الترك عامة وأيها أبعد قدما - وكانت قوافل التجار المسلمين تغد على ديار القيرغيز ، وكان المسك (وله يومئذ قيمة كبيرة) أهم صادراتهم .

واذا قارنا بين ما كتبه القدماء من الجغرافيين المسلمين عن القيرغيز ، وبين ما كتب المحدثون منهم لرأينا ان المدييه فى هذا الافليم قد تطورت تدريجيا فتحدثنا المصادر الصينية والاسلامية القديمة بانه لم يكن بديار القيرغيز سوى مدينة واحدة هى مقر الخان ، ولا يوجد بعد ذلك مدن ولا قرى وكان القسم الاكبر من السكان بدوا ، وأما القسم الاخر فيمكن القول بأنه كان بدائيا يعيش على الصيد . ولكن رشيد الدين (١) يقرر أن بلاد القيرغيز فى عهد المغول كانت حافلة بالمدن . وبغض الطرف عن أثر الصلات التجارية فى انماء المدينة الزراعية ، فقد كان لخصوبة التربة فى ولاية مينوسنسق أثر فى هذا الانماء ، والغالب أن القيرغيز هم أقدم مثل للأقوام المتتركة وليست من أصل تركى .

حركة التترك

وقد كانت هذه الأقوام كثيرة منها البدوى ومنها الحضرى . وكان من أكثر الأقوام اتصالا بالتترك (الصاموييد Samoyedes) وبخاصة القاطنون منهم فى الجنوب ، والصاموييد هؤلاء قوم من خمسة أقوام تتكون منهم الأسرة (الأورالتائية) وهم من الشرق الى الغرب (الفن - الصاموييد - التورك - الموغول - التونغور) وما زالت عملية التمثل هذه ماضية - ومن الصاموييد المتتركين حديثا قوم ال (قاراغاص Karagasse) ومن الأقوام التى لم يتم تتركها قوم (قاماسين) وتقع ديار هؤلاء شرق ديار (الياقوت) وهى بذلك أقصى ديار الناطقين بالتركية نحو الشرق .

ويقرر كاسترن Castren وقد زار بلادهم سنة ١٨٤٨ أن لغتهم كانت ماتزال حية بينهم ، فلما زارهم بعد ذلك رادلوف سنة ١٨٦٣ وجد أنهم قد تتركوا الا قليلا منهم كانوا فى دور التترك ، فلما زارهم بعد ذلك بمدة طويلة العالم

(١) مؤرخ المغول وصاحب التواريخ ، القرن الثامن الهجرى .

الفنلندي دونير K. Donner وجد تتركهم قد تم وان يكن رأى أن بعض المعمرين مازالوا يعرفون لغة الصاموييد . واسم الصاموييد بالتركية هو (طوبا Tuba) وهو اسم لم يذكر في نقوش أورخون ولكن المصادر الصينية المعاصرة لهذه النقوش تذكره بصيغة طوبا Tuba .

ومن الأقوام غير التركية التي ورد ذكرها في نقوش أورخون قوم ال (آز) وهو اسم يذكر دائماً مع اسم القيرغيز ، وقد اختلف أول الأمر في مفهوم كلمة آز أهى اسم قوم أم لا ، وكنت أنا أول من قال ان هذه الكلمة اسم قوم ، وقد قبل هذا الرأي طومسن في ترجمته الأخيرة وقال عن هذه الكلمة (انها تدل على قوم لا يعرف أصلهم) . وتوجد في الجزء الأسفل من حوض نهر ينسى عند منطقة (طورفان) أطلال قوم يسميهم الروس خطأ (أوستياق الينسى) Ostiaks du Inisséi اذ لا توجد علاقة البتة بين هؤلاء القوم وبين الأوستياق المنسوبين للفن والقاطنين وادي نهر أوب qo ولا بينهم وبين الأسرة الأورالتائية على العموم ويسمى (أوستياق الينسى هؤلاء أنفسهم قوت Kott أو آسين Assin وقد درس كاسترن هؤلاء الناس سنة ١٨٥٤ ثم درس بعد ذلك أتوجين Antoutchin لغتهم ونظم معيشتهم بالتفصيل .

وربما كان هؤلاء الأوستياق القدماء قد شغلوا في سالف العصور مساحات واسعة ، ويحتمل كذلك أن يكونوا هم ال (آز) المذكورين في نقوش أورخون . ومن الأقوام التي تذكر على الآثار مع القيرغيز قوم ال جييك Tchik ولكن لم يعثر حديثاً على أية معلومات تتعلق بهم .

وكان للقيرغيز منذ ذلك الوقت أهمية سياسية خاصة ، فقد كان لهم (قاغانات) مستقلون تتحدث عنهم نقوش أورخون ، أكثر مما تتحدث عن القومين اللذين أخذوا مكان الأتراك الفز وهم الأويغور في الشرق والقارلوق في الغرب ،

وقد ارتقى هذان القومان بسرعة ، وترد كلمة أويغور مرة واحدة فى نقوش أورخون ، ولكن ترد فى فقرة واضحة تماما ولا مجال للشك فى قراءة الكلمة وفى دلالتها على الأويغور الذين لا يمكن أن يلتبس اسمهم باسم الغز ، وكان رؤساء (الأويغور) يحملون لقباً متواضعا بالنسبة لما يحمله رؤساء القيرغيز وهو لقب ال (ئلتبير) Eltebir ويرى طومسن أن هذه الكلمة عند الترك بمعنى (والى) ، ولكننا لا نجد كلمة واحدة تدل على أن ال « ئلتبير Eltebir » كان يعين من قبل الخاقان ، ومهما يكن فقد كان القوم الذين يرأسهم ال « ئلتبير » (ئلته بيرلك بودون) أقل أهمية من القوم الذين يرأسهم [قاغان] (قاغا نلغ بودون) .
ولم يكن كذلك للقارلوق قاغان .

التتار

ومن الأقوام غير التركية التى ورد ذكرها فى نقوش أورخون التتار ، وقد وسم المغول أنفسهم فيما بعد بهذا الاسم ، ويرد بالنقوش اسم « طوقور تاتار » و « أوتوز تاتار » ويفهم من هذا أن التتار كانوا حينذاك قسمين ، قسماً يتكون من تسع قبائل ، وقسماً يتكون من ثلاثين قبيلة .

وتوشك مسألة العلاقة بين الترك فى ذلك الزمان وبين حياة الحضر أن تكون معضلة ، فيلاحظ أن الترك مع تأثرهم بأهل الحضر المتمدنين ولا سيما الصينيين فى الشرق ، والصغد وغيرهم فى الغرب كانوا يحيون حياة بدوية . وتوجد فى الآثار التركية كلمة صغدية شاعت فيما بين الترك والمغول وهى كلمة « قاتون أو خاتون » بمعنى ملكة .

وتذكر بلاد الصغد فى النقوش الأثرية على صورتين « صوغد وصوغداق » وهما كلمتان نصادفهما فى النقوش الإسلامية المتأخرة .

وقد صحبت كلمة « صغد » فى بعض الأحيان عبارة « به رجه كه ربوقارا قولوس » التى يحتمل أن تقرأ أيضاً

بتقديم الكلمة الثانية « بوقار فولوس » على الكلمة الاولى وقد ترجم ماركارت هذه العبارة هكذا : « أقوام امة فارس وبخارا » ومع أن كلمة أولوس تؤدي معنى قوم فى النقوش التركية الدينية القديمة ، فان هذا المعنى لم يصادف فى نقوش أورخون . وقراءة الكلمة على أنها « أولوس » تم اعطاؤها معنى « قوم » ضعيف الى حد كبير وذلك بأن كلمة « بودون » واردة فى نفس المكان ، وهى أيضا بمعنى « قوم » ومن المستبعد أن تستعمل كلمتان بمعنى واحد فى مكان واحد .

وأما تحويل كلمة بارسىك الدالة على « فارس » الى كلمة « به رجه كه ر » فانه يجافى قواعد علم اللغة ، ومع هذا فان طومسن فى ترجمته الأخيرة قد قبل هذا الطرز من القراءة مع وضعه أمامه علامة استفهام .

واذا كان البدو لا يزاولون الحياة الزراعية الا تحت تأثير الضرورة الاقتصادية ، فان هذه الضرورة كانت أوضح فى شرق تركستان منها فى أى مكان آخر . فهناك لا توجد مراعى تساعد على علف الماشية وتربيتها . بل اذا لم ترو الأراضى هناك بواسطة الجداول ، فان المنطقة تتحول الى صحراء لا تصلح للزراعة ولا لتربية الماشية ، وتدل الآثار العتيقة التى عثر عليها فى أحدث الحفائر على أن شرق تركستان لم يكن أصلا أهلا بالترك ولكنه ترك فيما بعد مثله فى ذلك كمثلى غرب تركستان . وكان تترك سكان الحضر وتحضر الأتراك فى تلك البقاع يمضيان جنبا الى جنب ، متجهين اتجاهها واحدا طبيعيا من الشرق الى الغرب . وقد هاجر الترك بكثرة الى شرق تركستان بعد أن سقطت دولة الـ «دقوزاوغوز» ثم دولة « الأويغور » فى منغوليا . وتصادف فى نقوش أورخون كلمة « باليق » بمعنى مدينة كذلك عبارة « بش باليق » بمعنى المدن الخمس ، ومن المعروف أن مدن « بش باليق » أسست الى جانب « كوجين » فى الجزء الشرقى من تركستان الصينية الحالية .

ويفهم من المجلوسات التي اوردها مؤلف من القرن الحادى عشر سنتناوله فى المحاضرات القادمة أن كلمة « باليق » كانت تستعمل استعمال الكلمتين التركيتين « بالبيق » و « جامور » وهما بمعنى الطين • وقد كان العرب كذلك يطلقون على البدو (أهل الوبر = كجه ليلر) وعلى أهل الحضر (أهل المدر = جامور ليلر) • والأترك الذين كانوا يعيشون فى ذلك الزمان فى (بش باليق) هم هؤلاء الذين تذكرهم المصادر الصينية باسم (باسمل) • ومذكور فى معجم دوكانج Ducange وهو من معاجم القرون الوسطى أن كلمة (باسمل) تدل على الانسان غير خالص النشأة ، ومن الطبيعى جدا أن هؤلاء القوم الذين مارسوا الحياة الحضرية والمدنية قبل الترك لم يكونوا أتراكا خلصا من ناحية الدم ، ولكنهم اختلطوا بالعناصر القديمة المتمدنة فى تلك النواحي • حتى ان محمود الكاشغرى يعد هؤلاء ال (باسمل) بين الأقوام غير خالصة التركية • ولما كان تترك شرقى تركستان على صورة واسعة مرتبطلا بالنتائج التى ترتبت على سقوط دولتى الغز والأويغور ، فستبحث ذلك فى محاضرتنا القادمة •

المحاضرة الثالثة

الترك في تركستان

تصور نقوش أورخون خواقين الأتراك الغز أقوياء. أصحاب شوكة ، لا يتطرق اليهم الخوف من أى جانب على حين. نرى أن الحكم فى منغوليا قد انتقل فى سنة ٧٤٥ أى بعد عشرة أعوام من وفاة الخاقان الذى كتبت باسمه هذه النقوش. الى قوم آخرين من الترك هم (الأويغور) وقبل ذلك ببضع سنين. كانت الشعبة الغربية من الأتراك قد فقدت وحدتها السياسية نتيجة لصراعها مع العرب .

ونعلم من المصادر الصينية أن الغز المقيمين غربا كانوا ينقسمون عشر قبائل * خمس منها تقيم شمال نهر « ايله (إلى) » وخمس منها فى جنوبه وتسمى هذه القبائل العشر كما يذكر طومسن فى ترجمته نقوش أورخون « اون اوق » أى « السهام العشرة » * ومن بين هذه القبائل علا شأن قبيلة توركه ش Turgesh فترة ما وخرج منها خواقين أتراك. الغرب المتأخرون *

وكان العرب حتى ذلك الوقت يكتفون بصد غارات الترك. على البلاد المتمدينة ولم يكونوا يستطيعون التوغل فى بلاد الترك ولا التقدم الى مقر خاقانهم الى جوار نهر جو Tchou ومع هذا ، فان الحروب التى خاضها أتراك الغرب ضد العرب فى حوض نهر (سيردريا) ، ثم انهزامهم ، وهلاك خاقانهم كل أولئك أدى الى انقسام مملكتهم ، وعلى الرغم من أن العرب لم يكن لهم تأثير كبير ، فقد ظلت البلاد زمانا فى الفتن

والقلاقل ، ولم يحتل الأتراك (القارلوق) محل الأتراك
(الفز) على ضفتي نهو جوالا فى سنة ٧٦٦ •

الاتصال بالاسلام

أحرز العرب أهم انتصاراتهم فى آسيا الوسطى اثناء
ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان بين سنتي ٧٦ - ٩٨ هـ
(٧٠٥ - ٧١٥) وتنبئنا نقوش أورخون بأنه فى النصف
الثانى من هذه السنوات العشر ، أى بين ٧١٠ - ٧١٥ ، ٩٢ -
٩٧ هـ استولى الأتراك الشرقيون على دولة توركه ش لمدة
محدودة • وفى غزواتهم هذه المتجهة غربا وصلوا الى
(تيمر قابوغ) = (الباب الحديدى) أو الى ممر يزغاله
Bouzghala الذى يفصل الصغد وطخارستان أى البلاد
المتمدية الواقعة فى حوض زرفشان وقاشقادريا عن البلاد
الواقعة قرب المجرى الأعلى لنهر جيحون - ويرى طومسن -
وهو على صواب - أن هذا الممر يصل بين سمرقند وبلخ ولكنه
أخطأ فى تحديد مكان الممر حين قال انه بين الصغد وفرغانه
فمن المعروف أن الطريق بين (الصغد) أو (صوغديانا) الى
(فرغانه) يتجه شمالا بشرق وليس جنوبا كالطريق المؤدى
الى بلخ •

ويفهم من مجرى الحوادث أن أتراك الشرق حاربوا
العرب كما حاربهم أتراك الغرب وعلى هذا الأساس تفسر
بعض المواضع فى نقوش أورخون • ولكن بعض العلماء
يشكون فى صحة هذا التفسير ، وقد رده علماء منهم العالم
الانجليزى « الشاب » جب فى كتابه « فتوحات العرب فى آسيا
الوسطى » وهو أحدث الكتب المتعلقة بالموضوع ظهورا •
والواقع أن كلمة « عرب » لم ترد فى نقوش أورخون وفى
نفس الوقت فان كلمة « تازيك Tâzik » التى كان الايرانيون
أول من أطلقها على العرب والتى انتقلت الى الصينيين ويحتل

ان تكون قد وصلت أيضا الى الترك ، « ونكون بحسب النطق التركي « ته زيك Tazik - Tezik » * هذه الكلمة يبعد ان تكون واردة في نقوش أورخون * *

ومن المعلوم أن دلالة هذه الكلمة قد تغيرت تماما ، ففي القرن الحادى عشر كانت تطلق على غير العرب ، وربما على الايرانيين وأغلب الظن أن الأتراك أطلقوها أولا على العرب وحدهم ، ثم أطلقوها على كل المنتسبين الى المدنية الاسلامية ، ثم بعد ذلك على الايرانيين خاصة لأن الأتراك كانوا يعرفونهم أكثر من غيرهم من المسلمين * *

وعلى العكس من الايرانيين ثبت الأتراك ولم تستطع قوات المسلمين أن تفتح بلادهم وقد كان العرب يلتزمون سياسة الدفاع طوال القرن الثامن ، وذلك بعد أن تم لهم فتح الأماكن المتحضرة فى أحواض جيحون وزرغشان وسيحون * واتبع العرب أيضا سياسة من سبقهم فبنوا الأسوار وحفروا الخنادق ، ليحافظوا على البلاد المتحضرة الواقعة على تلك الأنهار من هجمات البدو * ومن المعروف أن البلاد المتقدمة كانت منذ القدم تبنى الاستحكامات لتصون المدنية من غارات البربر ، وهكذا انتشرت أمثال هذه الاستحكامات فى كل العالم المتمدين من بريطانيا الى الصين ومنشوريا * أما فى آسيا الوسطى فان أول ما بنى من الاستحكامات يرجع الى زمن بعيد قبل الاسلام * *

ففى القرن الرابع قبل الميلاد بنيت الاستحكامات للمحافظة على مرو وعلى ما جاورها من البلاد المتمدينة من غارات قوم من البدو يحتمل ألا يكونوا تركا * وأما السد الذى أقيم قبل حكم العرب للمحافظة على القسم الشمالى الشرقى من ولاية الصفد ، فقد كان المراد به حماية هذه الولاية من الأتراك البدو ، وأما الأسوار والخنادق التى أعدها العرب فى الصفد وفى ولاية بخارى وفى أطراف طشقند فمازالت آثارها قائمة الى الآن * *

وبعد الحكم العربى - وابتداء من حكم السامانيين الايرانيين الاصل - بطل بناء هذا النوع من الأسوار ، ولم يستصلح ما كان باقيا منها ، فقد كان السامانيون يتبعون سياسة الهجوم . ولكن هجومهم هذا كان أقرب الى الفارات منه الى أى شىء ولذلك لم تتسع على أيديهم حدود البلاد التى فتحها المسلمون ، فان كل ما أضافوه اليها هو المناطق الممتدة من وادى نهر جرجيق Tchirtchik الى نهر (طالاس) .

أثر ايران الثقافى

وعلى الرغم من أن الاتراك لم يستسلموا لأسلحة المسلمين ، فان تأثير المدنية الغربية عليهم قوى بعد دخول المسلمين فى آسيا الوسطى . والواقع أنه منذ العهد الساسانى كان تأثير المدنية الايرانية قد بدأ يحل محل المدنية الهندية فى آسيا الوسطى ، وكانت ايران تسيطر على طرق التجارة العالمية البرية والبحرية . ومعنى هذا أن ايران قبيل سقوط الدولة الساسانية كانت قد بلغت أقصى المدى فى ميدان التجارة كما كانت قد بلغت فى سائر الميادين .

ولا تعطينا ايران الساسانية صورة لدولة ارتفعت تدريجيا ثم أخذت تسقط رويدا رويدا شأن غيرها من الدول الشرقية ، وانما كان مثل الدولة الساسانية والشعب الايراني كممثل الحكومة الألمانية والشعب الألماني فى العصر الحديث : انهارت الدولة بعد أن وفقت فى مجاهدة الأعداء الخارجيين بما بذلت من قوى هائلة . وكان توفيق الساسانيين فى الغرب بخاصة أى فى حروبهم مع البيزنطيين . وقد أحرزوا أيضا بعض النجاح المؤقت فى الشرق بفضل اتفاقهم مع الترك ولكن العلاقات بينهم ما لبثت أن ساءت ثم انقطعت . وعدا هذا فقد كان الساسانيون كما كان الأكمنيون من قبلهم لا يستطيعون - وهم يخوضون الحروب فى الغرب - أن يحافظوا على حدودهم فى الشرق ، وقد أفاد الترك من هذا الوضع فسلبوهم حوض نهر جرجان الذى يصب حاليا فى بحر

الخزر ولكن الاتراك باستيلائهم هذا وقعوا تحت تأثير المدنية الايرانية ودخلوا الديانة الزرادشتية * ويدلنا هذا المثل على ان ايران الساسانية كانت تؤثر بفضل مدنيّتها واهميتها الاقتصادية على جيرانها دون ان تنتصر عليهم عسكريا * وربما أمكن بهذه الصورة أن نتبين كيف رسخت إقدام المدنية الزرادشتية في الصفد بعد اضمحلال الديانة البوذية هناك ، ويمكن بفضل أوصاف الرحالة الصينى هيوان - تسانج الذى جاب أواسط آسيا فى سنة ٦٣٠ أن نقول ان انتصار الديانة الزرادشتية على الديانة البوذية فى أواسط آسيا بدا فى أواخر أيام الساسانيين وفى عهد هيوان - تسانج كانت البوذية قد انقرضت تماما فى بلاد الصفد ، فبعد أن جاوز هذا الرحالة تركستان الشرقى ، حيث بلغت البوذية غاية الازدهار لم يقع نظره على أديرة بوذية الا بعد أن تجاوز الحدود الجنوبية للصفد ووصل الى طخارستان ، وفى سمرقند عاصمة الصفد وجد ديرين اثنين للديانة البوذية وكانا خاليين * ولم يكن الزرادشتيون يدعون رجال الدين البوذى يجتمعون فى هذين الديرين ، بل كانوا يطردونهم ويقذفونهم بالحطب المشتعل ولكن هيوان - تسانج استطاع أن يبعث الحياة فى تلك الأديرة البوذية لمدة قصيرة جدا * ويفهم من روايته عن سمرقند أن اخراج البوذية ومطاردتها من الصفد وقعا قبل وروده على تلك البلاد بقليل *

البوذية

وقد كشفت لنا بعثات الآثار فى تركستان عن وجود نصوص بوذية فى لغة الصفد وعن أن هذه النصوص قد ترجمت الى لغة الترك وأنها أثرت عليهم * وأول من حقق هذه الوثائق هو عالم الايرانيات الفرنسى جوثيو Robert Gauthiot وقد قرر أن هذه الوثائق لا ترجع الى أبعد من القرن السابع ، ولكننا اذا سلمنا بصحة ما ذهب اليه لزم أن تكون هذه الوثائق قد كتبت فى غير بلاد الصفد * وليس

معنى هذا ان رأى جوثيو خاطيء من اساسه ، بل يحتمل ان تكون بعض مستعمرات الصفد المتعددة فى اواسط اسيا قد احتفظت بالبوذية حتى ذلك العصر * وفى اتناء سيطرة المدينه البوديه على بلاد الترك لم يذن مروجو الديانة البوذيه من الهنود هم وحدهم الوافدين على تلك البلاد ، بل كان التجار الهنود يفدون عليها كذلك ، ومن مخلفات ذلك العصر التى مازالت باقية الى الان كلمة (سارت) وقد استعملها الأتراك أولا بمعنى (تاجر) وظلت تستعمل بهذا المعنى حتى القرن الحادى عشر * وثبت الآن أن هذه الكلمة وردت على الترك من الهند ، ولا بد أنها دخلت عندهم زمان كان اغلب الوافدين على الترك من التجار هنودا ، ثم انتقلت التجارة بالتدريج من أيدي الهنود الى أيدي الايرانيين ولم تكتسب هذه الكلمة عند الترك والمغول مدلول عنصريا الا فى العهد الاسلامى وبعد القرن الحادى عشر ، فأطلقت على قوم من ايرانيى آسيا الوسطى كان الأتراك يعتبرونهم (قوما من التجار) *

تأثير ايران

وقد زاد تأثير ايران على آسيا الوسطى بعد الاسلام فلم يظل تأثيرها فى العهد الاسلامى ثقافيا فقط كما كان من قبل ، فقد اتحد الايرانيون فى فارس مع الايرانيين فى آسيا الوسطى فى دولة واحدة لأول مرة منذ عهدى الاسكندر المقدونى والسلوقيين ، وجاء كثير من الايرانيين مع العرب وتوطنوا تركستان ، ووقف ايرانيو آسيا الوسطى (بواسطة الايرانيين الوافدين حديثا) على مناقب ملوك ايران القدماء * وبدأ اللسان الفارسى يحل محل اللهجات الايرانية فى آسيا الوسطى ، وظهرت لغة أدبية فارسية واحدة لايرانيى ايران وايرانيى تركستان *

وانقرضت لغات ايرانيى تركستان القديمة ومن بينها لغة الصفد الأدبية ، وظهرت فى مكانها اللغة المسماة الآن

« تازيك » وليس بينها وبين الفارسية الا فروق يسيرة . ولم يكن للفارسية هناك الا حصم واحد هو اللغة الترخية وكان صراع اللسان الفارسي ضد اللسان التركي فاشلا في أكثر الأحيان .

وتوجد منذ القرن الأول للإسلام حتي الآن ظاهرتان من مظاهر التطور :

١ - فاللغة الفارسية الأدبية تضيق بالتدريج لهجات الحديث المحلية في ايران وتلاشيها .

٢ - واللغة التركية ، تضيق اللهجات الفارسية ومن بينها الفارسية الأدبية وتلاشيها .

والى هذا ، فمن الجدير بالملاحظة أن اللسان التركي يوسع مجال انتشاره داخل ايران نفسها ، فاذا عاش الترك والفرس معا في قرية واحدة مثلا ، صار اللسان التركي بعد مدة لسانا عاما للفريقين .

بدأ المسلمون (بعد أن وطدوا حكمهم في آسيا الوسطى) يفتيدون من طرق التجارة القديمة ، وتحدثنا المصادر الصينية بأن قوافل المسلمين التجارية كانت في القرن الثامن تصل الى القيرغيز ، مارة من بلاد القارلوق الى أعالي نهر ينيسي وفي المصادر الاسلامية معلومات عن الطريق المؤدى الى هؤلاء القيرغيز ، وتتفق هذه المعلومات الى حد ما مع ما ورد في نقوش أورخون ، فسلسلة جبال (سايان) تسمى في نقوش أورخون وفي المصادر الاسلامية باسم واحد هو « كوكمه ن Kögmen » وترد بعد ذلك معلومات عن الطريقين المؤديين الى « ايرتيش Irtich » وقد ورد ذكر هذا النهر في نقوش أورسون أثناء الحديث عن غزوات خاقانات أتراك الشرق في تلك الجهات ، فأما الأتراك القاطنون في منطقة «ايرتيش» ، فلم يرد لهم ذكر لا في نقوش أورخون ولا في المصادر الصينية . ولكن المصادر الاسلامية تذكرهم لأول مرة ، فقد كان العرب أكثر اهتماما بالطريق المؤدى الى الصين ، ولهذا

كثرت المعلومات في المصادر الاسلامية عن هذا الطريق وعن
الأقوام التركية القاطنة بمحاذاته .

ومع هذا ، فان المصادر الاسلامية لا تذكر شيئاً عن سكان
بلاد المغول ولا عن أحداث هذه البلاد قبل ظهور جنكيزخان .
على حين أننا نعلم من المصادر الصينية أن التجار المسلمين
كانوا منذ سنة ٩٢٤ يترددون على بلاد المغول .

وتقف معلومات العلماء المسلمين عند حدود القيرغيز ،
بل كانوا يتصورون أن بلاد القيرغيز تنتهي عند البحر
المحيط الشرقي .

واذا نظرنا الى سعة المجال التجارى للمسلمين والى كثرة
مؤلفاتهم الجغرافية ، توقعنا أن تكون معلوماتهم عن وسط
آسيا وشرقها أوسع مما هي ، ولكن هذه المعلومات - الى
ضيقتها - أقل وضوحاً وصراحة مما نتصور ، بل ان الافادة
منها أمر مليء بالصعاب . وقد لا نقدر هذه الصعاب قدرها.
فى بعض الأحيان فنصل بذلك - الى نتائج خاطئة ومن أهم
الصعوبات أننا لا نستطيع ارجاع ما ترويه هذه المصادر من
أحداث الى زمان وقوعه وقد نهج العرب فى مؤلفاتهم الجغرافية
منهجهم فى سائر مؤلفاتهم ، فأخذوا المعلومات من الكتب والفتاوى
بينها ومن المحقق أن التصنيف والأخذ عن الكتب المدونة
يغلب فى الكتب التى بين أيدينا على روايات الرحالة الذين
يصفون ما رأوا بأعينهم . وفى أكثر الأحيان تتكرر الحكاية
الواحدة الواردة فى مؤلف بعينه فى كتب أخرى فى أزمنة
مختلفة ولا يصرح المؤلف بأن هذه الحكاية قد وقعت قبله
بقرن أو بعدة قرون .

وأحيانا يخلط المؤلف ما جمعه هو أو ما جمعه معاصروه
عن بلد معين بما دون عن هذا البلد فى كتب ألفت قبله
بقرن عديدة ، ثم يعطينا عن هذا البلد صوراً وتفصيلات
ولا يشير مطلقاً الى أن معلوماته ترجع الى عصور مختلفة

وهكذا يخطئ القسارىء الفهم لأنه يظن أن كل ما ورد فى الكتاب راجع الى زمن المؤلف .

وقد يلجأ بعض العلماء الكبار دون جدوى الى فروض علمية ليبرروا رأيا لمؤلف معين - على حين أن المؤلف قد نقل هذا الرأى حرفيا من كتاب يسبقه بعدة قرون، وقد وقع من زمن قريب خلاف حول كلمات أوردها أحد جغرافيين القرن الثالث عشر وهو ياقوت الحموى ، فقد ذكر ياقوت أن الأتراك والبيزنطيين هم أعداء الاسلام وأنهم أوقعوا بالعالم الاسلامى أضرارا كبيرة ، وتبدو هذه العبارة عجيبة لأن الأتراك فى القرن الثالث عشر كانوا يحتلون منزلة مهمة فى العالم الاسلامى ، وقد حاول بعض العلماء ايضاح هذه العبارة ، فذهبوا الى أن الأتراك وان كانوا مسلمين فقد كانوا يختلفون عن غيرهم من أهل الاسلام لانتشار التشيع والمذاهب المبتدعة بينهم ، وقد تأكد فيما بعد أن ياقوت نقل هذه العبارة بحروفها من المقدسى وهو من رجال أواخر القرن العاشر ، ولا بد أن يكون المقدسى قد نقلها بدوره من كتاب آخر ، وبناء على هذا فان القول بأن الأتراك أعداء الاسلام يرجع الى زمن لم يكن فيه مسلم من الأتراك الا عساكر الخلفاء العباسيين وغيرهم من الحكام المسلمين ، وفى ذلك الوقت كان الأتراك غير المسلمين - شأنهم شأن البيزنطيين - أعداء خارجيين للاسلام وقد كانوا هكذا فى نظر المؤلفين فى القرن العاشر ، ومما يزيد الأمر صعوبة أن العرب لم يعنوا بالحروب الداخلية بين قبائل الترك ، ولا بما كان يحدث أحيانا من أن تقوم دولة من بدو الترك على أنقاض دولة أخرى فخلت بذلك المصادر الاسلامية من أية اشارة الى الأحداث التاريخية فى صحارى الترك . ولولا المصادر الصينية والمصادر اليونانية لعجزنا الى حد ما عن تكوين فكرة عن تلك الأحداث ، ولعل هذا هو السبب فى أن الأحداث التى وقعت فى الشرق أى فى منغوليا

وفي تركستان الصينية كانت أوضح من تلك التي وقعت في الجزء الغربي من مناطق الاستبس في آسيا الوسطى .

الأويغور

وتحدثنا المصادر الصينية وحدها بأن دولة الأويغور حلت محل دولة الأتراك الغز في منغوليا سنة ٧٤٥ ، وكان المقر الرئيسي لخاقان الأويغور يقع أيضا على نهر اورخون ، قريبا من مدينة قاراقورم التي بنيت فيما بعد في عهد المغول وقد نشأت مدينة جديدة الى جوار مقر الخاقان . ويفهم من دراسة أطلال هذه المدينة ورسومها أنها كانت أوسع من المدينة التي بناها المغول فيما بعد أي « قراقورم » وبقيت دولة الأويغور مائة سنة تقريبا ثم انقرضت سنة ٨٤٠ على يد القيغيز الزاحفين من الغرب ، ولكن المصادر الصينية تروى أن الأقوام البدوية التي كانت تقطن منغوليا قد تشتتت بسبب ما كان يقع بينهما من حروب وان المطرودين منهم اتجهوا الى تركستان ، حيث توطنوا وألفوا بالتدريج المدنية وحياة الحضر وأول من توطن القسم الشرقي من تركستان الصينية هم الأتراك المعروفون باسم « باسميل » ، ويلاحظ أن تقاليد هؤلاء « الباسميل » قد حفظت على الرغم من كثرة الانقلابات وقيام قوم مكان قوم آخرين في تلك البلاد . وفي نقوش أورخون تستعمل كلمة « ايدوق قوت » لقبا لحاكم الباسميل والمعنى الحرفي لهذه الكلمة هو « السعادة المقدسة » أو « العظمة » وكلمة « قوت » في اللغة التركية تستعمل مقابل الكلمة الأوربية Majestat . « حشمت مأب » = صاحب الجلالة .

وفي القرن الثالث عشر كان نفس هذا اللقب يستعمل للحاكم الأويغوري في نفس المنطقة ، فقد كان يلقب « ايديقوت » . وقد أطلق الصينيون على جماعة الأتراك الغز المهاجرين من منغوليا الى شرقي تركستان الصينية اسم (شا - تو) أي سكان الاستبس وكانت مدينة بش باليق في أيدي هؤلاء الترك منذ القرن التاسع . ولما تعرضوا

للضغط من ابناء جنسهم المتوطنين فى الغرب لم يفارموا ولكن هاجروا مضطرين الى الشرق ، فدخلوا الصين وهناك اشتركوا فى قمع ثورة قامت فى النصف الثانى من القرن التاسع ، واستطاعوا بذلك أن ينقذوا عرش الامبراطور * وكانت لهؤلاء الأتراك الـ « شا - تو » دويلات بين تلك التى ظهرت فى النصف الأول من القرن العاشر فى الشمال الغربى من الصين *

وفى النصف الثانى من القرن التاسع حوالى سنة ٨٦٠ هاجر قوم من الاويغور ، بعد أن عجزوا عن مقاومة القيرغيز المتوطنين فى منغوليا، الى أطراف « بش باليق » واستوطنوها وتكونت هناك دويلة أويغورية استطاعت أن تعيش حتى عهد المغول أى الى القرن الرابع عشر ، وكون فرع آخر من الأويغور دويلة فى المكان الذى توجد به الآن مدينة « غانجزو Kan-Tcheou » وقبيل تكون هذه الدويلة كان هناك صراع بين الصينيين وأهل التبت حول ذلك المكان ، وكانت كفة أهل التبت فى هذا الصراع أرجح فى نهاية الأمر * وفى القرن الحادى عشر وفق « التانكوت » وهم قوم من أهل التبت فى الاستيلاء على ذلك المكان وتكوين دولة غزاها المغول فيما بعد ومن ذلك التاريخ سمي الاقليم « اقليم التانكوت » وما زال الأويغور يعيشون هناك حتى الآن ، دون أن يكون لهم طوال تلك المدة دخل فى أى عمل سياسى ، وهم يحتفظون الى حد ما بلغتهم التى تمثل احدى اللهجات التركية القديمة ، وقد بقيت فى هذه اللغة وحدها طريقة العدد كما وردت فى نقوش أورخون وفى بعض النصوص الأويغورية ، وهى عبارة عن وضع الأحاد قبل العشرات التى تليها فهم يقولون مثلا « واحد وعشرون » بدلا من « أحد عشر » و « واحد وثلاثون » بدلا من واحد وعشرين ، فواحد وعشرون عندهم معناها واحد فى اتجاه العشريين أى أحد عشر وواحد وثلاثون معناها واحد فى اتجاه الثلاثين أى « واحد وعشرون » *

وقد خلف هؤلاء الاويغور - كما خلف الأتراك الغز - بعض النقوش أهمها وأطولها مكتوب باللغة الصينية وتعزز هذه النقوش ما ترويه المصادر الصينية من ان الاويغور لم يستمسكوا بالديانة الشامانية ولم يتأثروا كما فعل الأتراك الغز بالديانة البوذية ولكن دخلوا في إحدى الديانات الغربية وهي الديانة المانوية وقد نجح المانويون في نشر دينهم بين الصغد كما نجح البوذيون والمسيحيون من قبلهم ، ثم استغل المانويون فيما بعد نجاح الاويغور التجاري في نشر ديانتهم المانوية . وقد ذكر دخول الاويغور في الديانة المانوية في النقش الصيني الطويل الذي أشرنا اليه من قبل والموجود بنواحي أورخون - ويذكر نقش صغير باللسان الصغد وموجود بنفس المكان أن دخول الاويغور في الديانة المانوية تم على أيدي بعض المبشرين من الصغد - وتذكر المصادر الصينية أن هؤلاء المبشرين لم يخرجوا من بلاد الصغد نفسها ليبشروا الاويغوريين ، ولكنهم التقوا بهم سنة ٧٦٢ أثناء غزوة قام بها قاغان الاويغور في الصين ، ويدل هذا على أن تجارة الأقوام الغربية مع الصين كانت أهم كثيرا من العلاقات بين هذه الأقوام وبين البدو . وقد بدأ تأثير الصغد الحقيقي على الأتراك البدو بعد أن تكونت للصغد مستعمرات تجارية في داخل الصين وعلى الطريق المؤدى اليها ، وزاد هذا التأثير بزيادة غارات الترك على الصين وعلى ما نسميه الآن بتركستان الصينية . وكان تأثير الصغد الديني على الترك أقوى وأكثر تنوعا من تأثير الأقوام الهندية الأوربية المستوطنة في تركستان الصينية ، فعلى حين لا يوجد في بقايا اللغتين الهنديتين الأوزبيتين المكتشفتين في كوجه koucha ونختم Khotan إلا نصوص بوذية ، فإن الآثار المحررة باللغة المسماة بالصغدية « على الرغم من أن منطقة انتشار هذه اللغة لم تحدد جغرافيا فيحتمل أنها كانت لغة سكان كاشغر وما حولها » تحوي إلى جانب النصوص البوذية نصوصا مانوية ومسيحية .

وأما اللغة التركية فان فيها نصوصا مترجمة ونصوصا أصيلة عن هذه الديانات الثلاث .

وقد أحرزت المانوية والمسيحية أكبر التوفيق في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن ، أى فى نفس الوقت الذى قوى فيه حكم المسلمين فى غرب آسيا .

ولم ينتشر الاسلام فى أول الأمر على أيدي المبشرين ولكن انتشر بفضل علاقات الدولة العدائية أو السلمية مع الدول الأجنبية ، وكان من الطبيعى أن تستفيد الديانات السابقة على الاسلام من الفرص المواتية ومن الامكانيات التى ترتبت على الفتوحات الاسلامية . وقد كان لدخول الترك فى ديانة مانى أهمية كبيرة فى تاريخهم ، اذ ليس لدينا ما يثبت مهما يكن توفيق المبشرين أن البوذية أو المسيحية أصبحت ديننا لشعب كامل من الترك لا فى القرن الثامن ولا قبل ذلك ، ولكن المانوية كانت أول دين دخله الترك بوصفهم شعبا بعد الديانة الشامانية . وكانت أول دين ذى أسس أخلاقية يعتنقه الترك ، فبينما ترى الديانة الشامانية أن قتل الانسان يفيد يوم القيامة ، فان ديانة مانى لا تكتفى بتحريم قتل الانسان بل تحرم أكل لحم الحيوان .

وقد كان الأتراك يفهمون التضاد بين الديانتين . ومسطور فى نقوش أورخون أن الأمة التى كانت تأكل اللحم ستأكل الأرز والبلد الذى يكثُر فيه القتل يسود فيه فيما بعد الأمر بالمعروف .

الأبجدية الأويغورية

وجد مع نقش خاقان الأويغور المكتوب بالصينية نقش صغدى صغير الى جانبه أسطر من اللغة التركية كتبت بالرسم الأورخونى . ويرجع هذا النقش الصغدى الى النصف الأول من القرن التاسع — وهو يمثل أول خط غير أورخونى انتشر بين الأتراك وهو الخط الأويغورى وكان المانويون قد نقلوا

معهم خطهم الخاص من ارض بابل (العراق العربي) ، ولكنهم كانوا في نفس الوقت يستعملون الأبجدية الصفدية القومية ، وقد استعملوها في النص المنقوش على قبر خاقان الأويغور ولما أسلم الصفد الايرانيون نبذوا تلك الكتابة القومية واستعملوا الحروف العربية ، ولا يدرى اذا كانت الكتابة الصفدية قد استعملت ولو قليلا في تحرير النصوص الاسلامية . وفي نفس الوقت حافظ الأويغور على الكتابة التي انتقلت من الصفد الى الترك وتعرف هذه الكتابة عند العلماء باسم الكتابة الأويغورية . ومن المعروف أن الأتراك واصلوا استعمال هذه الكتابة بعد دخولهم في الاسلام ولم يتركوها بسهولة ، وفي نفس الوقت نشر الأويغور هذه الأبجدية في منغوليا ، ثم جاء بها المغول ثانية الى الغرب وبعد قليل انتقلت من المغول الى المانجو Manchous وهكذا نرى كيف وصلت الأبجدية السامية الأصل الى المحيط الهادى بواسطة الصفد والأويغور ثم المغول . ولا شك في أن هذه الأبجدية صفدية ، وقد عرف ذلك العلماء المسلمون وصرح به المؤلف المسلم فخر الدين مباركشاه المروزي وهو من رجال أوائل القرن الثالث عشر ، ولم يكن استبدال الخط الأويغوري بالخط الأورخوني بداية رقى ، بل كان خطوة الى الوراء لأن الأبجدية الأويغورية لا تدل على الأصوات التركية دلالة الأبجدية الأورخونية .

الأويغور في تركستان الصينية

لما طرد الأويغور من منغوليا حملوا الديانة المانوية الى الامارات التي أسسوها في تركستان الصينية وفي غانجو Kan Tchov . ويحتمل أن تكون هذه الديانة قد انتشرت في تركستان قبل أن يفد عليها الأويغور أى في حكم الغز المعروفين باسم (كوك - ترك) أو في زمان خلفائهم ، وربما كانت كتابات الجغرافيين العرب مؤيدة لهذه الفكرة ، فبين أيدينا كثير من كتبهم التي ترجع الى القرن العاشر الميلادى.

وهو العهد الكلاسيكي لكتابة الجغرافيا عند العرب ، وتحتوى هذه الكتب وصفا مفصلا للعالم الاسلامي ، وفيها كذلك معلومات قليلة عن الأماكن الآهلة بالترك والواقعة على الطريق الذى يربط العالم الاسلامي بالصين .

ويوجد طبقا لما تصوره هذه الكتب ثلاثة أقوام من الترك فى الأرض الممتدة من بحر الخزر الى حدود الصين وهؤلاء هم :

١ - الغز وينتشرون فى الأراضى الممتدة فى بحر الخزر الى أواسط مجرى سىرداريا .

٢ - القارلوق وينتشرون فى الأراضى التى تمتد الى مسيرة عشرين يوما شرقى فرغانة .

٣ - التغزغز أو طوقوز - أوغوز ويسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حتى الصين .

وهذا الوصف لبلاد الترك يرجع حسب ما تروى المصادر الصينية الى عهد الحكم الأويغورى فى شرق تركستان الصينية . وأول من تحدث عن الطريق المؤدى الى الصين وعن الأتراك الذين يقطنونه هو ابن خرداذبة ، ولكننا لا نعرف بالضبط متى ألف كتابه أقبل سنة ٨٦٠ أى قبل أن يتوطن الأويغور فى تركستان الشرقية أم بعد ذلك . ومع هذا فيمكن أن نستنتج أن الأتراك الذين يسميهم جغرافيو العرب (تغزغز) هم هم الذين تسميهم المصادر الصينية (أويغور) وفى وقت ما قرئت كلمة تغزغز على أنها (طقوزغور) أى (طقوزاوينور) ثم عدل عن هذه القراءة .

وتنفى مصادر التاريخ العربية أن يكون الأويغور هم (الطقوزاوغوز) ، فيروى ابن الأثير أن الغز الغربيين منحدرين من ال (طقوزاوغز) ويروى الطبرى أن ال (طقوزاوغوز) أغاروا بعيد سنة ٨٢٠ على أشروسنه وهى عبارة عن الأراضى الواقعة بين مدينتى جزاق وخجند الحاليتين ، ومعنى هذا أن كلمة ال (طقوزاوغوز) لم تكن تطبق على الأتراك المتوطنين

فى الجزء الشرقى من تركستان الصين فحسب ، بل كانت تطلق كذلك على الأتراك المتاخمين مباشرة للبلاد الاسلاميه ، ويؤيد هذا ما يروى من أن بعض (الطوقوز أوغوز) كانوا يقعون أسرى فى أيدي المسلمين ، كما يمكن أن يستنتج منه أن أبا أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر كان من الأتراك (طوقوز اوغوز) .

ولم يرحل ابن خرداذبه وهو أقدم من وصفوا الطريق المؤدية الى الصين الى تلك النواحي ، ولكن صنف كتابه بما جمع من الروايات ، وقد أورد ياقوت الحموى نفس الوصف الذى أورده بن خرداذبه ، الا انه ينقل عن رجل طوف بنفسه فى ذلك الطريق وهو تميم بن بحر المطوعى ، ولكن ياقوت لم يذكر مع الأسف تاريخ رحلة تميم ولا بد أن نقبل - على ضوء ما ورد فى هذه الرحلة من تفاصيل - أنها كانت بين عام ٧٦٠ وبين بداية القرن التاسع ، فأما عام ٧٦٠ فهو تاريخ نشأة حكم القارلوق فى منطقة (سميريتشى) = (يتى صو) = (بلاد الأنهار السبعة) فى الجزء الغربى من تركستان الصينية ، وأما بداية القرن التاسع فهى تاريخ هجرة الأتراك (شا - تو) من منطقة (بش باليق) الى الشرق ، أى الى داخل الصين . وهؤلاء الأتراك هم المذكورون فى المصادر الصينية والمنحدرون من الأتراك المذكورين فى نقوش أورخون أى الأتراك التغزغز .

ولا شك فى أن العرب قد عرفوا عن كثب نواحي بش باليق حين كان يسكنها التغزغز ، ولكن فاتهم أن هؤلاء التغزغز هاجروا شرقا فيما بعد ، وأن قوما آخرين من الترك حلوا محلهم وظلوا كعادتهم يطلقون على سكان تلك النواحي التغزغز . ولعل أوضح دليل على أن كلمة (طقوزاغوز) كانت تطلق أول الأمر على الـ (شا - تو) لا على الأويغور أن المسعودى يروى أن امبراطور الصين استطاع بمعاونة التغزغز قمع ثورة قامت ببلاده فى النصف الثانى من القرن

التاسع ، على حين تروى المصادر الصينية أن ذلك تم بمساعدة الأتراك « شا - تو » وهكذا نسب العرب هذا الحادث التاريخي « الذى يعتبر وروده فى المصادر العربية والصينية معا احدى النوادر » الى التغزغز وعزاه الصينيون الى (شا - تو) .

وفى أثناء رحلة تميم بن بحر كان بأراضى التغزغز من لا يزال يدين بالزرادشتية ومن لا يزال يدين بالمناوية ، وفى أول الأمر كانت ديانة زرادشت هى السائدة ، وكانت المناوية فى العاصمة فقط . ولكن بما أن العرب يتحدثون عن التغزغز بوصفهم جميعا مانويين ، فلا بد أن الزرادشتية كانت آخذة فى السقوط بالتدريج مما قوى المناوية ، ويقال ان هذه الديانة - مثلها كمثلى البوذية - ترقق شمائل الانسان ومزاجه ، ولذلك أضعفت الروح العسكرى عند التغزغز . ويروى الجاحظ المتوفى سنة ٨٦٩ أن التغزغز كانوا قبل اعتناقهم المناوية أمة محاربة بأسلة وأن الغلبة كانت لهم على القارلوق فى الحروب التى خاضوها ضدهم ، حتى حين كان عددهم أقل . فلما دخلوا ديانة مانى بدءوا يذوقون الهزائم .

ويرى ماركارت أن الأويغور البدو هم المقصودون بكلام الجاحظ ويرى أيضا أن العرب قد بلغتهم أخبار تدمير الدولة الأويغورية فى منغوليا على أيدي القيرغيز ، هذا مع أن الحرب المذكورة فى رواية الجاحظ والتى نقلها ماركارت كانت ضد القارلوق لا ضد القيرغيز . ومن هنا يفهم أن الحرب التى أشار اليها الجاحظ لم تكن بمنغوليا كما يرى ماركارت وإنما كانت احدى الوقائع التى دارت فى تركستان الصينية ، ويفهم أيضا أن أولئك الذى تسميهم المصادر العربية « تغزغز » كانوا مستوطنين قبل مجيء الأويغور الى تركستان الشرقية ، وكان وصول هؤلاء الأويغور الى تركستان الشرقية قبل وفاة الجاحظ بثلاث سنين ، ولكن يؤخذ من رواية الجاحظ أن التغزغز كانوا يعيشون منذ زمن بعيد فى تركستان.

الشرقية حيث عرفهم العرب وانهم كانوا فى صراع طويل مع
جيرانهم الغربيين : القارلوق .

ومع ان الاويغور كانوا يعيشون فى شرق تركستان ، فقد
ظل العرب - بتاتير المصادر المكتوبة - يطلقون على سكان
هذا الاقليم (التغزغز) وكانت اخبار هؤلاء الاويغور الواردة
فى المصادر العربية جزئية مقتضبة ولعل اكبرها اهمية
ما اورده المسعودى والنديم ، وهما من رجال القرن العاشر ،
فهما يرويان ان خان الاويغور كانت له من اجل حماية
ابناء ديانته المانوية مساع لدى امپراطور الصين ولدى ثلاثة
من الأمراء المسلمين من آل سامان . وقد روى ابن النديم ان
خان التغزغز لما علم بما يبيت الأمير السامانى للمانويين
المقيمين بسمرقند بعث اليه بأن المسلمين فى اراضى التغزغز
أكثر عدداً من المانويين فى اراضى السامانيين ، وبأنه ان مس
المانويين اذى أو اضطهاد فسيمس المسلمين ببلاد التغزغز
مثله . فعدل الأمير السامانى بسبب هذا التهديد عن سياسة
التضييق التى كان يزعم اتباعها ازاء المانويين وتدل هذه
الرواية على أن الجاحظ بالغ حين زعم أن المانوية أضعفت
الروح العسكرية عند التغزغز ، وقد قيل أيضا ان البوذية
أضعفت روح القتال عند المغول ، وفى ذلك مبالغة ، فقد خاض
المغول فى سبيل الاستقلال حروبا ضد الصينيين دلت على أنهم
لم يفقدوا صفاتهم العسكرية ، وكذلك ظهر أهل التبت على
مسرح الحوادث غزاة محاربين وكان ذلك فى القرن السابع
وهم ما يزالون حديثى العهد بالديانة البوذية .

وفى أوائل القرن العشرين رأى الانجليز وهم يدخلون
بلاد التبت مقاومة يأسلة من أهل البلاد مع أنهم تحت سيطرة
البوذية منذ قرون ، ويكفى فى هذا الباب المثل الذى ضربه
المسيحيون الأوروبيون فى القرون الوسطى ، فانهم برهنوا
على أن الأمة المحاربة تستطيع أن تجعل من دين السلام والحب
دين حرب ، وكذلك الاويغور البدو فانهم تذرعوا بالمانوية

بعد اعتناقها ليهددوا الصين وكان على امبراطور الصين وهو يضطهد الديانات المنتشرة في بلاده ، ما عدا البوذية ، أن يحسب حساب الحماية التي بسطها خاقان الأويغور على المانويين بالصين ولم يضطهد الصينيون الديانات الأجنبية ببلادهم الا بعد أن انهارت دولة الأويغور على يد القيرغيز ، فهناك اضطهدت الديانات ومن بينها المانوية . وبعد أن توطن الأويغور شرقي تركستان استأنفوا سياسة التهديد ازاء الصين ولكنها لم تكن فعالة كما كانت من قبل أيام كانت لهم حكومة قوية في منغوليا . ومع هذا فيستنتج من هذه الروايات التي أوردها المسعودي والنديم أن الأويغور كانوا لا يحجمون حتى بعد استيظانهم شرقي تركستان عن استعمال السلاح زيادا عن أبناء دينهم في البلاد الأجنبية : أى أنهم لم يفقدوا ميقاتهم العسكرية .

الديانة المانوية عند الأويغور

يستطيع علماء أوربا لأول مرة أن يدرسوا الديانة المانوية في وثائق حررها المانويون أنفسهم ، وذلك بعد أن كشفت بعثات الآثار في آسيا الوسطى عن وثائق مانوية مكتوبة بالفارسية والصغدية والتركية والصينية ، فحتى الآن تدرس الديانة المانوية في المصادر المسيحية والاسلامية وهي جميعها مصادر جدلية معادية . كانت المانوية ترمى - كالبوذية تماما - إلى أن تنتشر بين جماهير الشعب ، وكانت تعاليم الزهد في الديانة موجهة ضد نظام الطبقات الذي كانت الديانة الزرادشتية - وخاصة في ايران ابان حكم الساسانيين - تحتفظ به . ومن أجل هذا كتبت النصوص المانوية بحيث يفهمها العامة ، وتتميز مخطوطات تلك الديانة بين مخطوطات ذلك العهد بوضوح الأسلوب وبخلوها من الرموز اللفظية السامية التي كانت تحشد بها النصوص البهلوية والتي استعملها المسيحيون الايرانيون أيضا .

فقد كان هؤلاء يكتبون كثيرا من الكلمات باللفات السامية حتى اذا قرءوا نطقوا باللغة الفارسية .

وكذلك كانت كتابات المانويين التركية واضحة وبسيطة ،
وأهم نصوصهم المكتوبة بالتركية « صلاة التوبة » المسماة
خواستوانيفت Khwastwanift ويرى رادلوف أن هذا الأثر
يفوق كل ما وقع بين أيدينا من النصوص التركية سلاسة .

ومن خلال هذا النص تبدو المانوية — كما كنا نتوقع —
قريبة الشبه بالبوذية : فقد كان يعاقب على التطاول بالمقدسات
المانوية بنفس الطريقة المتبعة في الديانة البوذية ، ويظهر
تقارب الدينين بوجه خاص فيما كان بينهما من الاصطلاحات
المشتركة التي تدل في نفس الوقت على أنهما كانا يتأثران
أحدهما الآخر ، حتى أننا لا نستطيع بسبب هذا التأثير أن
نجزم أى الدينين انتشر أولا بين الترك : المانوية أم البوذية ،
فالمانويون يسمون قديسهم « بورخان » وهي الكلمة التركية
التي تدل على « بوذا » وعلى التماثيل البوذية ، والبوذيون
يطلقون على كتبهم المقدسة كلمة « نوم Nom » وهي اصطلاح
مانوي مازال مستعملا حتى الآن في اللغة المغولية . وقد حاول
البوذيون والمانويون كما حاول المسلمون والمسيحيون فيما
بعد أن يصوغوا اصطلاحاتهم الدينية من اللغة التركية حتى
يسهل انتشارها ، ولكن ذلك لم يكن ميسرا في كل الحالات .
فلئن كان الاصطلاحان الدالان على كلمتي « الله » و « ابليس »
موجودين في الديانة الشامانية ، فلم يكن بتلك الديانة
اصطلاح يدل على « الملك » وقد اضطر المبشرون المانويون
والنصارى والمسلمون المزاولون نشاطهم بين الترك أن
يستعملوا الكلمة الفارسية « فرشته » وأن يكتفوا بها ، وقد
أشار محمود الكشغري الى أن الترك ليس عندهم تصور لمعنى
« الملك » .

ولم يستطع العرب أن يفرقوا تماما بين المانوية
والبوذية وآية هذا أن كثيرا من المؤلفين ومن بينهم البيروني
يقولون ان المانوية انتشرت بين الترك انتشارا واسعا ، على
حين يجزم المسعودي بأن المانوية كانت منتشرة بين التغرغز

وحدهم وأنها لم توجد عند غيرهم ، ولا شك أن المراد بالتغزغز هنا هم الأويغور وبعد ذلك (بعد القرن العاشر بقليل غالبا) حلت البوذية والمسيحية محل المانوية عند الأويغور ، ولكن كيف كان ذلك ومتى ؟ ذلك مالا تجيب عنه مراجعنا فحتى محمود الكشغري وقد حرر كتابه في القرن الحادى عشر لا يشير الى أن المانوية كانت وقتذاك موجودة عند الأويغور ، مع أنه بالنسبة لغيره أعلم كثيرا بدولتهم .

ولعل أهم ما يلفت النظر أن محمود الكشغري — وهو الوحيد بين من كتبوا بالعربية الذى اعتمد على مشاهداته ولم ينقل عن كتاب مدون — لا يستعمل كلمة (تغزغز) البتة ، ولكن يستعمل كلمة أويغور ويثبت هذا ان المؤلفين نقلوا كلمة (تغزغز) عن الكتب القديمة ثم تناقلوها خلفا عن سلف ، وأن هذه الكلمة لم تكن موجودة بين الأتراك فى شرق تركستان فى ذلك الزمان .

واذا لم يكن الأويغور فى زمان الكشغري قد احتفظوا فعلا بالديانة المانوية ، فقد كانوا يحتفظون يقينا بالبوذية والمسيحية ، ذلك بينما كان جيرانهم الغربيون تحت تأثير الاسلام .

فهل يمكن أن نلهم بشيء عن هذا الأمر الجلل فى تاريخ الترك ؟ سأحاول ذلك فى المحاضرة القادمة .

المحاضرة الرابعة

دخول الترك في الاسلام

أخذ الاسلام ينتشر بين الترك حين بسطت دولة آل سامان الايرانية نفوذها في أواسط آسيا ففي القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ الى ١٠٠٠ تقريباً) كانت المناطق المتحضرة بتركستان الروسية الحالية في قبضتهم ، وتسمى الولايات الواقعة بالجانب الآخر من نهر آموداريا (نهر جيحون) بلاد ما وراء النهر ، وكان سكانها يسمون أحياناً في أثناء الفتوحات الاسلامية بالأتراك ، ومن المحتمل أن يكون بعض الأسرات التركية قد حكم بعض المناطق هناك ، ويقال إن في قصير عمرا الأموي الموجود بسوريا صورة لأمير بخارى التركي ماثلة الى جانب صور شاه ايران وقيصر بيزنطة وملك الوبزغوت الأسباني ونجاشي الحبشة ، ولكن اللغة التركية لم تكن وقتذاك منتشرة بين سكان البلاد ، وأغلب الظن أن العرب سموها لغة السكان الايرانيين باللغة التركية ، فبهذا فقط يمكن أن نفسر قول الجاحظ بأن الفرق بين لغة خراسان واللغة التركية فرق لهجة ليس غير كالذي بين لهجة مكة ولهجة المدينة .

المسلمون فيما وراء النهر

ويبدو أن الحد الشمالي للاسلام وللخلافة في آسيا الوسطى كان في فترة ما مطابقاً لحدين آخرين : الحد الجنسي الذي يفصل بين العنصريين الايراني والتركي ، ثم الحد الحضاري الذي يفصل بين مناطق الزراعة ومناطق تربية

الحيوان ، ولئن كان بعض المدن قد أسس شمالى تلك الحدود فقد كان ذلك على يد جاليات من سكان المناطق ذات الحضارة الزراعية هاجرت وأقامت هناك .

وكان الجغرافيون المسلمون فى القرن العاشر يتحدثون عن الترك بوصفهم أجانب وأعداء للإسلام مع أن هذا الوضع أخذ يتغير منذ ذلك الوقت .

وينتمى السامانيون كما كان ينتمى البرامكة وزراء العباسيين الى بلخ حيث سادت البوذية قبل الاسلام ، وقد صعب على هذه الديانة أن تتعايش فيما بعد مع الاسلام ، لأن المسلمين اعتبروها لكثرة الأصنام بمعابدها ديانة وثنية .

وبينما تماسكت الديانة البراهمية فى الهند ابان الحكم الاسلامى تلاشت البوذية هنالك بسرعة ، وتلاشت ايضا فى بلخ وفى طخارستان بوجه عام ، هذا ، على حين بقيت الديانة الزرادشتية متماسكة بعض الوقت ببلاد ما وراء النهر ، وعدا ذلك فقد كانت هناك جماعات من المانوية والنصارى واليهود واستطاعت الديانة اليهودية وحدها أن تعيش هناك حتى الآن ، ومع أن البوذية عجزت عن مواجهة الاسلام واختفت فقد بقيت لها بعض الآثار ، ومن بينها مدارس العلوم الاسلامية العالية التى كانت فى الغالب تقليدا للويهارا Vihare البوذية ويدل على ذلك أن هذه المدارس ظهرت أول الامر فى شرق العالم الاسلامى ولم تظهر فى غرب ايران وفى دار الخلافة بغداد الا فى القرن الحادى عشر ، وتنم كثرة هذه المدارس فى بلخ وما حولها عن تأثير الديانة البوذية .

وتدل الوثائق التى بين أيدينا على أن المدارس التى كانت بخراسان وبما وراء النهر فى القرن العاشر ، لعبت الدور الأهم فى نشر الاسلام وكانت هذه المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها . وفى ذلك القرن كانت الدعوة للإسلام خارج حدود الخلافة أكثر نجاحا فى آسيا الوسطى

منها فى أى مكان آخر ، وذلك بفضل هذه المدارس . وقد رأينا فى المحاضرات السابقة أن السامانيين عدلوا عن خطة الدفاع التى كان يتبعها أمراء خراسان وما وراء النهر المعينون من قبل الخليفة ، ونقضوا أيديهم من بناء الأسوار التى كانت تقام وقاية للأقاليم المتحضرة من غارات البدو ، وبدعوا هم يغيرون على مناطق الاستبس ، وكانت غزواتهم تنتهى أحيانا بفتح بعض المدن ، ففي سنة ٨٩ فتحت مدينة (طراز) أو (طالاس) وكانت فى مكان مدينة (أوليا آتا) الحالية . ويقال انه بمناسبة هذا الفتح حولت الكنيسة الكبيرة بالمدينة الى مسجد ، مما يدل على أن التبشير المسيحى كان قد سبق الاسلام الى هناك .

ولكن هذه الفتوحات ظلت قاصرة على الأماكن القريبة من بلاد ما وراء النهر ، وبالإضافة الى هذه الفتوحات كان المهاجرون يأتون أحيانا من بلاد ما وراء النهر ليستعمروا الصحراء صلبا ، وكان العنصر الذى هاجر قبل الاسلام من بلاد ما وراء النهر واستعمر صحراء الترك هو عنصر الصغد ، فلما دخلت جمهرة سكان ما وراء النهر فى الاسلام واصلوا سياسة الصغد القديمة الاستعمارية . وهكذا أنشئت ثلاث مدن اسلامية فى القسم الأسفل من نهر سيحون وهى (جند) و (خواره) و (ينغى كنت) وبالتركية (يكتى كنت) ، وبالفارسية (ده نو) وبالعربية (القرية الحديثة) . وقد انتقلت كلمة (كنت) من الصغد الى الترك وأمكن تحديد موضع (ينغى كنت) بالضبط وتسمى أطلالها الآن (جانكه نت) .

ويؤخذ من أقوال الجغرافيين العرب أن سكان هذه البلاد وإن كانوا مسلمين فإنهم خاضعون للأتراك الغز الذين لم يقبلوا الاسلام ، أى أن المدن لم تكن من تلك التى نشأت فى الأقاليم التى غزاها السامانيون ، وإنما كانت مستعمرات أنشأها المهاجرون مما وراء النهر برضا الحكام الأتراك

المحليين ، وقد اتسعت تجارة طالاس التي فتحها السامانيون ، وتجارة ينغى كنت التي أسسها المهاجرون صلحا مع بلاد آسيا الوسطى . وفي الطرف الشمالى لكل من هاتين المدينتين كان يوجد طريق يؤدي الى القبيلة التركية (كيمه ك) Kimak المشهورة عند الصينيين باسم (كيماك) والتي كانت تعيش على نهر ايرتش ومن هؤلاء الكيماك ينحدر القبجاق الذين شغلوا فيما بعد مناطق شاسعة .

خوارزم والخزر

كانت خوارزم ، وهي إحدى الولايات الواقعة على حدود المدنية الاسلامية محاطة بمناطق الاستبس من ثلاث جهات ، وكانت لها من قديم الزمان تجارة واسعة مع الجماعات البدوية ، الا أنها في أغلب الظن كانت أنشط قبل العهد الاسلامي منها بعده ، ويبدو أن أهل خوارزم قد أسهموا في تأسيس المستعمرات الاسلامية بالقرب من سيعون ، وإن كان مجال نشاطهم قد اتجه خاصة الى الغرب وإلى الشمال الغربي أى الى حوض الفولجا (ايديل) حيث كان يقيم البلغار والخزر ، ويرجع نشاطهم هذا الى ما قبل العهد الاسلامي ، فان رئيس عسكر الخزر الذين هاجموا الولايات الاسلامية في قافقاسيا سنة ٨٦٤ كان خوارزميا ، وبعد هذا التاريخ نجد أيضا بعض المسلمين من أهل خوارزم في خدمة الخزر ، الا أنهم كانوا يحصلون عند التحاقهم بالخدمة على حق الحياذ اذا دخل الخزر في حرب ضد بلد اسلامي . وعدا هذا ، فان عدد التجار المسلمين كان كثيرا في بلاد الخزر وخاصة في العاصمة (ايتيل) الواقعة على نهر الفولجا . وبفضل التجارة وحدها أمكن أن تنشأ مدينة كبيرة كهذه في منطقة قال فيها العرب انها غير ذات حاصلات .

وكانت بلاد الخزر تشترك في حدودها الجنوبية الغربية مع داغستان ومع بلاد الخلافة الاسلامية ، وهناك كانت تحدث المصادمات العسكرية التي ألجأت خواقين الخزر الى ترك

عاصمتهم القديمة بداغستان وتأسيس عاصمة جديدة على مصب نهر ايديل (الفولجا) ، ومع أن العرب غادوا فاتبعوا في فافقاسيا نفس الخطة التي اتبعوها في تركستان - وهى خطة الدفاع - ومع أن داغستان (ماعدا الدربند وضواحيه) كانت فى قبضة الخزر ، فان عاصمتهم بقيت على منصب نهر الفولجا .

واما فى الشرق فقد كانت هناك دائما منطقة ليست ملكا (No man's Land) بين بلاد الخزر وبين حدود البلاد الاسلامية، ولم تكن هذه المنطقة خاضعة لا للخزر ولا للمسلمين ولكن يمكن أن يستنتج من بعض المراجع العربية أن عساكر الخزر كانت تتجاوز هذه المنطقة وتشترك فى الأحداث التى تدور فى حوض الفولجا وأهم هذه الأحداث هو هجوم الروس على حوض هذا النهر فى القرن العاشر وقبل هذا الهجوم كان الخزر قد أغاروا على ما جاورهم شرقا من بلاد الصقالبة . وتحدثنا الحوليات الروسية بأن بعض أقوام الصقالبة كانت تدفع الجزية حتى النصف الثانى من القرن التاسع لخاقان الخزر ، ومما يدل على أن تأثيرهم كان بعيد المدى من ناحية الشمال أن الأمراء الروس الذين كانوا يقيمون على مقربة من (نوغورود) كانوا يحملون اللقب التركى خاقان . هذا ، والروس وقتذاك مازالوا نورمانديين يتكلمون السويدية ولكنهم ما لبثوا بعد ذلك أن نسوا اللسان السويدى وتصقلبوا وبدعوا يتكلمون اللغة الروسية ، ومع أن حكامهم كانوا يحملون لقب (كناز) وهى كلمة جرمانية قبلها الصقالبة عامة ، فقد كانت كلمة قاغان تستعمل أيضا فلما تكونت دولة الروس فى القرن التاسع وامتدت من البحر البلطى الى البحر الأسود كان ذلك ضربة شديدة لسلطان الخزر وشوكتهم .

وكان الروس يغيرون على كل الجهات ، فلما اتجه هجومهم الى نهر ايديل والى بحر الخزر لم يكن بد من أن تصطدم الأمتان ولم تذكر الحوليات الروسية شيئا عن هذه

الغارات باستثناء اخراها وهى غارة (أسواتوسلاف) ، فقد وردت عنها بضعة أسطر ، وكل معلوماتنا عن هذه الغارات مأخوذة من المصادر العربية . وأكثرها تفصيلا رواية المسعودى عن أولى هذه الغارات ، وقد وقعت غالبا بين ٩١٠ و ٩١٥ أو على الأرجح عام ٩١٣ وتمت هذه الغارة باذن خاقان الخزر ، وكان الروس قد وعدوه بجزء من الغنائم ، ولكن هذا الخاقان نفسه أذن لرعاياه المسلمين بمهاجمة الروس (أثناء عودتهم) وانضم الى المسلمين التجار النصارى المتوطنون فى مدينة ايديل والمهتمون بأن تظل تجارة المدينة فى مأمن من الغارات ، وهكذا كاد الروس أن يبيدوا تماما .

وأما الغارة الثانية التى قام بها الروس ٩٤٣ - ٩٤٤ والتى انتهت بتخريب ونهب احدى المدن المركزية بقافقاسيا الاسلامية وهى مدينة (بردعه) ، فان المصادر الاسلامية لا تذكر اذا كانت تلك الغارة قد تمت برضا خاقان الخزر أو رغم أنفه . ولا ندرى اذا كانت أراضى الخزر قد أصابها من هذه الغارة مثل الذى أصاب الأراضى الاسلامية ، والغارة الثالثة هى غارة أمير الروس اسواتوسلاف فى سنة ٩٦٥ وكان هدفها هو بلاد الخزر نفسها وانتهت بأن خضعت تلك البلاد للروس بعض الوقت ، بما فى ذلك أجزاؤها فى داغستان وهى الأجزاء الواقعة على حدود البلاد الاسلامية ، ولكن الروس لم يتجاوزوا بلاد الخزر ولم يتعرضوا للبلاد الاسلامية ولم يتتبعوا الأهالى الذين فروا الى شبه جزيرة أبشيرون وهى بلد اسلامى (بالقرب من باكو) . ويفهم من قول ابن حوقل - وكان يعيش ذلك الوقت بالجزء الجنوبي الشرقى من بحر الخزر - أن معاصريه كانوا يعتقدون أن الروس قد فتحوا بلاد الخزر كلها وبصفة دائمة ، وكان الفارون يفاوضون الروس لكي يعودوا الى وطنهم ويعيشوا تحت الادارة الروسية وحتى بعد ذلك لم يعلم ابن حوقل أن الروس قد تركوا تلك البلاد وأن مملكة الخزر قد بعثت من جديد .

واذا أردنا أن نفهم كيف وقعت هذه الغزوة ، فيجب أن ننظر في غزوات أسواتوسلاف في البلاد الأخرى ، كان الهدف من غزوات النورمنديين سواء منها ما وقع في روسيا أو أوروبا الغربية هو السلب والنهب وكان السلب أيضا هو الهدف من الغزوات الأولى لروسيا في مناطق بحر الخزر ، تم بدأت هذه الغزوات تصطبغ بصبغة الفتح ولم يكن القصد من الفتح هو ضم البلاد المفتوحة فقط ، بل كان يراد به التوطن والبقاء في الأماكن الغنية ، ولما دخل أسواتوسلاف في بلاد بلغار الطونه وكانت أرفع مستوى من روسيا حضاريا واقتصاديا وتجاريا أراد التوطن والبقاء فيها ولم يكن يريد - رغم نصائح حاشيته - أن يرجع الى كييف ومن المحتمل جدا أن يكون أسواتوسلاف قد فطن في أثناء غارته على بلاد الخزر الى الأهمية التجارية لمدينة ايتيل ، فأعجب بها وبدت له بالنسبة الى كييف أهم وأغنى وأجدر بأن تكون عاصمة ملكه ، وكان يمكن أن يكون لذلك أثر حاسم في تاريخ روسيا فلو أن أسواتوسلاف توطن مدينة ايتيل لتأثر الروس بالمدينة الاسلامية . وحينما خرج أسواتوسلاف من بلاد الخزر لم تكن غايته أن يعود الى وطنه ولكنه خرج اجابة لرجاء امبراطور بيزنطة الذي طلب معاونته على صد بلغار الطونه ، ويبدو أن سفير بيزنطة لم يجد أسواتوسلاف في كييف ولكن وجدته ببلاد الخزر فهل كان أسواتوسلاف حين ترك هذه البلاد طامعا في بلاد أخرى وعده بها البيزنطيون أم هل خرج باختياره ، أم أنه عانى فشلا في بلاد الخزر أم خاف عدوا آتيا من الخارج ؟ اثنا لا نجد عن هذه الأسئلة جوابا لا في المصادر الروسية ولا في المصادر البيزنطية ، ولكن المصادر الاسلامية تتحدث عن اشاعات وصلت الى بغداد في ذلك الوقت يحتمل أن يكون فيها الجواب .

تروى هذه المصادر أن جيشا تركيا هاجم الخزر سنة ٩٦٥ وهي نفس السنة التي هاجم فيها استواتوسلاف وطلب الخزر العون من الخوارزميين ، فاشتراط عليهم هدايا أن

يسلموا فقبلوا الاسلام وعاونهم الخوارزميون وانقذوهم من استيلاء الأعداء . وتذكر المصادر الاسلامية دخول الخزر في الاسلام فى مناسبة أخرى ، وبين أحداث عهد آخر - فعلى رواية ، أنهم أسلموا نتيجة للغزوات التى قام بها (مأمون) فى بلادهم بعد أن غادر كركانج (حاليا كوهنه أوركانج) ولا شك أن المقصود هنا ليس الخليفة المأمون كما يظن ماركارت ولكن الأمير مأمون بن محمد حاكم كركانج .

ولا شك أن رواية دخول الخزر فى الاسلام كما صورت فى الحادثتين السابقتين تعتمد على شائعات غير صحيحة ، لأن الخزر ظلوا على دينهم الذى اعتنقه الخاقان والطبقة الأرستقراطية فى القرن الثامن الميلادى فى عهد هارون الرشيد وهو الدين اليهودى ، أى أن اليهودية ظلت ديانة رسمية للخزر حتى انقراض دولتهم . وكان دخول الخزر اليهودية آخر صفحة من صفحات التبشير اليهودى المذكور فى الانجيل وعند بعض المؤرخين القدماء ، فبعد ذلك أخذت اليهودية تفقد بالتدريج صفتها كدين عالمى تبشرى ، واضطرت أن تترك مجالها للمسيحية والاسلام ، وأصبحت كما هى الآن ديناً قومياً للأمة اليهودية فقط حتى انه ليعد من العجيب أن يدخل فيها شخص من أمة أخرى .

وتقول المصادر الاسلامية ان اليهودية لم تكن ديانة شعب الخزر ، ولكن كانت ديانة الحكومة فقط وأن الحكومة كانت تحمى اليهود ، فلما بلغها مرة أن إحدى الحكومات الاسلامية هدمت معبدا يهوديا ، ردت على ذلك بأن هدمت فى سنة ٩٢٢ مئذنة اسلامية فى مدينة ايتيل ، ولكن أغلبية الشعب كانت من المسلمين والمسيحيين وكان اليهود أقلية - والآن فما زالت مشكلة القارائيم بالقرم مبهمة ، ما أصلها وما منشؤها ؟ لم تكن كلمة قارائيم فى العصور الوسطى اسم شعب لكن كانت اسم مذهب لفريق من اليهود لم يعترف بالتملود وهذا هو مذهب قارائيم الذين يعيشون حاليا فى القرم ، وهم يتكلمون التركية وكتبهم المقدسة مترجمة الى التركية ، ولذلك بقى

لسانهم نقيا ، وكان جزء من القرم خاضعا للخزر ويحتمل ان يكون اخر ملوك الخزر قد عاش فى القرم فى اوائل القرن الحادى عشر ، ومهما يكن فقد كان اسم هذا الملك (جورجى) مما لا يبعد معه أن يكون مسيحيا ، وليس فى المصادر التاريخية أية اشارة الى دخول الخزر فى مذهب القارائيم وتشهد اللغة على أن القارائيم شعب غير الخزر ، وكانت لغة الخزر - كلغة البلغار - غير مفهومة للترك ، وربما اختلطت بلغة الخطاب التى تمثل لغة الجوفاش حاليا آخر بقاياها ، ولكن لغة القرائيم فى القرم ، ولغة كتابهم المقدس (التوراة) لا تختلف كثيرا عن سائر اللهجات التركية ، ولا تمت بأية صلة للغة الجوفاش وعلى هذا ، فان العلم بأن القارائيم كانوا يهودا وبأن لسانهم كان تركيا لا يكفى لحل مشكلة أصلهم وعلاقتهم بالخزر .

وعلى هذا فان ، الاسلام لم يستطع أن يسود فى بلاد الخزر ، واذا صرفنا النظر عن نجاح التبشير الاسلامى أو فشله عندهم ، فقد كانت هناك أسباب تدعو الخوارزميين لمساعدتهم عندما يهاجمهم عدو خارجى ، فان وجود الخوارزميين فى خدمة خاقان الخزر ، والضرر الذى يلحق هؤلاء من هجوم الروس كل أولئك كان يدفع الخوارزميين الى مساعدتهم . ومن أجل هذا يحتمل كثيرا أن يكون خروج استواتوسلاف من بلاد الخزر نتيجة ولو جزئية لتدخل الخوارزميين ، أى لهجومهم من الشرق ضد الروس المحتلين ايتيل .

خوارزم وبلغار الفولجا

وتشير المصادر الاسلامية الى أن بلغار الفولجا وهم جيران الخزر كانوا أكثر اتصالا بالمدينة الاسلامية ، ففي سنة ٩٢١ وقد على الخليفة المقتدر سفراء من البلغار الذين اهدوا الى الاسلام وطلبوا أن يرسل اليهم بعض العسكريين المتخصصين فى بناء القلاع والاستحكامات ، وكذلك بعض

العلماء لتدريس الاسلام . وكان بين الهيئة التي اوفدها الخليفة ابن فضلان الذي وصف الرحلة من بغداد الى بلاد البلغار ثم العودة الى بغداد مارا ببلاد الخزر ، وحتى عهد قريب كانت رحلة ابن فضلان تعرف فقط مما نقل عنها ياقوت في القرن الثالث عشر ، ولكن ثبت حديثا أن نسخة من رحلة ابن فضلان موجودة بمكتبة مشهد وهي نسخة تنقصبها بضع ورقات من آخرها ، ولكن أوصافها تلتقى مع تلك التي قرأها وأفاد منها ياقوت .

والظاهر أن ابن فضلان كان هو المكلف بأن يلحق البلغار تعاليم الاسلام وأنه لم يعن بالجانب السياسي في هذه السفارة ، وقد عين لدى البلغار سفير من قبل حكومة بغداد غير ابن فضلان .

وإذا حكمنا بناء على القسم الذي نشر حتى الآن ، فإن ابن فضلان لا يتحدث عن المهمة الأخرى وهي المهمة العسكرية ، فلا يتحدث عن الاختصاصيين العسكريين هل أدوا مهمتهم وهل أسسوا القلاع أم لا ، ولا يحدثنا عن هؤلاء البلغار كيف عرفوا الاسلام قبل إيفاد هذه الهيئة . ولكن وصف طريق الرحلة يجيب جزئيا عن هذه المسألة ، فقد قامت الهيئة من بغداد الى بخارا ثم الى خوارزم ، ثم الى بلاد البلغار . ولا يمكن تعليل اختيار هذا الطريق بالذات إلا بأن البلغار اتصلوا بالمدينة الإسلامية أول الأمر بواسطة الولايات التابعة للخوارزميين والسامانيين ، والا فإن أقصر طريق من بغداد الى حوض الفولجا هو طريق قافقاسيا ، ولا شك أن العلاقات الثقافية بين البلغار والخوارزميين هي التي جعلت المؤرخين الروس يظنون أن هناك قرابة بين الخوارزميين والبلغار ، وفي نفس الوقت تدل العملة التي سكها البلغار المسلمون في القرن العاشر على تأثيرهم بالسامانيين ، ذلك أن هؤلاء السامانيين لم يكونوا يعترفون بالخليفة (المطيع) فلم يكتبوا اسمه على العملة ولكن ذكروا اسم الخليفة السابق وهو

(المستكفى) ، وقد قلدهم البلغار فسكوا اسم هذا الخليفة على العملة المضروبة في نفس الوقت .

ومع أن العلاقات بين البلغار والخوازميين كانت سليمة ، فإن المصادمات كانت تقع بينهم في بعض الأحيان ، وقد كانت غزوات الخوازميين في بلاد (الصقالبة) موطن بحث ، وانه ليبعد أن يكون السكان في غرب الفولجا صقالبة حقيقيين ، وقد كان ابن فضلان يسمى ملك البلغار (ملك الصقالبة) وكان يمكن اعتبار هذه العبارة خطأ من ياقوت ، ولكن تبين الآن أن ابن فضلان استعمل العبارة نفسها في نسخته الأصلية .

وأغلب الظن أن بلغار الفولجا - مثلهم كمثل بلغار الطونة - نتاج اختلاط (الترك - جوفاش) بالصقالبة ، وذلك مع فرق واحد وهو أن اللسان الصقلي غالبا عند أتراك الطونة ، وأن اللسان (التركي - جوفاشي) غالبا عند بلغار الفولجا .

وربما كانت مساعدة الخوازميين قد حمت دولة الخزر لمدة قصيرة من الاندثار نتيجة لاستيلاء الروس عليها ، ولكن ما كان الخزر ليبعثوا من جديد بهذه المساعدة فقد انقطع ذكرهم ابتداء من القرن الحادى عشر وعندما أغار المغول في القرن الثالث عشر لم يلاقوا خزرا ، وقد أفاد بلغار الفولجا أكثر من الروس من انقراض دولة الخزر . ومع أن ابن حوقل يذكر أن الروس دمروا الخزر والبلغار كليهما ، فإن الحوليات الروسية لا تذكر شيئا عن هذا الأمر ، بل أن الاحداث التى وقعت بعد ذلك لا تتفق مع قول ابن حوقل .

وقد كان البلغار في المدة بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر يبسطون نفوذهم من (ويليكي أوسيتوك) الى جنوب (ساراتوف) ومن (مورو) الى حدود (أوبا) . وأما من الناحية السياسية فإن دولة البلغار كانت تعاني - كدولة الروس في ذلك الوقت - من الانقسام الى امارات .

وقد تحدث ابن فضلان عن حاكم البلغار ومع ان الحاكم لم يكن يحمل لقب (خان) مثل حاكم الخزر ، فقد كان اكبر من الحكام الآخرين * ويتحدث أصحاب الحوليات من الروس ، فيما ولى ذلك من عهود ، لا عن حاكم واحد لكن عن (كنازات البلغار) ومن ناحية أخرى كانت مدينة البلغار فى القرن الثالث عشر أرقى منها فى القرن العاشر .

وكان للبلغار - حسب رواية الجغرافيين العرب فى القرن العاشر - مدينة بلغار ومدينة سوار على بعد ٥٠ كيلاً . (ويحتمل ان يكون هذا الاسم الأخير اسم قبيلة) والنق ان هذه المدن كانت مضارب بدو أكثر منها مدناً ، كانت عبارة عن أكواخ وخيام من اللبد ، لم تكن تسكن صيفاً بل كانت تخلو تماماً * هذا على حين أن مدينة (بلغار) فى عهد المغول كانت كما تدل خرائطها مبنية بالآجر والحجارة ، وكان بها خمسون ألفاً من السكان وكانت تصدر - فى القرن العاشر - منتجات الصين : الجلود والفراء ، وكذلك مقادير كبيرة من الشهد * وتطورت بعد ذلك الدباغة وارتقت وصارت النعال والأحذية من أهم ما يصدر من بلاد البلغار الى المسلمين (وعن البلغار أخذ الروس صناعة الدباغة) وكذلك ارتقت الزراعة وكان الروس اذا أقحطوا تداركوا الأمر فاستوردوا المؤن من بلاد البلغار ، وكانت الحروب بين البلغار والروس سجلاً - يغلبون ويغلبون وكانت تحركات الروس تتجه نحو مصب الفولجا ببطء شديد ، لأن البلغار كانوا يمنعونهم * .

وفى القرن الثالث عشر قبيل الغزو المغولى وصل الروس بشق النفس الى نقطة التقاء نهر (الفولجا) بنهر (أوقا) وهناك أسسوا مدينة (نيزنى ناوغورد) Nijni-Novgorod ومن ناحية أخرى فليس لدينا مصدر موثوق به يعين ويحدد حضارة البلغار المعنوية * .

وعلى الرغم من وجود بعض النقوش البلغارية على بعض القبور التى ترجع الى العهد المغولى (أى الى القرن الرابع

عشر) فليس من الممكن معرفة مدى رقيهم الأدبي . وبعد ذلك بقليل سادت اللغة التركية التي كانت منتشرة بين أتراك (آلتون أوردو) فى بلاد البلغار القديمة ، ولا يكاد يحفظ لسان البلغار الا فى لهجة الجوفاش ، وهم فريق من البلغار لا علم له بالاسلام ولا بالأبجدية العربية ، وليس له رسم خطى خاص ، وظل كذلك الى العهود الأخيرة حيث استعمل الخط الروسى وهو (على العموم) أقل أقسام البلغار اتصالا بالمدينة الاسلامية وتأثرا بها .

تغلغل الاسلام بين الترك

والآن ، فانا نرى من الطريق الذى وصفه ابن فضلان أن الأمم البعيدة عن البلاد الاسلامية كانت تتأثر بالاسلام قبل البلاد ذات الحدود المشتركة مع ديار الاسلام ، وقد رأى ابن فضلان - فى البلاد الواقعة بين بلاد الخوارزميين وبين بلاد البلغار الداخلة فى الاسلام - قوما من الترك شامانيين يثبتون فوق قبور الموتى من محاربيهم عددا من الحجارة يعادل عدد الأعداء الذين قتلهم هؤلاء الموتى ، وكانت الاقوام التركية فى آسيا الوسطى فى ذلك الزمان تمثل مستويات مختلفة من المدنية ، فكان بينهم فريق لم يعرف الأسلحة الحديدية وانما يستعمل أسلحة من العظام . ويدل دخول البلغار فى الاسلام على أن هذا الدين كان ينتشر بين الأتراك الذين لهم نصيب من الحضارة ، ويروى ياقوت أن الخليفة هشام (٧٢٤ - ٧٤٣) أوفد سفيرا الى خاقان الترك يدعوه الى الدخول فى الاسلام وكما لم يذكر ياقوت - مع الأسف - الى خاقان أى قوم من الترك أوفد السفير ، فانه لم يذكر أيضا خط سيره ، وقد نظم الخاقان - كما يروى ياقوت - عرضا عسكريا فى حضرة السفير المسلم وقال له : « ان قوما كهؤلاء ليس بينهم صانع ولا اسكاف ولا حلاق ولا حائك ، لن يعيشوا اذا دخلوا فى الاسلام ولزموا أوامره » .

ولا يوجد دليل واحد على الزعم بأن السبب الرئيسى لدخول الترك فى الاسلام هو عسكريتهم ، وبأنهم كانوا متأثرين بفكرة الجهاد ، وبالجنة التى وعدها شهداء لحرب . وكان ظهور التبشير الفردى الاسلامى - سواء فى داخل العالم الاسلامى أو خارجه - مرتبطا بالتصوف الاسلامى ، فيحكى دائما فى مناقب الصوفية أنهم استطاعوا ادخال كثير من الكفار فى الاسلام وكان هؤلاء الصوفية يذهبون الى الصحارى لادخال الأتراك فى الاسلام ، وقد ظلوا حتى وقت قريب أكثر توفيقا من العلماء الذين درسوا فى المدارس ، ولم يكن هؤلاء الصوفية - وهم يلقنون الاسلام فى مناطق الاستبس - يتحدثون عن الجهاد وعما يجد الشهداء من نعيم فى الجنة ، بل كانوا يتحدثون عن الاثم وعن العذاب الأليم فى نار جهنم ، ويؤكد الرحالة الأوربيون فى أواسط آسيا وأفريقيا (وكل منهم مستقل عن الآخر) أن سبب انتشار الاسلام هو الحكايات التى تروى لأهل تلك البلاد عن عذاب الجحيم . ومع هذا ، فان الاسلام لم يأت الأتراك بجديد من هذه الناحية فقد كان المبشرون البوذيون والمناويون والنصارى يحدثون الأتراك أيضا عن العذاب ، وقد نجح التبشير الاسلامى حتى فى الأماكن التى كان سكانها على علم بواحد من هذه الأديان ، وكان تفوق الاسلام على الديانات الأخرى يعتمد فى ذلك الزمان على تفوق العالم الاسلامى ماديا ومعنويا على كل البلاد المتمدينة .

وكان البدو فى كل وقت بحاجة الى حاصلات البلاد المتحضرة وإلى الملابس بخاصة ، فقد لوحظ فى البلاد التى بينها وبين البدو تجارات (الصين والبلاد الاسلامية ثم روسيا أخيرا) أن البدو يحرصون دائما على استيراد المنسوجات وكانت التجارة مع البدو مفيدة أيضا للبلاد المتحضرة ، لأنها كانت تستورد من البدو الحاصلات الحيوانية وخاصة اللحوم بأثمان منخفضة ، ولكن هذه التجارة كانت أكثر ضرورة للبدو ولهذا ، كانوا يأتون معهم قطعانهم الى حدود البلاد

المتمدينة ولا ينتظرون حتى يذهب اليهم تجار هذه البلاد
فى الصحراء *

وبينما كان هؤلاء البدو يألون البضائع الاسلامية
ويتأثرون بطراز حياة المسلمين بوجه عام ، كانوا يتأثرون
كذلك بالاسلام لا من الناحية الدينية فحسب ولكن من
الناحية المدنية بوجه عام *

ولكن الانضمام الى عالم الاسلام المتمددين لم يكن ممكنا
لهؤلاء البدو الا اذا دخلوا فى الاسلام من حيث هو دين ،
ومن العوامل على انتشار الاسلام بين الترك خاصة امتاز بها
الاسلام على سائر الأديان العالمية ، فعلى الرغم من أن اتباع
البوذية واتباع المسيحية أكثر عددا من المسلمين ، فان الاسلام
دين عالمى بمعنى الكلمة أى أنه ليس مقصورا على جنس أو
مدنية ، ولئن كانت بعض الديانات قد بزت الاسلام فى هذه
الناحية ، فان توفيقها كان مؤقتا ولم يستطع الحصول على
نتائج دائمة كالتى أحرزها الاسلام ، فالديانة المانوية مثلا
كانت فى وقت ما دينا عالميا وكان أتباعها منتشرين فى أماكن
تمتد من جنوب فرنسا الى الصين ، ولكن هذه الخاصة لم تمنع
المانوية من الاضمحلال الكامل * وقد بدأت البوذية نشاطها
العالمى بحركة دعاية فى الغرب فانتشرت هنالك ، ولكنها فى
نهاية الأمر - ظلت دينا للشعوب المتحضرة فى شرق
آسيا فقط *

وقد كان للمسيحية أتباع كثيرون بين الترك حتى بداية
انتشار الاسلام ، وفى وقت ما كان لها اتباع فى غرب منغوليا
وفى شرقها وجنوبها حتى ان الدعاية الاسلامية لم تستطع ان
تكسب شيئا ، ولكن نجاح المسيحية هذا كان مؤقتا ، وبقيت
المسيحية بعد هذا دينا أكثر أتباعه من شعوب اوروبا
المتحضرة *

وأما المسيحيون غير الأوروبيين فانهم من القلة بحيث
لا يذكرون الى جانب مسيحيى اوروبا وهم كذلك متخلفون

حضاريا ، واذا كان الاسلام هو دين العالم المتمددين فى غرب آسيا ، فان عدد المسلمين فى شرق آسيا وخاصة فى الهند وجزر (زوند) أكبر من المسلمين فى غرب آسيا ، وأما فى الصين فان المسلمين قوة مستقلة ولهم أدبهم الدينى الخاص . ولا حاجة الى أية مساعدة من الخارج ، ذلك ، على حين أن مشروع المسيحيين بالصين لتكوين المسيحية القومية بالصين قد باء بالفشل ، وكذلك لم تستطع المسيحية فى أفريقيا أن تصنع مثل ما صنع الاسلام وها قد نجحت الدعوة الاسلامية منذ القرن التاسع عشر ، فى بلد له وحده فى كل أفريقيا كنيسة قومية وهو الحبشة .

وفى التاريخ أمثلة كثيرة لأهم بوذية أو مسيحية تركت ديانتها ودخلت فى الاسلام، ولكننا لا نجد أمة اسلامية واحدة تخلت عن دينها ودخلت فى البوذية أو المسيحية .

أول مملكة تركية اسلامية : القراخانيون

وكان النصر الثانى الذى أحرزه الاسلام بعد أن أسلم بلغار الفولجا هو اسلام عدد من الترك يبلغ مائتى ألف خيمة (أسرة) وذلك فى سنة ٩٦٠ أى بعد أربعين عاما من عودة سفارة المسلمين من بلاد البلغار الى بغداد ، وقد سجل هذا الحادث فى كتاب واحد مكتوب ببغداد ، ولم يرد عنه شئ فيما كتب ببلاد السامانيين ولا فى كتب جغرافى العرب ، واليكم السبب فى غموض هذا الخبر وفى انعدام المعلومات عن هؤلاء الترك : من هم ، وما المكان الذى يعيشون فيه .

ورد فى بعض كتب المناقب التى وضعت متأخرا فى آسيا الوسطى (وهو كتاب أخذ عن أقدم الكتب التى حررت فى هذا الموضوع فى القرن الحادى عشر ، ولكنه حصر فى القرن الرابع عشر) أن خان الترك الذى دخل الاسلام هو (ساتوق بغراخان عبد الملك) ، وهو ينتمى الى الأسرة التى قضت على السامانيين فيما وراء النهر فى نهاية القرن العاشر وأقدم رواية وردت بهذه الكتب بخصوص بغراخان ودخوله

فى الاسلام رواية اسطوريه ، وقد زاد العنصر الاسطورى فى هذه الرواية فى الكتب المسماة (تذكرة بغراخان) والمنتشرة الآن فى آسيا الوسطى .

فالى أى قبائل الترك تنتمى أسرة بغراخان ؟ أن المراجع الجغرافية والتاريخية ، لا تجيب عن هذا السؤال . وأما العلماء الروس ابتداء من جريجوريف ، فانهم يطلقون على بغراخان لقبه الآخر (قاراخان) وأما كتب غرب أوروبا فتستعمل لقب (ايليك خان) وهو تعبير غير موفق ، لأن استعمال لقب (ايليك) مع لقب (خان) نادر وان كان قد ورد فى بعض الأحيان . وبالإضافة الى هذا فان كلمة (ايليك) لم تكن تطلق على كل خانات تلك الأسرة .

فى أى وقت ظهرت دولة القاراخانيين ، وبأى هجرات الأقوام التركية يتصل هذا الظهور ، وإلى أية قبيلة ينتسب الخانات ؟ ان هذه المسائل لم تتضح تماما حتى بعد أن اكتشف كتاب محمود الكشغرى ونشر ، وقد حرر هذا الكتاب بعد أن قويت دولة القاراخانيين واستتب أمرها فلم يعن بما مضى من مشكلات .

وكان جغرافيو العرب حتى أولئك الذين كتبوا بعد سنة ٩٦٠ لا يعلمون أن دولة تركية مسلمة قد قامت على حدود دولة السامانيين ، وذلك لأن هؤلاء الجغرافيين كانوا ينقلون عن كتب قديمة حررت فى عهود سابقة .

ومع هذا ، فبالإضافة الى الاشارات التى يمدنا بها جغرافيو القرنين التاسع والعاشر القائلون بأن القارلوق يشغلون دائما المنطقة الواقعة بين الغز والتغزغز ، بالإضافة الى هذا نجد فى مصادر عربية أخرى - معلومات أوسع عن نظم تلك البلاد السياسية والقومية . وقد وصلتنا روايات هذه الكتب بطريق كتابين فارسيين الأول مجهول المؤلف كتب سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ - ٩٨٣ م) وينسب الى مكتشفه وهو (تومانسكى) فيقال (مخطوطة تومانسكى) وأما الثانى

فكتاب حرره الكرديزي في القرن العاشر عشر بعد سنة ١٠٤٠ ، ويبدو أن ما يهذين الكتابين من معلومات يرجع الى عهد أحدث من عهد ما ورد بالمصادر العربية المحررة في القرن العاشر ، ومع هذا فان هذين الكتابين أيضا لا يصوران الأماكن تصويرا دقيقا ، بل ربما كانت معلوماتهما راجعة الى عهود مختلفة ، ولذلك فانا لا نستطيع التوفيق بين ما جاء بأحدهما وما جاء بالآخر ، ولا بين ذلك كله وبين ما قال الكاشغري عن تقسيمات أقوام الترك *

ويؤخذ من مخطوطة (تومانسكى) ومن كتاب الكرديزي أن قبيلة (ياغما) التي ظهرت بين (التغزغز) سكنت في جزء من المنطقة التي كان يسكنها القارلوق ، كما يروى جغرافيو العرب في القرن العاشر ، وكان هؤلاء الـ (ياغما) يملكون كاشغر والمنطقة الواقعة جنوب نهر (نارين) المتفرع من (سيرداريا) فإذا كان توطن الـ (ياغما) لتلك المناطق يرجع الى عهد أحدث من روايات الجغرافيين العرب ، وإذا كان هؤلاء التغزغز قد جاءوا من الشرق فانه يمكن عندئذ رفض ما زعمه الجاحظ من أن التغزغز كانوا بعد دخولهم في المانوية يغلبون أمام القارلوق *

وكانت دولة القاراخانيين مرتبطة ارتباطا وثيقا بكاشغر ، وكانت هي العاصمة ولذلك سموها (أوردوكنت) أى (المعسكر الملكى) كما يقول محمود الكاشغري *

وكان يمكن أن تستنتج من هذا أن القاراخانيين ينتمون الى الشعب الذى كان يسكن في كاشغر ، أو أنهم بعبارة أخرى — ينتمون الى (ياغما) التي تنتمى بدورها الى التغزغز أو الأويغور ، ولكن محمود الكاشغري لا يشير الى شيء من هذا ولا يذكر (ياغما) الا بوصفهم قوما كانوا يعيشون في أيامه شمالا في وادى نهر ايله (Ili) ويقول الكاشغري ان شعبى (توخسى) و (جيكيل) وشعوبا أخرى كانت تعيش كذلك في وادى نهر ايله ، ويتبين من مخطوطة تومانسكى ومن كتاب

الكرديزى أن هذه الشعوب كانت تسكن الى الجنوب ، فاولهد وهو شعب توخسى كان يسكن شمال حوض نهو جو ، وتانيها وهو شعب جيكييل كان يسكن على الساحل الشمالى لبحيرة ايصيغ ، وفى القرن الحادى عشر كان اسم (جيكييل) يطلق على عدة أقوام تركية بعد أن كان قد نسي . وفى عهد ملكشاه السلجوقى كان هذا الاسم يطلق حسب بعض الروايات على جيش القراخانيين ابان غزو هذا السلطان لبلاد ما وراء النهر .

ويروى الكاشغرى أن الغز كانوا يطلقون كلمة (جيديل) على أقوام الترك المنتشرة من نهر جيحون الى الصين ، وكان يمكن أن يستنتج من هذا أن للأتراك الجيكييل وضعاً سياسياً مهماً فى آسيا الوسطى ، وأن القراخانيين ينتمون اليهم ، ولكننا لا نجد لدى محمود الكشغرى ما يثبت هذا الفرض . ويوضح الكشغرى أهمية كلمة (جيكييل) بالنسبة للغز بأن مدينة (جيكييل) المجاورة لمدينة (أوليا آتا) الحالية والتي يسكنها فرع من فروع جيكييل لها حدود مشتركة مع الغز ، وبأن هؤلاء الغز قد وقفوا مبكراً على أسباب الحضارة بسبب وقوع هذه المدينة الى أقصى الغرب من المدن التركية . وكان فرعان آخران من الجيكييل يعيشان فى قريتين تقعان الى جانب كاشغر والى جوار مدينة (قوباس) الواقعة فى وادى نهر ايله . وقد اشتهرت هذه المدينة فى عهد المغول لأنها كانت عاصمة لجغتاي بن جنكيزخان ول بعض خلفائه ، ويكتفى محمود الكشغرى فى حديثه عن القارلوق بأن يقول انهم بدو وانهم كانوا يسمون - مثل الغز - بالتركمان .

وأما فى مخطوطة تومانسكى وكتاب الكرديزى فيذكر أن القارلوق (ويسمىهم المؤلفون الفرس خلع بتشديد اللام) قوم يعيشون على حدود البلاد الاسلامية ، قريباً من مدينة طراز من ناحية الشرق . وكان بعض مدن تركستان الصينية تابعا كذلك للقارلوق ، ومن بين هذه المدن مدينة بنجول Pentchoul

المسماة بالصينية (وين - صو) والواقعة الى جوار (اوج طورفان) Uch Tourfans الحالية ، وتقول مخطوطة تومانسكى ان هذه المدينة داخلية فى بلاد القارلوق ولكن حاكمها يخضع للتغزغز ، ويقال أيضا ان القيرغيز استولوا عليها فيما بعد ، وتقول نفس المخطوطة ان مدينة كاشغر كانت على حدود بلاد القيرغيز والقارلوق والتغزغز .

وهذا الذى تقوله مخطوطة تومانسكى جدير بالتدقيق فيه يمكن القول بأن هجرة القيرغيز الى الجنوب أى الى الأماكن التى يسكنونها الآن لم تكن بعد القرن العاشر ، ولكن لا الكرديزى ولا الكشغرى ولا غيرهما من المراجع يذكر شيئا عن هذا الموضوع .

وقد ذكر الكشغرى أن جيكييل وياغما نقلوا مساكنهم نحو الشمال ، ولم يقل مثل ذلك عن القارلوق ، ومع هذا فاننا نرى فى عهد جنكيزخان بلادا للقارلوق فى شمال نهر ايله .

والخلاصة أن محمود الكشغرى يذكر ثلاثة الأقوام التى يمكن أن نفرض انتماء أسرة القراخانيين الى أحدها ، ولكنه لا يبين أى هذه الأقوام كان أقرب قرابة لهذه الأسرة . وأما قول الكشغرى ان القارلوق كانوا يسمون مثل الغز تركمان فقول يحتاج الى تدقيق ، فان كلمة تركمان (وقد وردت لأول مرة فى كتب القرن العاشر الميلادى) مازالت مجهولة الأصل والمنشأ ، وعلى أية حال ، فلا يوثق بقول الكشغرى ان أصلها هو الكلمة الفارسية (ترك ما ننده) أى أشباه الترك .

وكل ما يمكن قوله هو أن سمات التركمان مخالفة لسمات سائر الترك ومشابهة لسمات الايرانيين . وقد تأثر القارلوق بالايرانيين أكثر مما تأثر بهم الغز وكانوا - الى أن قبلوا الاسلام - أكثر اتصالا بالمدينة الاسلامية من غيرهم من الترك .

وفي القرن الثاني عشر كان الحاكـم القـراخاني لمدينة بالاساغون الواقعة في (يدى صو) يسمى (توركمـن) ويمكن أن يكون ذلك دليلا على أن هذه الأسرة كانت تنتمي الى قبيلة قارلوق .

وكانت مدينة (بالاساغون) مدينة اسلامية منذ سنة ٩٤٠ ، وذلك حسب رواية لنظام الملك وهو وزير ايراني معاصر لمحمود الكشغري ، وقد أعلن المسلمون الجهاد حين سقطت هذه المدينة في أيدي الكفار ، ويحتمل أن يكون القارلوق قد دخلوا في الاسلام قبل (ياغما) ، وأن خانات الياغما اعتنقوا الاسلام بعد استيلائهم على بلاد القارلوق - التي كانت تشمل نهر وادي جو - حيث توجد فيما يظن مدينة بالاساغون، ولكن كل هذا لا يعدو أن يكون فروضا لا تؤيدها الأسانيد .

ويعد ساتوق بغراخان وهو أول من أسلم من خانات الترك حاكما لكشغر ، وقبره في قرية (آرتيش) شمال كاشغر [وفي المصادر القديمة آرتوج] وقد توفي هذا الخان - بحسب أقدم الروايات عن حياته - في ٣٤٤ / ٩٥٥ - ٩٥٦ وهو تاريخ لا يتفق مع الرواية الخاصة بدخول قوم من الترك في الاسلام في سنة ٩٦٠ ، ويحتمل أن تكون هذه الرواية الأخيرة قد أخذت من كتاب ثابت بن سنان مؤرخ بغداد ، الذي حرر كتابه في ذلك التاريخ (سنة ٩٦٠) ويجب أن يكون التاريخ الذي يذكره أولى بالثقة من التاريخ المذكور في حكاية اسلام ساتوق بغراخان ، حيث يوجد عدم التوافق التاريخي .

وفي نفس القرن العاشر أسلم قسم من الغز ، وهو القسم المقيم عند مصب نهر سيرداريا ، وافتتح خان الغز عهده بالاسلام بأن حرر المدن الاسلامية التي كانت تدفع الجزية للكفار حتى ذلك الوقت ، وقد قبل دخول قومين من الترك في الاسلام وهما القراخانيون والغز بوصفه نصرا للاسلام .

وهكذا صار للولايات الاسلامية الواقعة على الحدود جيران مسلمون في الشمال والشرق ، وظن أن المسلمين وجدوا حلفاء ينضمون اليهم في صراعهم ضد غير المسلمين ، ولكن العكس هو الذي حدث، فان هذين القومين اللذين أسلما وجها أسلحتهما ضد الولايات التي جاءهم منها الاسلام وسنبين أسباب ذلك ونتائجه في المحاضرة القادمة .

المحاضرة الخامسة

آسيا الوسطى فى القرن الحادى عشر

لم يصلنا من المؤرخين المسلمين خبر واحد جدير بالتقّة عن اسلام (بغراخان) خان كاشغر ، ولكننا نرى فى كتب التراجم اسم فقيه عاش بسرايه حوالى سنة ٩٦٠ وهو الفقيه (كلماتى) وفى ذلك التاريخ دخل كثير من الترك فى الاسلام كما تروى تواريخ بغداد ، وفى رواية قديمة باحدى تراجم بغراخان أنه أسلم بناء على أمر نزل عليه من السماء أثناء النوم . ولم تتحدث هذه الرواية عن أى مرشد من البشر ، ولكن رواية أخرى قد تحدثت عنه ، ولم يكن المرشد حسب هذه الرواية الأخيرة فقيها ، بل كان أميرا سامانيا فر والتجأ لدى خاقان الترك ، ويضاف الى ذلك جملة أسماء خيالية وان تكن مأخوذة عن مؤرخ كاشغرى عاش فى القرن الحادى عشر ولم يصل اليها أثره . ومما يلفت النظر فى هذه الرواية نظرة الخاقان الخاصة الى أموال المسلمين وثروتهم ودينهم ، فقد أعجب أولا ببضائع التجار المسلمين وخاصة المنسوجات والحلوى ثم عنى بعد ذلك بعبادة المسلمين . وبدأ يدرس الاسلام .

ولقد رأينا فيما مضى أن المدينة التى أقام فيها الخان الذى اعتنق الاسلام وهو (ساتوق بغراخان) هى مدينة كاشغر ، وقد توطن حفيده بغراخان هارون بن موسى فى بالاساغون ومن هناك حاول فتح ما وراء النهر ، وبعد ذلك كانت مدينتا كاشغر وبالاساغون تذكران معا بوصفهما مدينتين تحت حكم أسرة القراخانيين غالبا ، ومن اللافت أن

مدينة بالاساغون - بصرف النظر عن اهميتها في عهد القراخانيين - لم تذكر في الكتب الاسلامية الا نادرا . ولا يوجد طريق واحد يمكننا من تعيين موقع بالاساغون الجغرافى ، ولم يذكر هذه المدينة من بين جغرافيين القرن العاشر الا المقدسى * وأما مخطوطة (تومانسكى) وكتاب الكرديزى فلم يذكر اسمها ، وربما كان لها اسم آخر قديم كانت تذكر به فى اوصاف المسالك عند جغرافيين القرنين التاسع والعاشر .

وتذكر مدينة (صو - ياب) فى المصادر العربية والصينية بوصفها كبرى المدن بحوض نهو جو ، ولا يذكر محمود الكشغرى هذا الاسم ، ولكنه يذكر قلعة قريبه من بالاساغون اسمها (شو) بناها ملك اسمه (شو) ويفال انه كان معاصرا للاسكندر الأكبر . ويقال أيضا ان ذلك كان قبل أن توجد مدن اسفيجاب = (سيرام) أو طراز أو بالاساغون ومن المعلوم أن حرف ال (ج المعطشة) ينطق (ش) عند القيرغيز ، فاذا أرادوا أن يقولوا (جو) قالوا (شو) وقد سمع رادلوف اسم هذا النهر هكذا : (شو) ومن المحتمل أن الترك الذين كانوا يعيشون بحوض ذلك النهر كانوا ينطقون الكلمة مثل نطق القيرغيز .

وفى الأزمنة الأخيرة لم تكن كلمة (جو) تطلق على النهر وحده ، بل كانت تطلق كذلك على خرائب المدن التى تقع فى واديه والتى لم يبق منها الا برج (بورانا) .

ويحتمل أن تكون كلمة (بورانا) تحريفا للكلمة العربية (منارة) ، وذكر محمود الكشغرى فيما بعد ممر زانبي الواقع بين قوجقار باشى * (وقد كتبت فى النسخة المطبوعة قجنكار وترجمت الى العربية بكلمة الكيش) وبين بالاساغون ، وكانت المصادر الفارسية أول المصادر التى ذكرت كلمة (قوجقار باش) بوصفها اسم مدينة وكان يبحث عنها أول الأمر فى شرق (طالاس) ولكن من المحتمل أن

تكون هذه المدينة واقعة في المجرى الأعلى لنهر قوجقار وهو عبارة عن المجرى الأعلى لنهر جو . أما ممر زانبي الذي يلفت النظر بأن اسمه غير تركي ، فليس إلا الممر المعروف باسم (شمسي) الذي نسج حوله الأتراك المحليون كثيرا من الأساطير .

ولم يحدد بعد أصل كلمة بالاساغون ، وقد كان يظن أن اسم المدينة عبارة عن الكلمة المغولية بالفاسون بمعنى (المدينة) وقد قل عدد أنصار هذه الفكرة .

ويذكر محمود الكشغري أن كلمة (اتاساغون) بمعنى الطيب وهي مركبة من كلمة (آتا) بمعنى (أب) بالتركية والآن ، هل يمكن أن تكون كلمة بالاساغون مركبة من كلمة (بالا) بمعنى (الطفل) ؟ وإذا كانت كذلك فماذا يكون معناها ؟ هذه أيضا مشكلة ، ويسمى الترك مدينة بالاساغون أحيانا (قوزارلوش) وكلمة (أولوش) بمعنى القرية أو المدينة ، وأحيانا (قوزاوردو) وإلى جانب بالاساغون يذكر المقدسي وهو من جغرافيي القرن العاشر مدينة أخرى اسمها (أوردو) وكانت عاصمة لحاكم التركمان في تلك الدواهي . ولا يوضح مصدر الكشغري كلمة (قوز) الداخلة في كل (قوزاوردو) .

ومدينة بالاساغون إحدى المدن التي بناها الصفد ولم يكونوا حتى زمان محمود الكشغري قد تتركوا تماما ، وكان أهالي اسفيجاب وطاراز وبالاساغون يتكلمون الصفدية والتركية .

وكان الصفد في تلك المناطق يسمون - كما ورد بنقوش أورخون - (صوغداق) ويرى المؤلف أن الشعب الصفدي الذي نشأ بين بخارى وسمرقند يسمى صوغداق ، وكان يتخلق بأخلاق الترك ويتزيا بأزيائهم .

وكان المكان الواقع بين اسفيجاب (وفي رواية طاراز) وبين بالاساغون يسمى (أرغو) ، وهو اسم لم نجده في أي

مصدر آخر ، ويقول الكثيرون ان كلمة (أرغون) تطلق على الممر بين الجبلين * ومن الظاهر أن تلك المنطقة سميت ارغو لوقوعها بين سلسلة جبال (ألكساندروفسكى) = (جو - طالاس) وسلسلة جبال (جو - ايله) ولا يذكر هل كان الصغد يوجدون في شرق بالاساغون أو لا يوجدون ، ومهما يكن فقد كان صغد بلاد أرغو مسلمين في زمان الكشغرى ، ولا ندرى هل أسلم هؤلاء قبل الترك أو بعدهم ، ولا نعرف كيف ظهر أثرهم على الترك من ناحية اللسان والمظهر قبل أن يصبحوا هم أنفسهم تركا *

ونستطيع ان نطرح هذه الأسئلة نفسها بخصوص الشنب الذى كان يسكن تركستان الشرقية قبل الترك ، وبخصوص السكان المتحضرين غير الأتراك بذلك الاقليم ، وقد استطعنا أن نعرف من محمود الكشغرى وحده أن هؤلاء السكان كانوا يعتبرون في زمانه مستقلين وكانوا يسمون كنجاك ، وهذا اسم لا يوجد في أى مصدر آخر ، وكانوا في زمانه قد تتركوا ، ولكنهم كانوا يحتفظون ببقايا لغتهم مع بعض فروق في النطق فكانت لهم لذلك خصائص في النطق ، وكانوا الى هذا يستعملون مجموعة من ألفاظ لغتهم القديمة *

الأقاليم السامانية القديمة

وكان الترك الزاحفون في نهاية القرن العاشر لفتح بلاد السامانيين (الواقعة على حدود بلاد الأيرانيين المسلمين) ينطلقون من بالاساغون لا من كشغر (أى أن كاشغر لم تكن قد أصبحت مركزا لأغلبية الأتراك) ويروى أن أول مدينة فتحها (بوغراخان هارون) حفيد ساتوق بغراخان هي مدينة اسفيجاب وكانت بها من غير شك مستعمرة صغيرة تركية أو امارة صغيرة تحكمها أسرة تركية *

وفي سنة ٩٢٢ قام بغراخان هارون بأولى غزواته لبخارى وسمرقند ولكن الأتراك اضطروا - رغم نجاحهم -

الى الشراجه بعد مدة قصيرة الى بالاساغون ، ونفى نفس السنة
 مات بعراخان * ونحن بعد بصع سنين انتقلت كل المناطق
 الواقعة شمال زراعتشان من ايدى السامانيين الى ايدى
 القراخانيين ، وذلك بموجب معاهدة * وفي ١٠٦٦ احتل
 القراخانيون سمرقند وبخارى من جديد * ومع ان اخر
 امراء السامانيين (فى اوائل القرن الحادى عشر) * حاول
 بعث حكم الأسرة السامانية ، فانه فشل ولم يستطع ان يقوض
 دولة الترك التى استقرت فى بلاد ما وراء النهر ، ولم يفلح
 السامانيون فى دفع الجماهير بايران الى الذود عن الدولة
 الايرانية ضد العدو الخارجى حتى لقد أعلن بعض العلماء
 المسلمين أن الحرب لا تكون فرضا الا اذا اراد الكفار الاستيلاء
 على بلد اسلامى ، وكانوا يقولون أيضا ان من العبث الظن بأن
 احوال الأهالى ستكون تحت حكم القراخانيين - وهم مسلمون
 - أسوأ منها تحت حكم السامانيين ، ولذلك فلا داعى لان
 يريق المسلمون دماءهم *

ولم يكن من الممكن تنظيم مقاومة جماعية بين الايرانيين
 والأتراك ببلاد ما وراء النهر ، ولم تكن أواسط آسيا
 (الايرانية) قد حكمت قبل الاسلام بيد ملك قوى ، بل كانت
 السلطة كلها فى ايدى أصحاب الأراضى من الطبقة
 الأرستقراطية ، وكانت البلاد تنقسم الى عدة امارات يحكمها
 أصحاب الأراضى هؤلاء وكان كل واحد منهم يسمى (دهقان)
 وكان بعض هؤلاء الأمراء يفقد الحكم بعض الوقت وكانت
 طبقة الدهاقين هذه الايرانية تؤثر حضاريا على الترك فى
 بعض الأحيان ، حتى لقد كان بعضهم يحمل ألقابا تركية *
 وفى العهد الاسلامى بدأت النزعة لتكوين طبقة أرستقراطية
 تضعف فى ايران وفيما وراء النهر وكان هذا الضعف يضى
 عكسيا مع رقى حياة سكان المدن ، ومع تقوى السلطات
 المونارشية ومع التمرکز البيروقراطى *

وكما حلت الفارسية محل اللهجات المحلية ، فكذلك
 تغذلت نظم الحكم الساسانية فى آسيا الوسطى ، ولذلك كان

السامانيون ينسبون أنفسهم لاسرة الساسانيين . وأيقظت
نزعة الاستبداد عند السامانيين فكرة التمرد عند الطبقة
الأرستقراطية المحلية .

واية هذا أن احدى الروايات تقول أن بغراخان جاء الى
بلاد ما وراء النهر استجابة لدعوة الدهاقند المحليين ، ولدينا
أدلة على أن الدهاقين قد استفادوا بعد أن فتح الترك تلك
البلاد . ويفهم من قول المقدسى أن هؤلاء الدهاقين كانوا
يحتفظون فى أواخر القرن العاشر بـمميزاتهم الاقتصادية فى
إيلاق الواقعة فى حوض نهر (أنكرن) فى جنوب طاشقند ،
ولكن لم تكن لهم أهمية سياسية ، وقد رؤيت عملة مسكوكة
— فى عهد القاراخانيين — باسم دهقان إيلاق وذلك يدل على
أن حقوقهم السياسية كانت قد بعثت .

ولم يضم القاراخانيون (مع استيلائهم على بلاد ما وراء
النهر) فى العواصم القديمة لتلك البلاد ، لا فى بخارى
عاصمة السامانيين ولا فى سمرقند ولكن اتخذوا من مدينة
(أوزكندى) — وهى احدى مدن الحدود القليلة الأهمية
الواقعة الى الشرق من فرغانة — مركزا لهم ، ومن الواضح
أنهم كانوا يعتبرون هذه المدينة المتاخمة لحدود بلادهم
القديمة آمن وأقل خطرا من البلاد الواقعة فى قلب البلاد ،
والواقع أنه بعد بضع سنين من فتح تلك البلاد ظهرت علامات
حركة شعبية موالية للسامانيين . وعلى الرغم من أن هذه
المدينة كانت موجودة بتلك البلاد قبل أن يفتحها الترك، فقد
كان اسمها تركيا وهو (أوزكنت) وقد فسرت هذه الكلمة
اعتباطا بأن معناها (مدينتنا) وقد سميت عاصمة الجزء
الشمالى من بلاد ما وراء النهر — حيث كان العنصر التركى
أكبر أهمية منه فى الجنوب — باسم تركى هو (بينكه ت)
ولكن هذه الكلمة : بينكه ت (بينكت) استبدلت منذ القرن
الحادى عشر كما يحدثنا البيرونى بكلمة (تاشكه نت) بمعنى
(طاش + شهر) أى المدينة العجورية وقد حاول تحليل

استعمال كلمة طاش أى (الحجر) مع ان الحجر لا يكاد يوجد
بذلك المنطقة ولم تنجح هذه المحاولات *

ويذكر محمود الكشغرى أن الشعب هناك يختصر هذه
الكلمة وينطقها (تر كن) ونرى عند الكشغرى اشتقاقا
شعبيا لكلمة سمرقند أيضا فقد قيل ان أصلها يرجع الى
(سه ميزكنت) أى المدينة الغنية *

واذا كان القراخانيون لم يقيموا فى بخارى وسمرقند،
فذلك لا يدل على أنهم تخلوا عن فتح البلاد الغربية التى
أمدتهم بالدين وبالثروة المادية * فقد كان التقدم نحو الغرب
أجدى من الحرب مع غير المسلمين من الترك المقيمين فى
الشمال وفى الشرق ، ومع أنه كان بين المسلمين من ينتظر
وصول الترك ، ويرى فيهم حلفاء وأنصارا ، فان المنصر
الدينى لم يستطع أن يغير اتجاه الفتوحات التركية * ولما كان
الأتراك حديثى العهد بالاسلام فقد كانوا أخلص من الحكام
المسلمين فى الولايات غرب آسيا ، حتى ان رجال الدين فى
القرن العاشر كانوا ينتظرون ظهور الفاتحين المسلمين
السنين فى الشرق ، ليجهزوا على حكم البويهيين الشيعة الذين
استبدوا بكل الأمور فى بغداد * وكان مثل الأتراك فى
المشرق كمثلى البربر فى المغرب ، فكان الأتراك يدافعون عن
رجال الدين فى البلاد التى يسططهم فيها هؤلاء الرجال
بالحكومة ، ويروى محمود الكشغرى حديثا قدسيا معناه :
"ان لى فى الشرق جنودا يسمون الترك فاذا غضبت على قوم
سلطتهم عليهم *

ايران وتوران

وامتاز القراخانيون بأنهم حكام مسلمون متقنون فلم
يشرب منهم أحد الخمر وهكذا كانوا مختلفين عن الغزنويين
الذين ورثوا ملك السامانيين فى حكم البلاد الواقعة جنوب
نهر جيحون ، والذين لم يكونوا - مع أن أصلهم تركى - على
صلة بحركات الشعوب التركية الأخرى *

ويعد محمود الغزنوى صاحب دين ، وقد أعلن الجهاد فى بلاد الهند وتعقب الرافضة فى بلاده ، ولكنه فى حياته الخاصة لم يكن يتحرج من تعاطى المحرمات .

ولم يكن فى نية القراخانيين أن يقفوا عند آموداريا ، بل لقد ساقوا الجنود الى بلاد محمود الغزنوى . ويروى مؤرخ الغزنوى بهذه المناسبة حديثا نبويا عن الترك وصفوا فيه بأنهم ضيقو العيون ، فطس الأنوف ! وهذا الحديث دليل على خطأ القول بأن الترك لا ينتمون فى الأصل الى المغول .

ومن المحتمل أن تكون الحروب ضد الترك قد نظر اليها فى داخل ايران من ناحية التقاليد القومية الايرانية .

وفى اثناء الحروب ضد القراخانيين ظهرت شاهنامه الفردوسى وكانت قد آلفت فى عهد السامانيين ، ولكن اشتهرت فى عهد محمود الغزنوى ، وفى الشاهنامه كثير عن الصراع بين ايران وتوران (أى بلاد الترك) .

وكانت كلمة توران تطلق منذ ظهور الترك أى منذ القرن السادس الميلادى على تركستان (أى بلاد الترك) وعلى الرغم من أن الأبطال الثورانيين الذين اشتركوا فى ذلك الصراع كانت أسماؤهم ايرانية ، فقد صوروا بوصفهم أبطالاً أتراكا .

ولم يتأثر القراخانيون بالاسلام فحسب بل تأثروا أيضا بالملاحم الايرانية ، ولذلك كان من السهل ان تطبق عليهم التقاليد الثورانية القديمة التى لا تمت للأتراك بصلة . وبسبب تأثرهم بالملاحم الايرانية نسبوا أنفسهم لبطل توران الأسطورى أفراسياب وتسموا (بآل أفراسياب) وهو تعبير غير تركى ، ونعلم من محمود الكشغرى أن البطل التركى (آلب تونغنا) كان (كما ورد فى الأغاني التركية) هو أفراسياب بعينه ، وقد نقل محمود الكشغرى بعض هذه الأغاني وأورد ترجمتها العربية كمادته .

ووضع في الترجمة العربية كلمة (أفراسياب) في مكان كلمة (آلب تونغنا) في النص التركي وتنسب الروايات الفارسية الخاصة بأفراسياب كثيرا من بطولاته الى اماكن مختلفة بشرقي تركستان ، فعاصمة أفراسياب مثلا هي مدينة كاشغر .

وكان ينسب الى أفراسياب تأسيس مدينة (بارجوق) وهي عبارة عن مدينة (مارال باشي) الحالية . ويروى ان (بيزن) = (بشرن) الذي تزوج أخت أفراسياب سرا - حسب القصة الفارسية - والذي القى من أجل ذلك في بئر بأمر أفراسياب ثم أنقذه رستم ، يقال ان هذا الشخص قد سجن في (بارجوق) . وقد أدخل (الفردوسي) وسلفه (دقيقى) وهو من رجال العهد الساماني خصائص الأتراك المعاصرين لهم في حكاياتهم عن التورانيين الأسطوريين وهذا أمر طبيعي ، والى تلك الجهة يرجع أسماء بعض المدن وبعض أقوام الترك ، كما يرجع اليها أيضا الخط التركي المعروف باسم (بيغو) . وكلمة (بيغو) في الخط المسمى الآن (خط بيغوى) عبارة عن تحريف لكلمة (يابغو) المذكورة في نقوش أورخون على أنها اسم منتصب تركي ، وقد كان حاكم القارلوق يحمل هذا الاسم .

ولم تكن الحروب ضد الغزنويين مفيدة للقراخانيين ، فقد كانت خسائريهم فادحة في كل هجماتهم التي باءت جميعها بالفشل . واستولى محمود على بعض الولايات في شمال جيحون فقد كان من آماله أن يعترف به حاكما على الشرق وألا يتصل القراخانيون بالخليفة الا بواسطة . ومع هذا فقد كان محمود يعتبر القراخانيين في اتصالاته بهم مساوين له . ويدل على ذلك ما يرويهِ الكرديزي عن مقابلة محمود الغزنوي في جنوبي سمرقند مع قدرخان يوسف بن بغراخان ملك كاشغر سنة ١٠٢٥ .

تركستان الشرقية

وتتحدث المصادر التاريخية عن أحد فتوح القراخانيين في شرقي تركستان ، وهو فتح ختن الذي قام به ودرخان يوسف الذي أشير إليه أنفا ، والمتوفى سنة ١٠٣٢ . ولم ير الاسلام حسب آخر معلوماتنا ينشر في تركستان بقوة السلاح الا في هذه الموقعة ، ذلك أن الأتراك المسلمين فتحوا مدينة — كانت البوذية قد تطورت بها وتكاملت — وفي إحدى روايات الكرديزي عن ختن قبل هذا الفتح اشارة الى أنه كانت بها كنيسة للنصارى وبعض المقابر للمسلمين ، دلالة على أن المسلمين كانوا هناك قبل الفتح مع وجود البوذية .

ومما يلفت النظر أن حكام الأتراك الكفار كانوا — كمثال القراخانيين المسلمين — يتصلون بمحمود الغزنوى فيروى الكرديزي أن خانين تركيين أرسلوا السفراء في سنة ١٠٢٦ هـ يطلبان الاصحار الى الأسرة الغزنوية (ومع أن ألقاب هذين الخانين مذكورة في مخطوطة الكرديزي الوحيدة الموجودة بكمبردج ، والتي نقلت عنها نسخة أكسفورد ، فإن هذه لم يمكن قراءتها) .

وأجاب محمود الغزنوى : ان المسلمين لا يزوجون بناتهم للمشركين فاذا أسلم الخانان قبلنا رغبتهما . فهل كان هذان الخانان منسويين الى عائلة القراخانيين ، أى هل كان من القراخانيين من لم يقبل الاسلام بعد ؟ وأين كانت حكومة كل منهما ؟ لا تذكر المخطوطة شيئاً عن هذا مع الأسف .

والمؤلف الوحيد الذى يذكر هذه السفارة بعد الكرديزي هو جمال الدين ابن المهنا الذى كتب في القرن الرابع عشر قاموسا فارسيا تركيا مغوليا . ولكن ليست بكتابه تفصيلات عن هذا الموضوع ، وبين سنتي ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ نشر المستشرق الروسى ميليورانسكى القسمين الأخيرين من هذا

الكتاب مع ترجمتهما الروسية وذلك مع بحث لغوى فى
مقدمة الكتاب

وبين سنتى ١٣٣٠ ، ١٣٤٠ نشر كليسى رفعت افندى
الكتاب كاملا ، وحصل هذا الناشر التركى على معلومات لم
تكن بين يدى الناشر الروسى فاستطاع أن يحدد اسم المؤلف *
ولكن النقط التى تهمنا مشطوبة مع الأسف فى النشرة
التركية ولا نستطيع قراءتها الا فى النسخة التى نشرها
الروسى *

ويذكر ابن المهنا أثناء حديثه عن تقويم (الاثنى عشر
حيوانا) نقلا عن (طبائع الحيوان) لشرف الزمان المروزى
(وهو كتاب لم يصلنا) ان رسالة وردت على محمود الغزنوى
من صاحب الصين وصاحب الترك وتاريخها الشهر الخامس
من عام الفارة ، (وتذكر بعد ذلك أسماء السنوات الأخرى :
سنة الفهد Parse ، وسنة النمر أو سنة الأسد (صلان يلى) ولم
يستطع ميليورانسكى أن يفهم الكلمة الأخيرة : (صلان يلى) ،
ومعنى هذا أنه لا توجد معلومات عن سفارة خانات الترك
المجوس فى هذا المصدر الجديد ، بل انه يضيف الى الموضوع
مشكلة تاريخية فقط ، وتاريخ ورود السفارة عند الكردىزى
هو سنة (٤١٧) = (١٠٢٦) وعند الطبيب المروزى هو سنة
(٤١٨ = ١٠٢٧) فأما عام الفارة فيصادف اما ١٠٢٤ واما
١٠٣٦ *

ويتفرد محمود الكشغرى بامدادنا بالمعلومات عن حدود
بلاد المسلمين فى شرق تركستان زمان القراخانيين *

ومعلوم أن المدن المتحضرة فى شرق تركستان قد خططت
بمعاذاة طريقين كبيرين الأول شمالى يؤدى الى كوجه Koutcha
والآخر جنوبى يؤدى الى لوب نور Lob-Nor على مصب نهر
تارىم مارايختن * ويسمى تارىم عند محمود الكشغرى
(أوسمى تارىم) ، ويقول فى تعريفه انه نهر ببلاد الاسلام
يصب فى مملكة الأويغور حيث يضيع فى الرمال ، وفى

القرن الحادى عشر لم يكن الاسلام قد وصل الى طورفان ولوب نور وكانت حدوده الشمالية مدينتى (كوجا) و (بوكور) ومن الجنوب مدينة (جرجه ن) ولا نعلم اكان يوجد خوانين غير خان كاشغر فى الاراضى الواقعة بين هذه البلاد وكاشغر أم لا . والأرجح أن البلاد الواقعة الى الشرق كانت تابعة لخان الأويغور الملقب (كول بيلكا خان) ولكن تذكر معه عبارة (كان يسمى) دلالة على أن هذا اللقب يرجع الى حقبة مضت .

ولا يذكر المؤلف (أى محمود الكشغرى) اللقب الذى كان يحمله الخان فى عهده ، ونصادف فى اللقب الذى كان يحمله أمراء القارلوق وهو (كول ايركين Kull-erkin) نفس كلمة (كول) الموجودة فى اسم (كول تكين) بطل نقوش أورخون . ولكن المؤلف لا يعرف المعنى القديم لكلمة (كول) فقربها من كلمة (كول) بمعنى بحيرة واضطر لذلك الى أن يفسر اللقب تفسيراً متكلفاً فذهب الى أن (كول) معناها أن علم الخان كان واسعاً كالبحر ، ويذكر الكردىزى هذا اللقب بالراء (كورتكين) وعلى كل حال فان (كور) و (كول) صورتان لكلمة واحدة نشأتا مما يحدث عادة من أن تنقلب الراء لاما أو العكس ، ومع أن محمود الكشغرى يعرف المعنى القديم لكلمة (كور) ويفسر كلمة (كور آر) بمعنى (الرجل الثابت) فانه لم يفتن الى أن كلمة (كول) فى اللقبين (كول بيلكا) و (كول ايركين) هى بعينها كلمة (كور) محرفة .

ونستطيع أن نستنتج من احدى اشاراته أن لديه رواية عن فتح ختن ، ذلك أنه أورد لقب (جنكشى) وفى رواية أن المسلمين فتحوا ختن بسبب أمير يحمل هذا اللقب .

وقد كان بعض أولاد جنكيز يحمل هذا اللقب فى عهد المغول ، وكثير من الأشعار التى أوردها الكشغرى فى كتابه له علاقة بما كان من حروب بين المسلمين والأويغور ، ويصور

الأويغوريون في هذه الأشعار مرتبطين بالأصنام البوذية التي يسمى واحدها (بورخان) بالبوذية ، ويذكر هذا (البورخان) دائما مع اسم راهب بوذي هو (توين Toin) ومعلوم أن جزءا من رهبان البوذية يسمون حتى الآن «توين» ويقولون أن أصل هذه الكلمة صيني ، ولابد أن يكون هذا الاسم قد انتقل هو وكلمة نوم Nom التي تطلق على كتبهم المقدسة من الأويغور الى المغول ، وذلك لأنه مذكور منذ القرن الثالث عشر في كتاب الجويني * ويقول محمود الكشغري أن كلمة نوم Nom تطلق على الكتب الدينية جميعها ، ومنها كتب الدين الاسلامي * ولا يذكر الكشغري شيئا يدل على وجود المانوية أو المسيحية عند الأويغور ، ولكن يستنتج من ذكر كلمة (به جه ك) وجود بعض المسيحيين ، ذلك بأن هذه الكلمة كانت تطلق على (صوم النصاري) ، ومما يلفت النظر استعمال هذه الكلمة في النصوص المانوية ، بمعنى الصوم أيضا * .

ثم أطلق القراخانيون المسلمون كلمة (تات) على من يبلادهم من الايرانيين المسلمين ومن الأويغور المشركين وهذا أيضا لافت ! ويظل أصل كلمة (تات) موضع سؤال * ولهذه الكلمة الآن مدلول اتنوغرافي ، فهي تطلق في قافقاسيا على اليهود الذين يتكلمون لغة مركبة من الايرانية والتركية وهي تستعمل أيضا عند التركمان في آسيا الوسطى ، فهم يطلقونها على من تحولوا الى حياة الاقامة في الحضر ومن جملتهم أهل خيوه ، ولابد أنها كانت تستعمل بنفس المعنى في القرن الحادي عشر والا لصعب تعليل اطلاقها على الايرانيين وعلى الأتراك الأويغور المتحضرين * .

ولدى الكشغري معلومات صحيحة كثيرة عن مدن الأويغور ، وقد ذكرت مدينة (قوجو) في نقوش أورخون ، وفي النصوص الأويغورية وهي عبارة عن (قاراخوجا) الحالية ، بالقرب من طورفان حيث توجد خرائب (ايدي

قوت) أى مدينة (ايدى قوت) حاكم الأويغور . وكانت هذه المدينة عاصمة الجزء الجنوبي من بلاد الأويغور .

وعند الكشغرى ان كلمة (قوجو) [بالجيم المعطشة] أو (قوجو) [بالجيم المصرية] أو (قجو) تستعمل اسما لمدينة كما تستعمل كذلك اسما لمنطقة بأكملها ، ويذكر بعد ذلك أسماء ثلاث مدن هى (سوطى) و (جانبالق) و (ياكى بالق) .

وفى كتاب الكشغرى دليل على أن الأويغور بعد ثلاثمائة سنة من اعتناق المانوية لم يفقدوا روحهم العسكرى ، وذلك أن الكشغرى يقرر أن الأويغور كانوا أمهر بالنسبة لغيرهم من الكفار فى الرمي بالسهام ، ونعرف من الكشغرى الأسماء التى كان يطلقها الأويغور على المسلمين ، فقد كانوا يستعملون كلمة (جوماق) بمعنى (مسلم) .

ومعلوم أن هذه الكلمة (جوماق) تطلق فى جنوب روسيا على صغار التجار الذين يتجولون فى القرى ، يحملون بضائعهم وأمتعتهم على عربات .

ولم يعرف أصل هذه الكلمة حتى الآن ، ولكن يحكم — من جرسها — بأنها تركية ، والغالب أن المسلمين كانوا يقومون فى مناطق الأويغور (كما كانوا يقومون فى غيرها) بأهم الأعمال التجارية .

والبيانات التى يعطيها المؤلف عن الأقوام التى تقطن فى الجزء الشمالى من شرق تركستان قليلة التفصيلات ، ولقد رأينا من قبل كيف يمكن استنادا الى كتاب الكشغرى أن نعين حدود انتشار الاسلام فى الشرق ، ولكن الروايات الخاصة باسلام الترك فى الشمال ، والشمال الشرقى يعوزها الوضوح . ويبدو أن جغرافىي القرن العاشر لم يعرفوا جيدا الا الجزء الجنوبى من ولاية (يدى صو) ويذكر نهر (ايله) فى مخطوطة تومانسكى ، ولكن الأمر يختلط على المؤلف فيقول ان هذا النهر يصب فى بحيرة ايصيغ . ذلك ، بينما

يهتم محمود الكشغري ببهر ايله ويربط بينه وبين ظهور تقويم الاثنى عشر حيوانا المستعمل عند الترك فيروى اسطورة خلاصتها أن ملك الترك خرج للصيد فجرت الحيوانات التي تتبعها وألقت بنفسها في نهر (ايله) وعبرته بالترتيب ، وكان هذا الترتيب فيما بعد هو ترتيب الحيوانات في ذلك التقويم .

محمود الكشغري

وحرر محمود الكشغري كتابه في بغداد ، ومع أنه يحدد تاريخ شروعه في الكتابة بالمحرم سنة ٤٦٦ هـ (سبتمبر سنة ١٠٧٤) فقد شك في هذا التاريخ لسببين : أول ان محمود الكشغري يذكر الخليفة المقتدى الذي اعلى العرش في سنة ٤٦٧ هـ = (١٠٧٥) ، والثاني ذكره عام العبدان (بيلان يلى) الذي يوافق سنة ١٠٧٧ ، ومذكور في آخر الكتاب قيد آخر يشير الى أنه قد بدىء في تأليفه في جمادى الأولى سنة ٤٦٤ هـ = (١٠٧٢ يناير - فبراير) وأنه قد صحح وعدل ونسخ أربع مرات فأنتهى منه في جمادى الآخرة سنة ٤٦١ هـ أى في فبراير سنة ١٠٧٤ وهكذا يكون الفراغ من هذا الكتاب سابقا على جلوس الخليفة المقتدى الذي قدم له الكتاب .

ومما يزيد حل هذه المتناقضات صعوبة ما ذكره ناسخ هذه المنظومة (وهى جيدة وقديمة) فقد ذكر تاريخنا هو يوم الاثنين ٢٧ شوال = (أغسطس سنة ١٠٦٦) ، وذكر أنها منقولة عن النسخة التى كتبها المؤلف بيده . ومع هذا فانا لا نشك فى أن المؤلف قد حرر هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر .

ولا يذكر المؤلف سبب هجرته الى بغداد ، ولكننا نعلم مما ذكر من البيانات أنه طاف بصحارى الترك ، وأنه كان من أكثر الناس معرفة بلغاتهم ، فقد كان يعرف التركية والتركمانية والغزية والجبكية والنعمانية والقرقزية .

ولا تدل عبارة الكشفغرى على أى اللغتين كانت لغته الأصلية العربية أم التركية . فالكتاب يدل على علم كامل باللغة العربية وان كانت به بعض النقط التى تدل على ان أصله تركى ، وهو يذكر نفسه أحيانا بضمير الغائب ، وأحيانا يكتفى بذكر اسم (محمود) مع اضافة عبارة مؤلف هذا الكتاب ، ويبدو ألا داعى للشك فى أن المراد (بمحمود) اذا ذكر فى الكتاب هو المؤلف نفسه ولا شك أنه يتحدث عن نفسه فى هذه العبارة : (ونشأ أبو محمود فى مدينة بارسغان أو بارسغان بجوار (بحيرة ايسيق) وقد حدد فيما قبل مثن بارسغان أو بارسغان) . وينقل الكرديزى أسطورة تقول ان الاسكندر اثناء حملته على الصين أسكن العساكر الأيرانيين الذين أخذهم من ايران ، بذلك المكان ، ومع أنه وعدهم باعادتهم الى ايران بعد عودته من الصين فانه لم يستطع الرفاء بوعده ، لأنه رجع بطريق الهند ويقول الكرديزى ان كلمة بارسغان معناها (أمير الفرس) وأنها مكونة من الكلمتين (بارس) و (خان) .

وينقل الكشفغرى وجهين آخرين لتسمية المسكان احدىهما ان (بارسغان) اسم لابن أفراسياب ، والثانى ان هذه اللمحة اسم لسايس ملك الأويغور . وهذا الوجه الثانى مهم اذ يمكن أن يستنتج منه أن حكم الأويغور قد امتد فى وقت ما الى الغرب حتى بحيرة ايسيق ، وأن عهدهم لم يكن قد نسى تماما فى القرن الحادى عشر .

ولكن يمكن القول - استنادا الى موضع آخر من تنساب الكشفغرى - بأنه لم يكن ينتمى فقط الى الترك بل كان من أسرة القراخانيين ، فهو يقول فى صحيفة ١٠٢ من كتابه : « قال محمود صاحب الكتاب : ولهذا المعنى كان آباؤنا الزمراء يسمون (خمير) لأن الغزية ما قدروا أن يقولوا (أمير) فقلبوا الألف خاء فقالوا خمير » ثم يقول : « وأبونا هو الذى فتح ديار الترك من أولاد السامانية » ولكن هذه العبارة غير

صادرة من المؤلف بل يرويها نقلا عن آخر ذكره قبل ذلك وهو نظام الدين اسرافيل طغان تكين بن محمد جقر حلقا خان عن أبيه . ويحتمل أن تكون هذه العبارة خاصة بنظام الدين هذا ، ويذكر المؤلف بعد ذلك أنه كان بصحبته أمير اسمه (قمق) .

الحدود الشمالية

ويغلب أن تكون قبائل توخسى وياغما وجينيس ، التى تقطن وادى نهر (ايله) مسلمة وهذا تكون المواضع الأولى للمسلمين واقعه شمال نهر (ايله) وفى نطاق بحيرة بالخاش ، وتدر بحيرة بالخاش باسم (تريك دول) .

وتدل هذه الكلمة فى لغة الغز على الوفرة والغزارة ، ومعنى هذا أن البحيرة سميت كذلك لأنها أكبر البحيرات فى المنطقة ، ولا يذكر أن نهر ايله يصب فى بحيرة بالخاش ، وبالقرب من البحيرة توجد مدينة (ايكى أوكوز) أى (النهران) ويقال انها سميت كذلك لوقوعها بين نهري (ايله) ويافينج Yafintch ولكن نهر يافنج يقع بحسب الخريطة (الملحقه بكتاب محمود الكشغرى) جنوب نهر ايله ، وتقع ايلدى (أوكوز) شمال نهر ايله ، وفى سنة ١٢٥٣ م الرحلة النصرانى روبرق بمدينة Equius اثناء رحلته شمال نهر ايله ، ويحتمل أن تكون هذه المدينة هى مدينة ايكى أوكوز نكتبها روبرق بحسب النطق اللاتينى .

والى جانب مدينة (ايكى أوكوز) تقع مدينة (قاملا نجو) والظاهر أنه يجب البحث عن مدينة (كومى - تالاس) فى نفس هذا المكان ، أى فى حدود البلاد الاسلامية . ومع أن هذه المدينة تقع على خريطة الكشغرى فى شمال نهر (ايله) ، فانه يذكر فى مكان آخر أنها تقع على حدود بلاد الأويغور ، ويحتمل كثيرا أن تكون واقعة شمال نهر ايله قريبا من مدينة ايكى أوكوز .

وأبعد من ذلك نحو الشمال كان يجرى نهر (يامار)
ويحتمل كثيرا أن يكون هذا النهر هو نهر (ثه ميل) الذى
يجرى حيث تقع حاليا مدينة (جو كوجاك) . ويقال إن قبيلة
ياباقو تعيش هناك وإذا كانت كلمة (ياباقو) اسما لنهر
يجرى فى فرغانة الى جوار (أوزكند) ، فإن ذلك حتما من
باب التصادف .

وقد تحدث محمود الكشغرى فى كتابه عن موقعة حربية
واحدة بين المسلمين والكفار ، وترتبط هذه الحادثة باسم
(ياباقو) وكان عدد عساكر المسلمين فى تلك الواقعة اربعين
آلفا تحت قيادة (أرسلان تكين) وعدد الكفار سبعمائة ألف
بقيادة (بوكه بودراج Bugué-Boudratch) وانتهت بالنصر
للمسلمين .

وقد عبر المسلمون أثناء انطلاقهم الى تلك الموقعة نهر
(ايله) فنهر (يامار) (ثه ميل) واشترك (الأتراك الباسمل)
ضد المسلمين فى هذه الموقعة .

وتحدث محمود الكشغرى نفسه مع واحد ممن اشتركوا
فى هذه الحرب ، أى أننا نستطيع أن نستنتج أن الموقعة كانت
فى وقت قريب من وقت تأليف الكتاب .

ومهما يكن فقد كثرت الأساطير عن هذه المعركة ، ومن
ذلك مثلا عدد الكفار الذين اشتركوا فيها ، فهو عدد أسطورى
اذ أن ظروف الحياة البدوية تجعل من المستحيل أن يتكون
جيش من سبعمائة ألف . ولكننا نصادف أمثال هذه الأرقام
الخيالية كثيرا فى الحديث عن حروب الهندو ، ومن بينها
حروب جينگيزخان .

ويذكر محمود الكشغرى (ياباقو) بين الأقاليم غير
الخالصة التركية ، ولكنه يذكر أيضا أن هذه الأقاليم كانت
تعرف اللغة التركية الى جانب لغاتهم ، ثم يدخل الكشغرى
(الباسمل) كذلك فى جملة هذه الأقاليم ومذكور فى نقوش

أورخون أن (باسميل) هؤلاء كانوا يعيشون الى جوار مدينة (بش باليق) فى المكان الذى سكنه الأويغور فيما بعد بشرقى تركستان * وقد وردت كلمة باسميل فى النسخة المطبوعة من ديوان لغات الترك بالياء (يسميل) والظن أن هذا الخطأ غير موجود فى النسخة الأصلية لمحمود الكشغرى ، ففي ص ٣٣٩ من الجزء الأول حيث رتبت بعض الأسماء ترتيبا أبجديا أدرجت كلمة باسميل مع الكلمات المبدوءة بالياء ، وقد وردت قبلها كلمة (بسبل) وبعدها كلمة (بشغل) *

المغول والصين

ومن بين الأقوام التى ذكرت بوصفها غير تركية خالصة ، قوم التتار ومن المعروف أن المغول كانوا يسمون أنفسهم فيما بعد بهذا الاسم الوارد فى نقوش أورخون ، وبعض الأقوام التى يذكرها الكشغرى على أنها لم تكن خالصة التركية كانت مغولية ، ومن بين هذه الأقوام قوم ياباقو * فإذا صح ذلك كان معناه أن بعض المغول اتجهوا منذ زمان المؤلف الى المغرب ، حتى وصلوا الى مناطق يسكن الترك فى جميع نواحيها *

وكما كان القيرغيز القاطنون فى الحوض الأعلى لنهر ينيسى يذكرون من قديم بوصفهم من الترك الخالص ، فقد كانوا يذكرون بنفس هذه الصفة فى زمان محمود الكشغرى ، وتؤكد نصوص الكشغرى أن المغول طردوا الترك من منغوليا ، وبحسب رواية الكشغرى تقع جبال (أوتوكهن) التى كانت المعسكر الرئيسى لخان الترك أثناء كتابة نقوش أورخون ، فى صحراء التتار قرب بلاد الأويغور ، وآخر الأقوام التركية التى حكمت بمنغوليا كما تروى المصادر الصينية هم القيرغيز الذين طردوا الأويغور سنة ٨٤٠ ، والظاهر أن طرد الترك من منغوليا مرتبط بالقوة التى وصل اليها قوم من المغول فى بداية القرن العاشر ، وهم الخطاي ، وقد أقام هؤلاء الخطاي دولة قوية فى شمال الصين باسم (خطاي) ومع أن الأوربيين

لا يستعملون هذه الكلمة فان المغول والروس وبعض المسلمين مازالوا يستعملونها مرادفة لكلمة الصين ، وبعد ان نزع الترك الى الغرب ، أخذوا عن العرب كلمة الصين (لما كانت ج الفارسية تتحول غالبا الى صاد) في العربية ، فقد نطق العرب (صين) بدلا من (جين) وحمل الأتراك معهم من الشرق اسم تابغاج (Tabghatch) وهو اسم وارد بنقوش أورخون ، واستعملوا كلمة (الصين) للدلالة على شمال الصين وكلمة (ماصين) للدلالة على جنوبها ، وكانت هاتان العبارتان تستعملان في أيام محمود الكشغري ولكنهم قضروا كلمة (تابغاج) (تاوغاج عند الكشغري) للدلالة على (جنوب الصين) الذي كان لا يزال تحت حكم أسرة صينية قومية (هي أسرة سونج - ضو Song sun) .

وبالإضافة الى (تاوغاج) أو (ماصين) استعملت كلمة (يوقارى صين) : وسميت الصين أو الصين الوسطى باسم الأسرة الحاكمة هناك وهي (خيتاي) ، وكانت كاشغر عبارة عن جنوب الصين .

ولابد أن كلمة (تاوغاج) كانت تستعمل في معان أخرى ، وقد كانت كل آثار الحضارة القديمة في آسيا الوسطى تنسب (في زمان محمود الكشغري كما هو الحال في العصور المتأخرة) الى الصين .

ويرى محمود الكشغري أن كلمة (تاوغاج) بمعنى الكلمة العربية (عاذى) نسبة الى عاد (ويقال لكل شيء من المصنوعات اذا كان قديما عظيما) (تفغاج اذى) كما يقال في العربية شيء عاذى) . وعلى هذا النحو يفسر محمود الكشغري لقب (تفغاج خان) الذي يستعمله القراخانيون فيقول انه معناه (عظيم الملك وقديمه) ولا بد أن يكون هذا التفسير خطأ ، فان هذا اللقب من مخلفات الاتصالات القديمة بين الترك والصين ، وهو يدل في أكبر الظن على أن الترك كانوا يتخذون من الدولة الصينية مثالا أعلى ، وكان نفس هذا اللقب يضرب على السكة القراخانية

مترجما للعربية (ملك الصين) . ويذكر محمود الكشغري كذلك التانكوت Tangout الذين فتحوا في سنة ١٠٢٠ (غانجواو) Kan Tcheou وهي بلاد الأويغور .

وكانت توجد بين الصين وبلاد التانكوت مدينة تحمل اسما تركيا عجيبا هو (قاتون سیتی) (قادنيك جورتی) أي (صورة المرأة) ، ولم يوضح هذا الاسم ولم يعرف هل تنسب المدينة الى صورة خاصة أم هل تنسب الى تمثال ، ولكن الكشغري يذكر جريا قامت بين تانكوت وبين أهالي قاتيون سیتی وانتهت غالبا بهزيمة التانكوت .

وتبدل المعلومات القصيرة التي يذكرها عن المدن المختلفة على أنه كان يملك كتبيا تاريخية كثيرة لا توجد الآن بين أيدينا . ولو وجدت لكانت كبيرة القيمة ، فهو يذكر مثيلا مدينة « صيغون صامور » ويروي أن بغراخان قد مات بتلك المدينة مسموما ، ولكن لا يذكر أي بغراخان ؟ ثم يتحدث عن مدينة (اينج كند) وهي من مدن أصحاب المقنع ، ولكنها كانت خربة ، وربما كان خرابها على أيدي عساكر العرب وهي تستأصل أتباع المقنع ، ولكن المراجع التي تتحدث عن مذهب المقنع ، وعن اتفاهة مع الترك ، وعن جروبه ضيد عساكر الخليفة لا تذكر اسم هذه المدينة ، وفي ثبايا المواد اللغوية التي جمعها محمود الكشغري توجد نماذج للأدب الشعبي ولأدب الصنعة ، كما توجد كثير من التعبيرات المدنية ، وتدل هذه النماذج وتلك التعبيرات على أن الترك في القرن الحادي عشر لم يكونوا قد تأثروا تماما بالمدينة الإسلامية وبخاصة الإيرانية ، وتدل أيضا على مدى تطور حياة الترك المادية والمعنوية قبل أن تضمحل ثقافتهم القومية . ولا يمكن أن نتناول كل هذه الموضوعات في محاضراتنا ، ولكن بعد أن أشرنا الى ما أورد محمود الكشغري من معلومات عن الغز وسائر أترك الغرب ، فسنحاول في المحاضرات القادمة توضيح بعض هذه المعلومات ، واننا نحتاج الى البقاء نظرة عامة على الغز وسائر أترك الغرب .

المحاضرة اسماوية

ظهور الت.

يرجع ظهور الترك في البلاد الواقعة جنوب نهر جيحون الى زمن أبعد من استيلائهم العسكري على تلك البلاد في القرون العاشر، ويحتمل أن تكون ذراري هؤلاء الترك مازالت تحيا بهذه البلاد حتى الآن، وفي القرون السابعة التقى غزاة العرب في بدخشان بالأتراك (القارلوق) ويعيش الآن في بدخشان فرع من الأوزبك هو فرع القارلوق، ويمكن أن نستنتج من هذا أن الأوزبك حينما غزوا بدخشان في القرن السادس عشر، اندمج فيهم الأتراك الذين كانوا يعيشون هناك، ولا يذكر جغرافيو العرب من الترك المقيمين جنوب جيحون - وذلك لهذا الأشخاص والفرق التي كانت تكون حرس الخلفاء والأمراء - الأ (الخالاج) - هؤلاء الخالاج يعيشون حتى الآن بين الأتراك القاطنين إيران ويسمى بهم الأتراك (قالاج) .

ويذكر الكشغري أن أصل هذه الكلمة فعلا أمر هما (قال) و (أج) من المصدرين (قالق) و (أجمق) وهذا الاشتقاق الشعبي موجود كذلك في كتاب رشيد الدين . وينسب الكشغري (الخالاج) أو (القالاج) إلى الغز، ويذكر اثنتين وعشرين قبيلة من قبائل الغز على حين يذكر رشيد الدين أربعة وعشرين، ولكنه يذكر أنهم كانوا يتكونون من ٢٤ قبيلة ثم انفصلت قبيلتان .

ومع أن محمود الكشغري يقول ان قسما من الخالاج فقد لغته وذاب في الشعب الأفغاني وأن القبيلة الأفغانية (كيلزاي - غلجاي) من سلالة هذا القسم من الخالاج، فقد

وردت الاعتراضات على هذا القول وخاصة من ناحية صوتيات اللغة الأفغانية ، وفي الهند - حيث لعب الخبالاج في وقت ما دورا سياسيا مهما - تغير اسمهم فأصبح (خيلج) ، وما زال بعض (الخالاج) بايران يتكلمون اللغة التركية ، ويحتمل أن يرجع ذلك الى التحاقهم بالغز وهم أكثر منهم نفرا .

ولا وجه للمشابهة بين النشاط الحربي للغز وبين النشاط الحربي للقراخانيين ، فقد كانت للقراخانيين قبل استيلائهم على بلاد السامانيين دولة ضموا اليها كل البلاد التي فتحوها . أما الغز فقد خرجوا من ديارهم ليؤسسوا لأنفسهم دولة في البلاد التي يفتحونها ، ومن هذه البلاد أخذوا يزحفون رويدا رويدا على موطنهم الأصلي ليستردوه بالفتح .

السلاجقة

وكما لم يكن للقارلوق خان فذلك لم يكن للغز ، ولكن رئيس الأسرة الغزية التي حكمت مؤخرا في ايران كان يسمى (كما يذكر محمود الكشغري ومصادر أخرى) باسم (سوباشي) أي قائد الجيش . وقد نطق العلماء الأوروبيون اسم هذا القائد هكذا (سه لجوق) (Seldjuk) وهو تلفظ يطابق الاملاء العربي ، ولكنه يجافي قوانين الصوتيات في اللغة التركية وقد احتفظ به العلماء الأوروبيون ، والآن يحاول بعض العلماء بصوتيات اللغة التركية تصحيح هذا النطق فهم يكتبونه أحيانا (سالجوق) أو (سالجيق) ولكن النطق الصحيح لهذه الكلمة كما يتضح من النصوص التركية هو (سالجوك) Seltchuik ، ذلك أننا نجد هذا التلفظ الأخير في كتاب محمود الكشغري وفي كتاب (دده قورقورد) وهو قصة بطولية قديمة ، وفي مصادر أخرى من بينها منظومة مجهول صاحبها كتبت سنة ٩٥٠ في عهد السلطان سليمان وتوجد هذه المنظومة مخطوطة بتاريخ سنة ٩٥٤ في مكتبة جامعة استانبول بين كتب خالص أفندي ورقمها ٧٣٤٠ .

وأما عن نشاط سلجوق هذا فانا نعلم أنه أسلم وخلص سكان الوادى الأدنى لنهر سيحون من الجزية التى كانوا يدفعونها للغز .

وكان يمكن أن نستنتج من هذا أن العلاقات كانت وثيقة بين المسلمين الذين يسكنون حوض سيحون وبين ذرية سلجوق، ولكننا نجد فى مدينة (جند) ، فى القرن الحادى عشر ، حاكما يحمل اسما اسلاميا هو (شاه ملك) يقال ان عداوته لأبناء سلجوق كانت مريرة وقديمة . ومن المعلوم أن الغز أقاموا بمنغوليا فى القرن السادس دولة بدوية كبرى لم ير مثلها من قبل (ولم يفقها سعة فيما بعد إلا دولة المغول) . وحتى بعد سقوط هذه الدولة استطاعوا غير مرة أن يتخلصوا من سيادة الصينيين وأن يحيوا دولتهم من جديد ، ولكنهم بعد أن هاجروا الى الغرب فقدوا أسس تشكيلات الدولة التى أقاموها فى منغوليا ، ويمكن القول بأن هؤلاء الغز - حتى وهم فى الشرق - لم يكونوا يعلمون شيئا عن أسس نظم الدولة ، ولكن الخان كان يفرضها عليهم بالقوة ، وقد كان الخان (ويسمى فى نقوش أورخون خاقان) اذا ذكر الطقوز أوغوز أو الغز فقط ، ذكرهم بوصفهم أعداء وأصحاب فتن أكثر مما ذكرهم بوصفهم شعبه ، وفى الصحارى الواقعة شرق بحر قزوين لم يستطع الغز ولا ذراريهم وهم التركمان أن يحققوا الوحدة السياسية بل كانت الحروب مستمرة بينهم، وقد قامت بعض بطون الغز - كل على حدة - بفتوحات واسعة وبهجرات الى بلاد بعيدة ، ولكن لم تكن من بين هذه الحركات جميعها حركة واحدة يمكن وصفها بالشمول وبأنها حركة متحدة .

ومن العجيب أن هؤلاء الغز الذين لم يستطيعوا فى أى وقت الوصول الى الوحدة ، قد وفقوا فى تأسيس أقوى الدول التركية وأطولها عمرا ، ومن بينها تركيا الحالية .

البجناك

وأقدم هجرة عرفها التاريخ للاتراك الغز في اتجاء الغرب ، بعد انتهاء الدولة التركية التي حكمت من القرن السادس الى القرن الثامن ، هي هجرة البجناك في نهاية القرن التاسع ، وقد ذكر الامبراطور البيزنطي قسطنطين ريفروجنيت Constantin Porphyrogénète أن هذه الهجرة بقيت عهده بخمسين سنة ، ومن المعروف أنه كتب ذلك في منتصف القرن العاشر . ويدرج رشيد الدين ومحمود الكشغري البجناك بين فروع الغز ، وقد ورد اسم البجناك في كتب الحوليات الروسية بصورة (به نجه نه ك) ولم يكن نطقه على هذا النحو مأخوذا من التطق اليوناني ، لأن اليوناني يكتبون الكلمة بصورة أخرى هي Patzinak (بازتيناك) والغالب أن الروس كتبوا هذا الاسم طبقا للنطق الذي سمعوه هم أنفسهم ، وقد ظن في أول الأمر أن هذه الكلمة هي كلمة (باجاناك) التي ترد أحيانا بمعنى (باجاناق) أي زوج الأخت ولكن تبين ألا أصل لهذه الصيغة لأن الكلمة التي ضبطها محمود الكشغري بوضوح هي (به نجه نه ك) .

ولا بد أن يكون البجناك قد انفصلوا قبل سائر بطون الغز حتى ان الجغرافيين العرب في القرن التاسع ، أي قبل هجرة البجناك كانوا يذكرونهم على أنهم شعب مستقل ، وكانوا في ذلك الوقت يعيشون بمحاذاة نهر (ياييق) أي أنهم كانوا جيران الخزر من الشرق ، وفي سنة ٩٢٢ وجد ابن فضلان في تلك الجهات بقية منهم .

أما جمهرتهم الكثيفة فقد هاجرت وتوطنت في جنوب روسيا مارة ببلاد الخزر ، ومن جنوب روسيا بدءوا يهددون كييف ، وذلك في عهد (اسفاتوسلاف) Sviatoslav . في كتب الحوليات الروسية ذكر غارات البجناك على الروس ، وذكر الصراع بين الأمراء الروس (كنان) وبين البجناك .

وقد نقل قسطنطين بورفيريوجينيت كثيرا من الأخبار الخاصة بهم ، كما أنه عدد قروع البجنك .

وقبيل القرن الحادى عشر ، أى بعد سقوط دولة الخزر ، قام الغز بهجرة جديدة فعبروا نهر « ايدل » = الفولجا ، ووصلوا الى جنوب روسيا الحالى ، وفى هذه المرة ذكرتهم المصادر البيزنطية باسمهم المتداول على ألسنة الشعب وهو « أوز Ouzoi . أو Ouz » .

وأما فى المصادر الروسية فقد ذكروا باسم Tork ينضم هؤلاء الغز الى اخوانهم الأقربين وهم البجنك ، بل بدعوا يحاربونهم ، فاضطر البجنك الى الهجرة الى شبه جزيرة البلقان وتتبعهم الغز هناك ، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى تعرضت فيه الممتلكات البيزنطية بالأناضول لغزوات فريق آخر من الغز جاءوا مع السلاجقة .

ولأول مرة تعرضت المناطق البيزنطية فى الأناضول وفى شبه جزيرة البلقان لغزوات أقوام من الغز جاءوا من طرق مختلفة ، ولا علم لأحدهم بالآخر ، ولحسن حظ البيزنطيين فإن هذه العناصر التركية لم تتحد ، ويستبب ذلك بدأ امبراطور بيزنطة يتحس الاطمئنان فى أواخر القرن الحادى عشر وهو الوقت الذى بدأت فيه الحروب الصليبية ، وندم على طلبه من الغرب أن يعينه ضد الأتراك المحدثين به من جميع الجهات ، إذ لم تكن به حاجة وقتذاك الى هذا العون .

المسيحية عند الغز

ولم يكن الغز المشتركون فى هذه الحركات على علاقة بالدين الاسلامى ولا بالمدنية الاسلامية . وفى رواية بكتاب عربى عاش مؤلفه فى القرن الثالث عشر « ولا شك أن هذه الرواية ترجع الى أبعد من هذا من القرن » انه كان ثمة مسيحيون بين الغز ، وقد عرف الغز الاسلام والمسيحية بواسطة خوارزم وهى البلاد المتقدمة التى كانت بينها وبين

الغز علاقات تجارية وتيقنة ، وقد ذكر البيروني وهو من علماء خوارزم في القرن الحادى عشر ، أنه كان بين الخوارزميين مسيحيون ، والعجيب أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا نساطرة مثل المسيحيين بإيران وتركستان ولكن كانوا على الديانة الأرثوذكسية ، ويفهم من هذا أن الغز كانوا على نفس هذه الديانة .

السلاجقة فى هضبة ايران

وبعد أن تأسست المستعمرات الاسلامية على ضفاف نهر سيحون حيث يتيم رؤساء الغز ، تغلبت المدينة الاسلامية فى تلك الجهات - كما هو الحال فى جهات أخرى - على غيرها من المدينيات ، وعدا ذلك فقد دخل قسم من التركمان فى خدمة السامانيين ، وتعهدوا - فى مقابل المراعى التى أعطيت لهم - أن يدافعوا عن حدود ممتلكات السامانيين ضد اخوانهم التركمان الذين لم يدخلوا فى الاسلام .

وفى ذلك الوقت كان بعض الترك القاطنين على حدود دولة السامانيين متصلين بالمدينة الاسلامية ، وكان الفارابى فيلسوف العرب المشهور فى القرن العاشر واحدا من هؤلاء ، فهو تركى النشأة وفى أثناء الصراع بين السامانيين والقراخانيين ، كان الغز ينضمون أحيانا الى هؤلاء ، وأحيانا الى أولئك ، وفى بداية القرن الحادى عشر دخلوا فى بلاد محمود الغزنوى ، وهنا يلاحظ مؤرخو ايران الفرق الكبير بين الغز الذين دخلوا قبل ذلك ايران مبعثرين متفرقين ، رعاة لا نظام ولا تشكيلات وبين أحفاد سلاجوق الذين كانوا يلقبون بالأمير والفاتح والذين كانت قواتهم متفرقة نظاما وتشكيلا ، وقد كانت ولايات الغزنويين وغيرهم تضارار اقتصاديا من غارات السلب التى يقوم بها الغز الأول ، ولكن هذه الغارات على اتساع مساحتها فى بعض الأحيان، ما كانت لتحديث أى تبدل سياسى ، ذلك أن البدو ينتقلون من مكان الى آخر دون أن يتركوا حاميات عسكرية ، ولا يعمرن المدن

التي تخرب ، ولا يجشمون انفسهم ازالة الدول القائمة ليقيموا على انقاضها دولا لهم .

ومن جهة أخرى فان أحقاد سلجوق - بعد أن احرزوا انتصارهم الأول في خراسان حيث كان يحكم مسعود بن محمود الغزنوي - بدءوا يضيفون على انفسهم حقوق الحكم ، فأمرُوا بأن يدعى لهم في الخطبة ، وسكوا العملة باسمهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا في أول الأمر توحيد السلطة فيما بينهم .

وكما أقام الامبراطورية التركية في القرن السادس أخوان ، فكذلك أقام دولة السلاجقة في القرن الحادي عشر أخوان هما حفيدا (١) سلجوق ، كان أحدهما يذكر في الخطبة بنيسابور وباسمه تسك العملة ، وكان يدعى للآخر في مساجد مرو ، وتسك العملة باسمه ، ثم بدأ السلاجقة يأخذون عن الايرانيين قواعد المركزية ، وتوحيد أداة الحكم ، ولم يأخذوا ذلك دفعة واحدة ولكن أخذوه شيئا فشيئا ، ومن اللافت أن الأتراك السلاجقة الغزاة استعملوا لأول مرة في خراسان اللقب الايراني القنديم « شاهنشاه » وذلك على العملة التي سكوها باسمهم ، وهو لقب لم يستعمله التامانيون ولا الغزنويون بصفة رسمية ، فقد كانوا جميعا يريدون أن يظلوا (أمراء مسلمين) سنيين تابعين للخليفة ، يباعدون بين انفسهم وبين شبهة الميل الى احياء التقاليد ، والنظم الايرانية قبل الاسلام ، ولم يستعمل لقب شاهنشاه الا آل بويه وهم شيعة حكموا بغداد وغرب ايران .

أما السلاجقة فانه يتقدمهم نحو الغرب تركوا لقب « شاهنشاه » واتخذوا بدله لقب « سلطان الاسلام » .

وفي عهدهم صار لكلمة « سلطان » معنى معين لم يكن لها من قبل ، اذ بدأت في عهدهم تطلق على الحاكم المسيطر

(١) راجع تاريخ البيهقي ، الترجمة العربية ، حيث فصلت هذه الفترة .

المستقل على حين كانت كلمتنا « ملك » و « شاه » تطلقان على الحكام التابعين ، وحكام الأقاليم : وكان العالم الإسلامي يعتبر كلا عليه رئيس ديني هو الخليفة ، ومن بعده « سلطان الاسلام » وهو يولي السلطة الزمنية من قبل الخليفة ، ومن العجيب أن الغز الذين وفدوا على ايران قبل أبناء جلدتهم من السلاجقة لم يتجاوزوا مع هؤلاء وهم يجاهدون لاقامة دولتهم بل رفضوا بصورة قاطعة أن يعترفوا بهم ، ولم يدخلوا في الطاعة الا قهرا وباستعمال القوة .

وكانت علاقة الحكام بالشعب الذي ينتسبون اليه اكثر تعقدا . في البلاد الخاضعة للسلاجقة منها في بلاد القراخانيين ، فقد كان القراخانيون يسمون أنفسهم (الترك) ، و (أبناء أفراسياب) ولم يكن لأي شعب من الشعوب التركية امتياز خاص في دولتهم .

وليس بين المصادر التاريخية مصدر واحد يدلنا على الشعب الذي ينتمي اليه القراخانيون ، وأما السلاجقة فقد اتخذوا لأنفسهم في أول الأمر لقب (شاهنشاه) ثم لقب (سلطان الاسلام) ، وكما اخترعت أسطورة تنسب القراخانيين الى أفراسياب فقد اخترعت أخرى تنسب اليه السلاجقة ، وصدق السلاجقة هذه الأسطورة ، ومع هذا فقد كانوا يعتبرون أنفسهم من الغز أو من التركمان ، بل ذهبوا الى أنهم ينتسبون الى إحدى قبائل الغز الأربع والعشرين وهي قبيلة (قنق) (ويرسمها محمود الكشغري « قينيق ») وتوشك أسماء هذه القبائل كما ذكرها محمود الكشغري أن تكون هي بعينها الأسماء التي ذكرها رشيد الدين ، وذلك مع فرق بسيط ، وهو أن الكشغري ذكر هذه الأسماء بصيغة القديمة ، فمثلا قبيلة (قايي) وهي القبيلة التي ينتمي اليها العثمانيون ، ترد في كتاب الكشغري بصيغة قايغ وكذلك قبيلة (يا زير) فانها تذكر بصيغة (يا زغر) . وقد حاول ماركارت مستندا الى البيروني الى غيره أن يوحد بين اسم

قبيلة (قايى) التي يرجع اليها العثمانيون وبين شعب (قاي) الذي يسكن اقاصى الشرق ، وأوجد نتيجة لذلك نظرية جديدة ، خلاصتها أن العثمانيين ينتمون الى عائلة المغول ، وقد جرح هذا الرأى بما أثبت في كتب الدراسات التركية الحديثة ، وكذلك بالمعلومات التي أوردها محمود الكشغرى .

والواقع أن الكشغرى يدرج قبيلة « قايى » بين الأقوام غير خالصة التركية ، ولكن لا علاقة للبيته بين قبيلة « قايى » هذه وبين القبيلة الغزية « قينج » التي ينتمى اليها العثمانيون ، ولم يحتفظ الغز بأية رواية خاصة يتكويّنهم حكومة فى منغوليا فيما مضى .

وكان يظن فى الأساطير التركية أن موطن جد الأتراك وهو (ترك) مكان قريب من بحيرة (ايسيق كؤل) ولكن أساطير الغز لم تدع فى المناطق الواقعة الى الشرق من هذه البحيرة ، على حين حمل الغز الذين عبروا نهر سبيحون الى ضفته الغربية الأساطير الخاصة بـ (قورقود) أبى الشعب وشاعر القومية وفيلسوفها ، والمجايف على الحكيمات الشعبية . ومازال قبر (قورقود) معروفا فى جوض نهر سبيحون ، ومازالت الأساطير المتعلقة بقورقود شائعة بين التركمان ، وكانت فى العصور الوسطى (أيام العثمانيين) ذائعة فى الأناضول وظلت منتشرة بين أتراك أذربيجان حتى القرن السابع عشر ، وفي القرن العاشر كان اسم (قورقود) معروفا لدى البيجك ، ويدفعنا كل هذا الى الظن بأن أسطورة (قورقود) وصلت اربثا - الى الغز من عهد ما قبل الاسلام ، وأنهم حملوها معهم نحو العرب .

ولئن كان الغز من ناحية المدنية أقل منزلة من الأتراك القراخانيين ، فانهم كانوا أكثر محافظة على خصائص الحياة القومية للترك ، فبعد كان قادة الغز مختلطين بالشعب يشتركون فى الجهاد والانتصارات ، ولا يمتاز زعيمهم العسكرى كثيرا عن زى الجنود العاديين ، وقد وجد تصويبر الجفلى

زواج طغرل بك حفيد سلجوق من بنت الخليفة وذلك في كتاب باللغة السريانية كتبه أبو الفرج ، وهو من مؤلفي القرن الثالث عشر ، وقد وصف في جملة ما وصف رقصة يؤديها الأتراك كانوا أثناء أدائها يقومون ويقعدون ، وهذه الرقصة هي من غير شك الرقصة المعروفة عند الروس باسم *Pliskav Prisiadkpou* ، ولا بد أن الروس أخذوا هذه الرقصة عن الترك ، ومع أن المسيحية كانت قد تسربت إلى الفز قبل الاسلام ، فالظاهر أنه لم تكن لهم — قبل الأبجدية العربية — كتابة أخرى ، على حين كانت دولة القراخانيين في ذلك الوقت تستعمل الأبجدية الأويغورية ، ثم أخذت حروفها تتلاشى تدريجيا إلى أن حلت محلها الحروف العربية ، وتوجد للقراخانيين عملة عليها نقوش أويغورية *

وقد كان الخانات — مثلهم كمثل المنول — يضربون أسماءهم على العملة بالحروف الأويغورية ، وذلك بعد أن صارت هذه الأسماء عربية اسلامية . ويمكن أن نعلل الفرق بين الرسم الاملائي عند أتراك آسيا الوسطى وأتراك آسيا الغربية — وهو الفرق الذي لاحظته علماء ليننجراد — بأن الفز لم يكونوا على علم بالأبجدية الأويغورية ، وقد كان من عادة أتراك آسيا الوسطى وهم يستعملون الأبجدية الأويغورية — أن يثبتوا الحركات الطويلة فلما استعملوا الأبجدية العربية أفادوا كثيرا من استعمال الألف والواو والياء *

أما في آسيا الغربية ، فتبدل الوثائق المكتوبة هناك على أن الضبط باستعمال حروف الحركة لم يكن يستعمل الا نادرا حتى ان نهاية الماضي الشهودي للمفرد الغائب وهي (دى) كانت تكتب أحيانا بحذف الياء ، فتصبح دالا مكسورة فقط — وبسبب غموض هذا الاملاء — فقد احتيج إلى أن تضبط المخطوطات بالشكل ، ويبدو أن عدد المخطوطات التركيبية المضبوطة بحروف الحركة أكبر كثيرا من عند المخطوطات العربية والفارسية المضبوطة بالشكل *

سياسة السلاجقة الإسلامية

وقد كان أحفاد سلجوق بوصفهم (سلاطين الاسلام) اشد دفاعا عن الاسلام وعن اهل السنة من القراخانيين ، بل كانوا كذلك حماة غيورين للمذهب الحنفي ، الذي اخذته الترك عن السامانيين حيث ساد في دولتهم ، وقد اضطهد الشافعية اضطهادا شديدا في عهد طغرل بيك ، وكان من اسباب ذلك أنهم رتبوا علم الكلام بقصد الرد على الرافضة . وفي هذا العلم تتخذ الأدلة العقلية أساسا للحكم على المسائل الدينية ، كما أن لعلوم اليونان فيه منزلة عالية ، وهذا كله في نظر السلاجقة من قبيل البدع الضارة المخلة بالتعاليم الدينية لأهل السنة ، ويقول البعض ان ألب أرسلان خليفة طغرل بيك في الحكم ، وقف حركة اضطهاد الشافعية ، واتخذ لنفسه وزيرا شافعيًا هو نظام الملك ، ولكن نظام الملك نفسه يقرر أن ألب أرسلان كان حنفيًا متعصبا ، لا يحب الشافعية أبدا ، وكان يأسف لاختياجه الى منساعدة وزير شافعي ، ولم يكن أحفاد سلجوق يكتفون — بوصفهم سلاطين الاسلام — باعلام كلمة الدين داخل حدود البلاد الإسلامية ، بل كان عليهم أن يهزموا الأعداء في الخارج وأن يوسعوا حدود ديار الاسلام ، وكان من الطبيعي أن يؤديوا هذا الواجب بصفة رسمية في غرب آسيا ، حيث كان النصر والفتح مرتبطين بالمنافع الاقتصادية ومن هذا القبيل حروبهم مع المسيحيين في الأناضول ، وفي قافقاسيا وحروبهم مع الشيعة في سورية ومصر ، وقد انتصر المسلمون في الصراع مع البيزنطة بعد أن رسخت أقدام الحكم التركي في بلاد خليفة الاسلام ، وكان هذا النصر ، وثيق الصلة بالحكم التركي ، فقبل ذلك بقليل ، أي في عهد أسرة البويهيين الإيرانية (في النصف الأخير من القرن العاشر ، والنصف الأول من القرن الحادي عشر) ، استغل البيزنطيون شدة الخلاف بين الشيعة وأهل السنة وفتحوا عدة أماكن في سورية وبين النهرين ، ولكن بعد أن توطن الحكم التركي في بلاد الخليفة ، لم يفقد

البيزنطيون ممتلكاتهم هذه فحسب ، بل دخل الاسلام في الأناضول ، وتكونت به دولة اسلامية تركية .

ويكفى أن نذكر الأتراك الذين أرسلهم السلاجقة الى حدود بلاد الروم لنقّب على مدى اهتمامهم بتلك الجروب .

ومع أن سكان الجهات الشرقية من ايران المتاخمة لموطن الفز الأصلي قد حافظوا على هيئتهم اللاتنوغرافية ، فإن سكان القسم الشمالي الغربي من ايران (في آذربيجان والأناضول) قد تترك لسانهم تماماً ، وفي نفس الوقت ، دخلت غالبية سكان الأناضول في الاسلام ، ولكننا لا نستطيع الآن دراسة التطور التدريجي لانتشار الاسلام في الأناضول ومع هذا ، فلا بد أن يكون انتشار الاسلام في بلاد تعودت على المسيحية ، قد تم ببطء ، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، كانت الجزية - وهي الضريبة التي تحصل من غير المسلمين - أهم مورد للحكومة الاسلامية المحلية ، مما يدل على أن عدد غير المسلمين في ذلك الوقت كان كبيراً . ومما يزيد هذه المسألة صعوبة أن حركة التترك لم تمض جنباً الى جنب مع حركة الدخول في الاسلام ، كما كانت حركة التعرب من قبل ، فمن الملاحظ أن السكان الذين احتفظوا بديانتهم اليهودية أو المسيحية في مصر وسورية ، قد اتخذوا العربية لساناً لهم . أما في عهد الحكم التركي ، فقد قبل بعض المحتفظين بدينهم اللغة التركية ، ودخل بعض المحتفظين بلسانهم في الاسلام ، ومن هنا بدأ الاسلام يوائم بين نفسه وبين لغة الأهالي . وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، كان سلطان ولد بن جلال الدين الرومي يقرب الشعر باليونانية الى جانب الفارسية والتركية ، ولأشعاره هذه اليونانية والمكتوبة بالحروف العربية قيمة كبيرة لعلماء اللغة ، إذ أنها الذكرى الوحيدة للهجة الرومية في منطقة قونية في ذلك الوقت .

ولم يكن الاسلام ، ولا اللغة التركية وقتذاك قد احرزتا انتصارات مهمة في قافقاسيا ، ولكن كلمة (اذرى) التى كانت تدل منذ اقدم العصور على لهجة ايرانية خاصة ، اصبحت تدل الآن على اللهجة التركية التى يتكلمها كل اهالى اذربيجان تقريبا ، ويتجاوز مجال انتشار هذه اللغة فى الشمال والجنوب حدود المنطقة الايرانية التى مازالت تحتفظ باسمها : اذربيجان ، ولكن المعلومات الخاصة بانتشارها فى هذه المنطقة ترجع فقط الى ما بعد الغزو المغولى ، حتى يمكن الظن بأنه لولا الموجات التركية التى أتت بها هذا الغزو ما استطاعت اللغة التركية أن تحرز هذا التفوق .

وبعد قليل من انتصار سلاطين السلاجقة فى قافقاسيا انتقلت الأهمية السياسية الى يد المسيحيين ، فاصبح بذلك القرن الثانى عشر كله وبداية القرن الثالث عشر فترة تطور عام لدولة الكرج ، وكان المسلمون المجاورون للبيزنطيين والكرج يتعرضون طوال القرن العاشر وبداية الحادى عشر ، لصنوف من اعتداءات الفريقين ، وذلك مع فارق عام ، وهو أن حكام الكرج لم يكونوا كالبيزنطيين يكتفون الكراهية للمدنية الاسلامية ، بل كانوا يسكون العملة للبلاد العربية ، بالحروف العربية ولم يكونوا يميزون - كما قال مؤلف عربى - بين رعاياهم من المسلمين والكرج .

ولما كان احفاد سلجوق يسمون بوسسفهم (ساسانيون الاسلام) الى السيطرة على كل بلاد العالم الاساسى ، فلم يَدُنْ بد من أن يتجهوا بأنشارهم الى آسيا الوسطى منشأشهم الاصلى الناضج وقتذاك لحكم القراخانيين . ولذلك فانه فى الوقت الذى تمت فيه الفتوحات التركية الأولى فى انطاليا كان آلب أرسلان وهو السلطان فى ذلك الوقت يغير غارات موفقة ، على طول نهر سيحون ، وعلى بلاد القراخانيين ، وفى عهد ابنه وخليفته ملكشاه (١٠٧٣ - ١٠٩٢) بلغت امبراطورية السلاجقة أوج عظمتها ، فسار ملكشاه الى مدينة (أوزكند)

فى فرغانة ، وأخضع لحكمه خان كاشغر ، وهكذا امتد نفوذ (سلطان الاسلام) على آسيا الاسلامية كلها من حدود بلاد الأويغور شرقا الى البحر المتوسط غربا ، ولئن كان الغزنويون فى الهند وأفغانستان قد احتفظوا باستقلالهم ، فقد اضطروا فى عهد ابنه سنجر الى أن يخطبوا باسمه على المنابر .

وفى آسيا الوسطى — كما فى غيرها — بلغ السلاجقة أهدافهم باستعمال القوة ، وليس لدينا دليل واحد لا على أن الأهالى الأتراك نظروا اليهم بوصفهم حكاما من أنفسهم ، ولا على أن هؤلاء السلاطين ، حاولوا الاعتماد على القومية التركية ، ولئن كان السلاجقة قد جعلوا من القراخانيين تابعين ، فلم يكن من الممكن أن يجمعوا شمل الأتراك المسلمين جميعهم فى شكل دولة واحدة قوية ، ذلك أنه كانت لا تزال هناك فروق كبيرة بين الغز الذين هاجروا الى الغرب ، وبين أتراك آسيا الوسطى ، بل ان الغز أنفسهم لم يكونوا رعايا مخلصين لسلاطين السلاجقة ، وقد اضطر سنجر وهو آخر أصحاب القوة من أحفاد سلجوق الى أن يحارب أمته ، كما كان يفعل خانات الترك فى القرن الثامن ، وقد وقع هذا السلطان أسيرا فى يد الغز ، ولم ينبج الا بالفرار .

القبجاق

وعدا الأويغور المتحضرين المقيمين فى الشرق والذين لم تشملهم دائرة التأثير بالاسلام ، فقد كان يوجد فى الجهات الشمالية الغربية قوم من البدو لا علم لهم بالاسلام من حيث هو دين ، وان لم يكونوا أعداء للمدنية الاسلامية ، وأولئك هم القبجاق . وفى القرن الحادى عشر زادت كثافة القبجاق الذين يقطنون حوض نهر ايرتيش فانتشروا بسرعة فى أماكن واسعة من تلك الجهات ، ولما لم تكن بالمصادر التاريخية تفصيلات عن التغيرات التى طرأت على الأتراك القاطنين بحوض نهر ايرتيش فليس أمامنا ، لكى نحكم على هذه التغيرات الا أن ندرس التغيرات التى طرأت على أسمائهم ،

ومع أن اسم (ايرتيش) قد ورد غير مرة في نقوش أورخون، فلم ترد كلمة واحدة عن الشعب الذي يعيش هناك ، ولا بد أن تكون سلطنة خاقان الغز الغربيين أو (التركش) قد امتدت الى حوض نهر ايرتيش .

ومع أن لكلمة ايرتيش بضعة اشتقاقات شعبية فلا شك في أنها غير تركية ، ويقرر جغرافيو العرب أن قوما يقال لهم (كيماك) كانوا يعيشون في حوض نهر ايرتيش ، وانهم كانوا يشغلون مساحات واسعة تقع شمال الغز ، وتمتد غربا حتى نهر (الفولجا) أو نهر (قاما) وكان (قاما) في نظرهم هو المجرى الأعلى لنهر (ايديل) .

ويتكون شعب الكيماك، من عدة قبائل من بينهم القبجاق، وأماك *Amak* ويرى ماركارت أن الكيماك يتكونون من قبيلتين ، وذهب الى أن كلمة كيماك تتكون من كلمتي (ايكي + ايماك) وهو فرض غير موفق .

وأما محمود الكشغري فلم يذكر كيماك ، ولكنه ذكر أن قوم أمك يقتلون على ضفاف ايرتيش وأنهم جيل من القبجاق .

وفيما بعد كان شعب (قانقلي) يذكر دائما مع شعب القبجاق ، ولكن محمود الكشغري يذكر كلمة (قانقلي) على أنها اسم لأحد عظماء القبجاق لا على أنها اسم شعب . ويقول أيضا ان كلمة قانقلي معناها (عربة) . ويقرر كتاب المؤرخ الفارسي البيهقي أن القبجاق كانوا يحفون بحدود البلاد الاسلامية الواقعة في جنوب بلادهم ، وأنهم كانوا جيرانا للخوارزميين ، وذلك قبل أن يؤلف محمود الكشغري كتابه بزمان طويل ، وقد تحدث الكشغري عن قوم من الترك يسمون (بولاق) أو (الكه بولاق) وقعوا أسارى في يد القبجاق ، ثم استطاعوا - بقوة الله - أن يتخلصوا من الأسر ، ولا شك أن هذه الرواية تتعلق بحركات القبجاق نحو الجنوب ،

ونعتقد أن محمود الكشعري يلمح هاهنا - كما فعل في مواطن أخرى - إلى حدث تاريخي لیتنا نحصل على معلومات مفصلة عنه . ويحتمل أن يكون زحف الغز في القرن الحادی عشر نحو الجنوب والغرب ، ناشئاً عن ضغط القبجاق عليهم من الشمال ، وربما فسر لنا ذلك ما يرويه جغرافيو العرب من توطن الغز في القرن العاشر بشبه جزيرة ماغيشلاق التي لم تكن مسكونة من قبل ، وقد ظل شبه الجزيرة هذا مهداً للتركمان حتى العصور المتأخرة إلى أن اضطروا مؤخراً تحت ضغط القازاق إلى الجلاء عنه .

وبعد الثورة الروسية ، ألحقت شبه جزيرة ماغيشلاق بقازاقستان ، ومما يؤيد التبدلات الاتنوغرافية التي حدثت في القرن الحادی عشر أن الصحراء التي كان جغرافيو العرب في القرن العاشر يسمونها نسبة إلى الغز (صحراء الغز) ، نسبت في القرن الحادی عشر إلى القبجاق فسميت صحراء القبجاق (دشت قبجاق) . وقد احتفظت (دشت قبجاق) باسمها حتى بعد أن فقد القبجاق صفتهم كشعب متنقل ، ومثل ذلك عبارة (بحر الخزر) فقد ظلت تطلق على هذا البحر حتى بعد انقراض الخزر ، وقد بقي اسم (دشت قبجاق) مستعملاً في الكتب العلمية الإسلامية حتى العصور المتأخرة ، وورث القبجاق وشعب قاکلی وهو أوثق الشعوب صلة بهم - الأراضي التي خلفها الغز في حوض نهر سيحون بعد هجرتهم ، والأراضي التي خلفها البجناك في جنوبي روسيا ، بعد أن ضيق عليهم الغز فاتسعت بذلك بلاد القبجاق اتساعاً كثيراً ، وكانت منطقة السهوب الواقعة في شمال تلك البلاد الشاسعة ، داخلة في ممالكهم (القبجاق) وخاضعة لهم كما أنها الآن داخله في قازاقستان ، ولم تحدث بعد ذلك هجرات من الشمال ، ومع أن القبجاق كانوا على صلة بالروس وبالأوروبيين الغربيين ، فإن هؤلاء جميعاً لم يعرفوا كلمة (قبجاق) فكان الروس يسمونهم (بولووتسي) Polovt.y

والأوروبيون يسموهم (قومان) Comans ولم ترد كلمة قومان في المصادر الإسلامية فيما أعلم الا عند الادريسي (الذي حرر كتابه في أوروبا في القرن الثاني عشر) ، وعند من أخذوا عنه .

ومنذ وقت قريب وضع ماركارت عن ظهور القبجاق كتابا تجلى فيه علمه واقتداره ، وقد حاول في هذا الكتاب أن يثبت أن شعب (قون) - وهو من شعوب الشرق الأقصى، وذكره بعض المؤلفين المسلمين - جزء من القبجاق وأنه معروف في أوروبا الغربية تحت اسم (كوني Cuni) وعلى الرغم مما أورد ماركارت من أدلة ، فاني اعتقد أنه لم يوفق لا في ذكر الهجرة ولا حتى في اثبات وجود هذا الشعب ، وقد ذكر الكرديزي قوما يسمون (فوري) ، يعيشون في نفس المكان الذي يعيش فيه شعب (قون) أي الى الشرق من بلاد القيرغيز، وكان قوم فوري أقل حضارة من القيرغيز ، ويحتمل أن تكون كلمة (فوري) هي كلمة (بوري) بمعنى الذئب في اللغة التركية ، وترد كلمة (فوري) بدلا من كلمة (قون) في كثير من مخطوطات الكتب التي رجع اليها ماركارت وخاصة كتب البيروني وعوفي ، ولذلك يجب أن نرجح استعمال كلمة (قوني) .

وأما المحاولات التي بذلها ماركارت - مستندا الى بعض المصادر الصينية - ليثبت أن القبجاق كانت لهم في القرن الثاني عشر أسرة حاكمة جاءت اليهم من الشرق الأقصى ، فليس فيها ما يقنع .

وتعتبر حالة القبجاق مثلا نادرا ، وذلك من حيث انهم يشغلون أقاليم واسعة ، دون أن تكون لهم وحدة سياسية ، ودون أن يؤسسوا لأنفسهم دولة ، نعم ، كان خاناتهم كثيرين ، ولكن كان كل منهم على حدة ، ولم يحدث أبدا أن خضع القبجاق كلهم لخان واحد . وكانت البلاد التي يشغلونها في ذلك الزمان خارجة عن حدود العالم الإسلامي ، وفي القرن

التانى عشر اشتركوا فى قافقاسيا ، فى الغارات ضد المسلمين ، واحيانا كان يحدث العكس فيتحد المسلمون والكرج لصد هجمات القبجاق الآتية من الشمال ، ولم تكن هذه الغارات تهدف فقط الى السلب والنهب ، بل كان يقصد بها الفتح ، وقد فقد المسلمون لمدة محدودة (دربند) ومنطقة (شابه ران) والمدينة التى تحمل نفس الاسم (وكانت تقع فى جنوب دربند) ولكن المسلمين - استطاعوا بمساعدة الكرج - استرداد هذه الأماكن ، وقد ذكر الروس بين الأعداء الذين أغاروا على الأراضى الاسلامية من الشمال سنة ١١٧٥ .

ولكن كتب الحوليات الروسية لم تشر الى شىء من هذا ، ولا يد أن يكون هؤلاء الروس محاربين أحرارا ، لم يشترك معهم الأمراء الذين كانوا يحمون روسيا فى ذلك الوقت .

حضارة الغز

وكان خانات القبجاق - وهم لا يزالون فى جنوب روسيا - يستخدمون أصحاب المدينة الاسلامية ولا سيما المتخصصين فى الشئون العسكرية ، ومع هذا فقد كانت هناك امارات قبجاقية غير مسلمة على الحدود القريبة للبلاد الاسلامية ، وكانت تشتمل أحيانا على بعض المدن ، وكانت مدينة سوغتاق [وهى الآن عبارة عن خرائب (سوتاق - قورغان)] عاصمة لامارة قبجاقية بينها وبين الخوارزميين علاقات ، وقد ذكر محمود الكشغرى هذه المدينة بوصفها احدى بلاد الغز ، وتصرح المصادر الاسلامية بأن شعبي القبجاق وقاكي القاطنين فى تلك الجهات [كثيرا ما يذكر شعب قاكلى مع شعب القبجاق حتى انه ليصعب التفرقة بينهما] قد أسلموا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر نتيجة لصلاتهم الوثيقة بالخوارزميين ، ومعنى هذا أن دخول كتلة الشعب التركية التى كانت تقطن صحراء القازاق الحالية فى الاسلام فى صفر سنة ٤٣٥ هجرية (آخر سبتمبر أو أول أكتوبر سنة ١٠٤٣) لم يكن له أثر فيما بعد فى نشر

الاسلام فى صحارى (القبجاق) * (ولا اعلم مصدرا أقدم من ابن الأثير أكد دخول هذه الكتلة التركيه فى الاسلام) وكما لم يذكر ابن الأثير اسم الشعب التركى الذى دخل فى الاسلام سنة ٩٦٠ فكذلك لم يذكر اسم هذا الأخير ، واكتفى بذكر المجال الذى كان يزاوول فيه رحلاته فى الشتاء والصيف ، وفى الشتاء كان يقيم فى نواحي (بالاساغون) وفى الصيف كان يرحل حتى يصل نهر (ايديل) = (فولجا) ، ومع عظم هذا المجال الذى يتجول فيه هذا الشعب ، فلا بد أن يكون عدده أقل من عدد الشعب الآخر الذى أسلم سنة ٩٦٠ ، ذلك أن ابن الأثير قدره بعشرة آلاف خيمة ، ثم قدره بعد ذلك أبو الفدا بخمسة آلاف (أسرة) فقط ، ولا يدلنا كتاب الكشفى ، على المدى الذى وصل اليه تأثير الاسلام ناحية الشمال الغربى ، وعلى العموم فلا يمكن أن نحدد الأماكن ولا الأقوام التى يروى الكشفى من أشعارها الشعبية والفنية ، والتى يتحدث عن عقائدها الدينية ، وعاداتها ، ونظمها فى إدارة الحكم * وترجع هذه الأشعار الى أماكن مختلفة ، ومن بينها منظومات خاصة بالصراع بين مدينة (قاتون سيتى) وشعب التانكوت ومنظومات تصف نصف نهر ايديل *

ان مياه ايديل تتدفق

وتصطدم بالصخر

وبفيضانه زاد السمك والضفادع

وعدا الشعر الشعبى ، فهناك أشعار الصنعة ، ومن بينها أشعار خاصة بالبلاط ، وفى احداها يسمى الشاعر نفسه (خادم الخاتون) أى زوجة الملك ويقول انه بهذه الصفة قد نظم قصيدته ، وهذا النوع من الشعر يسمى (قوشوق) أى قصيدة ، ويوجد نوع آخر له وزن غير وزن القوشوق ويسمى تويوق ، وهى كلمة لم يذكرها محمود الكشفى ،

اذ لم يذكر الا كلمة (جوجو) [بالجيم المعطشة] أو (جوجو)
[بالجيم المصرية] واكتفى بأن يقول انها اسم شاعر ولم يذكر
فى أى قوم نشأ هذا الشاعر ، ولا أين ومتى عاش .

وكما أن الثقافة الايرانية لم تستطع القضاء دفعة
واحدة على الشعر التركى القديم ، فكذلك لم يمح دخول
الأتراك فى الاسلام معتقداتهم القديمة بسرعة .

وظل الترك يعتقدون فى الالهة (أوماى) المذكورة فى
نقوش اورخون ، فقد كانت - كما يروى الشنفرى - روحا
يحفظ الأجنة فى بطون أمهاتها ، بل كان عند الترك متل
معناه (من يخدم أوماى يرزق ولدا) ، وفى نفس الكتاب
ترد كلمة (يوغ) وهى اصطلاح قديم ومعناه (ذكرى
الموتى) .

وكانت هذه الكلمة تطلق كذلك على المادب التى تقدم
للأهالى لمدة ثلاثة أيام أو سبعة بعد دفن الميت ، وكانوا
يعتقدون أنه اذا قامت الحرب بين فريقين ، فإن الجن الذين
يسكنون فى مواضع أحد الفريقين يحاربون الجن المقيمين فى
مواضع الفريق الآخر ، وذلك قبل أن يشتبك الفريقان بيوم ،
ومن هنا فقد كان المحاربين لا يغادرون خيامهم ليلة القتال
خوفا من أن تصيبهم سهام الجن ، وكان عساكر الجن هؤلاء
يسمون (جاوى) وكان يعتقد أن نتيجة معركة الجن هى التى
تحدد نتيجة القتال .

وكانوا اذا ولد طفل سألوا (بوريمى ؟ تيلكىمى ؟) أى
أذئب ؟ أم ثعلب ؟ وذلك بدلا من أن يقولوا : ولد أم بنت .

ومن التفاصيل الخاصة بإدارة الدولة أنهم كانوا يعدون
العلامات المادية للخان الحاكم ومن هذه العلامات التوغ
والبيرق ، وكان الخان يستطيع أن يملك تسعة بيارق . واذا
لقب خان (بصاحب الطوغات التسعة) فمعنى ذلك أنه من
أقوى الخانات .

وترد كذلك بعض التفصيلات عن ملوك الترك غير المسلمين وهم ملوك الاويغور فيقال فى شرح كلمة (قامدو) انها اسم لقطعة من قماش قطنى طولها اربعة اذرع (منران) وعرضها شبر ، يطبع عليها ختم الخان وتستعمل مقياسا فى البيع والشراء ، وكانت هذه القطع ترقع وتنظف ويعاد طبع الختم عليها مرة كل سبعة أعوام . أما استعمال هذه القطع القطنية بدلا من العملة ، فقد ظل جاريا ومعروفا فى تركستان الصينية حتى العهود الأخيرة . وفى كتاب الكشغرى تظهر أحيانا الفروق بين اصطلاحات الحكم عند القراخانيين وعند الغز أى أحفاد سلجوق ، فقد كان اصطلاح يارليق مثلاً مستعملاً عند (جيكيل) (الكشغرى ج ٣ ص ٣١) .

وقد استعمل فيما بعد عند (المغول) ولكنه لم يكن معروفا عند الغز ، ومن جهة أخرى كان عند الغز اصطلاح (طغراج) ومعناه الختم وطابع الختم . وقد قال الكشغرى عن هذه الكلمة : لا يعرفها الترك ، وأنا أيضا لا أعرف أصلها ، ومع أن ابن المهنا قد ذكر اصطلاحى : طغرا ويارليق فى صحيفة واحدة ، فمن المعروف أن اصطلاح (طغرا) لم يستعمله مؤرخا الا السلاجقة ، وأخذه عنهم العثمانيون ولكنه لم يكن معروفا عند أتراك آسيا الوسطى ، وان لمشكلة منشأ هذا الاصطلاح الحضارى الذى جاء به الغز من آسيا والذى لا يعرفه غيرهم من الترك أهمية كبرى عند المؤرخين .

وفى المحاضرة التالية سنتناول علاقات الترك الثقافية بالشرق والغرب قبل الغزو المغولى ، وسنعالجها كذلك من نواح أخرى .

المحاضرة السابعة

القراخطاي والحضارة التركية في كاشغر

يتحدث الكشغري عن الصراع بين القراخانيين وبين قوم (ياباقو) في الشمال، وقد اختفى اسم هؤلاء من التاريخ فيما بعد) وبينهم وبين الأويغور في الشرق ولكنه لم يتناول صراعهم مع الخطاي، مع أن الحروب بين الخطاي الذين كانوا يحكمون وقتذاك في الشرق الأقصى وبين القراخانيين، بدأت منذ النصف الأول من القرن العاشر * وقد رأينا أن الصين مازالت تسمى في الاستعمال الجارى عند الروس والمغول، وعند بعض المسلمين باسم هذا الشعب قيطاي (خطاي) وذلك رغم أن حكمهم في الصين قد انتهى منذ القرن الثاني عشر، بل يحتمل أن يكونوا هم ولغتهم قد انقرضوا إبان الحكم المغولي، وكانوا - وهم يحكمون الصين، يسمون أسرتهم (ليائو Leao) وبهذا الاسم عرفوا في التاريخ الصيني، ولكن المصادر الإسلامية لم تستعمل هذا الاسم، فقد كان المؤرخون المسلمون يطلقون عليهم اسم (ختاي) وأحيانا (خطاي) بالطاء *

وقد وردت هذه الصيغة غير مرة في كتاب الكشغري نفسه، وبعد أن تحكم أباطرة أسرة ليائو في شمال الصين، فتحوا بلاد المغول، وهنا التقوا في سنة ٩٢٤ بالتجار المسلمين، وقد انفردت المصادر الصينية بتناول هذا الالتقاء، فأما المصادر الإسلامية، فخالية تماما من ذكره وطرده الخطاي القرغيز من منغوليا، ولا بد أن يكون هؤلاء القرغيز قد

عادوا الى حوض الينيسى ، فقد كانوا فى العهد التالىة يسكنون هناك . وكذلك خضع الأويغور وهم حكام منغوليا القدامى للخطاى وكانوا حين خضعوا لهم يسكنون تركستان الشرقية ، وقد عرض عليهم الخطاى العودة الى منغوليا ، ولكنهم لم يستجيبوا لهذه الدعوة ، فقد كانوا تعودوا - فى تركستان - على الحياة الزراعية ، وعلى حياة الحضر .

وقد تحدث المؤرخون الذين كتبوا بالعربية عن الغارات التى كانت تتعرض لها بلاد القراخانيين من ناحية الشرق ، وذكروا أن المغيرين هم الخطاى . ذكر ذلك كثير من المؤرخين أولهم العتبى المعاصر للسلطان محمود الغزنوى ، ولو كانت هذه الغارات غزوات حربية لما أغفلتها المصادر الصينية التى تتحدث عن تاريخ أسرة لياؤو . ولكن هذه المصادر قد خلت من الإشارة الى أية عملية حربية فى اتجاه الغرب . ويحتمل كثيرا ألا يكون أصحاب هذه الغارات هم الخطاى أنفسهم ، ولكن القبائل المغولية التى يدفعها الخطاى الى الهجرة ، والتى سكنت فى أول الأمر شرقى منغوليا ثم غربها ، ويؤيد هذا الظن كتاب أرسله قس نسطورى فى آسيا الوسطى الى البائلين فى بغداد ، تحدث فى هذا الكتاب عن هجوم قام به قوم منقسمون الى ثمانى قبائل . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء المغول المسمون (نايمان) وكانوا - فى عهد جنكيزخان - يسكنون الجزء الغربى من منغوليا ومعروف أن كلمة (نايمان) بالمغولية بمعنى (ثمانية) وفى الكتاب أن القوم المهاجم كان منقسما الى ثمانى قبائل .

وكانت أسرة (لياؤو) هذه أكثر الأسر الأجنبية التى حكمت الصين تمثلا للحضارة الصينية ، وقد اضطر آخر أعضائها الى مغادرة الصين بعد أن قوى فى منشوريا شعب (جور - جين Djur - Djin) ، المسمى فى المصادر الاسلامية (جرجى) وهو شعب ينتمى أصلا الى التونغوز ، وفى سنة ١١٢٥ أسقط شعب جرجى أسرة لياؤو ، وحل محلها فى

شمال الصين ، وأسس الاسرة المسماة بالتركية (ألتون خان)
وبالصينية (تسزين) وبالمغولية (ألتان خان) .

ولما هاجر آخر ملوك أسرة ليائو الخيطاي الى الغرب
لم يتبعه الا جزء من شعبه ، وبقي الجزء الأكبر في الصين ،
وخضع لحكم ال (جرجي) فلما قوى جنكينز خان ، وحاربهم ،
أعلن شعب ليائو الثورة على جورجى ، وقد درج المؤرخون
المسلمون على اطلاق اسم (قاراخيطة) على كل الخطاي
سواء منهم من هاجر الى الغرب ومن بقى في الصين وخضع
لحكم الجورجى .

هجرة الخطاي نحو الغرب

واذا قسنا معلومات المصادر الاسلامية ، عن هجرة
الخطاي نحو الغرب بمعلومات المصادر الصينية عن نفس
الموضوع ، تبين أن الأولى أوضح وأكثر تفصيلا ، ذلك أن
الصينيين اقتصروا على ذكر الهجرة التي قام بها الخطاي نحو
تركستان تحت رئاسة أخى آخر ملوكهم ، وقد مروا أثناء
الطريق ببلاد الأويغور حيث وجدوا منهم العون .

وتنفرد المصادر الاسلامية بالقول بأن عاقبة هذه الهجرة
كانت سيئة ، فقد بطش بهم خان كشغر ، وكتب السلطان
سنجر السلجوقي بذلك الى الخليفة في بغداد ولكن جزءا اخر
من الخطاي ، نجح في هجرته وهو القسم الذى كان طريقه
أبعد قليلا الى الشمال ، والذى اجتاز غرب منغوليا ، فمع أنه
تعرض لهجمات القيرغيز القاطنين في أعالي نهر ينيسى ، فقد
استطاع الافلات من قبضتهم ، وذلك بأن اتجه قليلا الى
الجنوب الغربى . وهناك بنى هذا القسم المدينة المسماة
(أميل) التي تقع الى جوار جو كوجاك الحالية ، والتي دارت
فيها المعارك في القرن الحادى عشر بين اليا باقا والقراخانيين ،
ولا بد أن تكون هذه المدينة ، قد ظلت في القرن الثانى عشر
— كما كانت في القرن الحادى عشر — بعيدة عن دائرة التأثير
بالاسلام .

وكانت منطقة بالاساغون - كما كانت من قبل - هي الطرف الشمالى للبلاد الاسلاميه فى تلك الجهات ، وكانت تحت حكم امير قراخانى ، ومع ان الخطاى كانوا قد وصلوا فى اول امرهم الى نقطة تبعد عن بالاساغون مسيرة ثمانية ايام فقط فانهم طردوا من هذه النقطة ، ولكنهم حين عاودوا الكرة بعد مائة عام عجز القراخانيون عن صدّهم ، وساعدهم على النصر الخلاف بين خان بالاساغون ، وبين البدو الذين يعملون فى خدمته ، وقد انحاز الخطاى فى اول الامر الى الخان ، فلما انتصر عزلوه واستولوا على ولايته ، واتخذوا منها مقرا لرئيس حكومة القاراخيطة ، ثم بدعوا بعد ذلك غزواتهم فى اتجاه الشرق ، فأخضعوا مملكة كاشغر التى عجزوا عن فتحها من قبل (حين جاءوها من الشرق) . ثم وجهوا عساكرهم نحو الشمال الشرقى ليؤدّبوا القيرغيز وهم أعداؤهم القدماء ، وخضع لهم كذلك الاويغور ، وفى سنة ١١٣٧ ، بدعوا يتدخلون فى شئون تركستان الغربية ، وانتهزوا أيضا فرصة الخلاف بين الخان وبين رؤساء القبائل ، ولكنهم انحازوا فى هذه المرة الى القبائل لا الى الخان . وغلب خان سمرقند بالقرب من خجند ، وفى سنة ١١٤١ هزموا السلطان سنجر فى صحراء قطوان شمال سمرقند ، وكان لهزيمة هذا السلطان القسوى أمام الكفار أثرها عند معاصريه ، فقد وصل عنها خبر غامض الى الصليبيين الذين كانوا يحاربون المسلمين فى ذلك الوقت فى فلسطين وشمال بلاد الجزيرة ، وراجت فى أوروبا وقتذاك أسطورة خلاصتها أن ملكا قسيسا اسمه جان قام فى الشرق ليهاجم العالم الاسلامى ، متعاوناً مع أبناء دينه الذين يحتلون الأراضى المقدسة والغالب أن تكون هذه الأسطورة انعكاساً لموقعة سنة ١١٤١ .

والواقع أن القاراخيطة لم يذهبوا بميسدا بل وقفوا عند حدود جيحون ، ولكنهم مع ذلك استولوا بعد قليل على ولاية ومدينة بلخ الواقعتين جنوب هذا النهر ، ودخلت تحت

حكمهم كل البلاد الاسلاميه بتركستان ومن بينها بخارى وخوارزم ، وكان حكام القاراخيطة المقيمون بجوار بالاساغون يسمون عند المسلمين وعند المغول باسم كورخان ، ولم يصادف هذا الاسم قبل القاراخيطة ولا بعدهم ، وما زال أصله ومنشؤه لغزا لم يحل ، ويقول المؤلفون المسلمون ان معناه (خان الخانات) ويحتمل أن يكون لفظ « كور » هو عين اللفظ المذكور في نقوش أورخون وفي كتابي الكرديزي والكشغري أو أن يكون أصله كول .

كان حكم هؤلاء « الكورخانات » مبسوطا على مساحات واسعة تمتد من خوارزم الى بلاد الأويغور ، ولكنهم لم يملكوا شيئا بالصين ومع هذا فيقول الصينيون - واسم القاراخيطة عندهم (ليائو الغرييون) - انهم من ذرية امبراطور الصين ، وأضفى عليهم المؤرخون الصينيون - طبقا للأصول المتبعة عندهم - أسماء سنوات الملك ، وبيان ذلك أن الأسماء الشخصية للملوك الصين لا تذكر في التاريخ ، ولكن يطلق اسم خاص على الفترة التي قضاها كل ملك ، وتعرف هذه الأسماء « بسنوات الملك » وبها تضبط الأحداث التاريخية ، ولذلك ظن من كتب عن الصين من الأجانب : المسلمين والأوروبيين أن الاسم المطلق على فترة الملك هو الاسم الشخصي للملك ، واعتبار القاراخيطة - وهم غير صينيين ، وليس لهم حكم بالصين - من سلالة امبراطور الصين أمر فذ ليس له شأن في تاريخ الصين ، فحين أخرج المغول من الصين في القرن الرابع عشر ألغى اسم أسرة يوان - وهي أسرة أبناء جنكيز التي كانت تحكم الصين - ولم يفكر الصينيون في اعلان أسماء خاصة على فترات حكم هؤلاء المغول بعد عودتهم الى منغوليا .

ويدلنا الاستثناء الذي خص به القاراخيطة على مدى تمثلهم لحضارة الصين ، مما جعل الصينيين لا يعتبرونهم أجانب وافدين عليهم من الخارج .

دولة القراخيطة

ونستطيع أن نقول - استنادا الى المعلومات القليلة التي تمدنا بها المصادر الاسلامية عن حكومة الكورخانات - انهم كانوا - بعد خروجهم من الصين وتوطنهم في تركستان - يستعملون اللغة الصينية لغة رسمية ، وأنهم حملوا معهم أصول الادارة من الصين ، فكانوا يطلقون على الصهر الكلمة الصينية (فامو) - وكانوا يسمون العلامة المميزة للموظفين (بايزا) وقد استعمل المغول هذه الكلمة فيما بعد . وتتميز دولة القاراخيطة على غيرها من دول البدو بأنها لم تعرف الانقسام حتى ليقال عن أول كورخان انه (لم يرأس أحدا على أكثر من مائة فارس) .

ومع ذلك ، فقد كان مبدأ الحكم الذاتي مطبقا على نطاق واسع في الامارات الداخلية في ملكهم ، ولم يشذ عن هذه القاعدة الا بالاساغون ، فهناك ألغى الكورخان حكم الخان القراخاني وتولى بنفسه الحكم ، ولكن المدينة بقيت حتى بعد ذلك بزمان طويل - مسلمة ، وظل الخانات القراخانيون في البلاد الأخرى المفتوحة مثل كاشغر وما وراء النهر ، يزاولون الحكم ويصرفون الأمور كسابق عهدهم ، وعند الخوارزميين في الغرب والأويغور في الشرق كانت الأسرة الحاكمة القديمة هي التي تتولى الحكم ، وكانت اطاعة الكورخان عبارة عن دفع الجزية له ، ومع هذا فقد كان للكورخان ممثل في عواصم الولايات المتمتعة بالحكم الذاتي ، وكان هذا المظهر من مظاهر التبعية يتغير أحيانا فيأخذ شكلا لا يخلو من الحظوة ، فكان ممثل الكورخان لا يذهب الى مقر الخان الا لأخذ الجزية ، فاذا أخذها انصرف ، وكان الخان أحيانا يحظى بحق احضار الجزية بنفسه الى الكورخان ، وكانت الجزية عند القاراخيطة (مثلها عند الصينيين) تدفع عن كل بيت على حدة فكانوا يأخذون دينارا ، أى قطعة ذهب عن كل بيت ، وهذا النظام مغاير للتقاليد الاسلامية ،

ولعادات البدو على السواء ، وقد حاول المغول فى عهود مختلفة بالصين ان ياخذوا الجزية عن كل شخص ، ولسكن الموظفين الصينيين قاوموا هذه القاعدة بشدة ، ولم تختف قاعدة القاراخيطاي وهى فرض الضريبة على البيت كوحدة دون ان تترك أثرها فى اسيا الوسطى ، فقد كانت لاتزال موجودة فى امارات تلك المنطقة حتى القرن التاسع عشر .

ففى عهد خانات خوقند كانت الضريبة تؤخذ فى طشقند عن كل بيت ، وكانت تجبى على أساس دفتر قديم أعد ، وعدد المنازل قليل ، وكانت الضريبة فى عهد خانات خوقند (طالا) أى قطعة ذهب عن كل بيت مثلها فى عهد القاراخيطاي فى القرن الثانى عشر ولكننا - مع الأسف - لا نعرف النظام الضرائب فى الفترة بين القرنين الثانى عشر والتاسع عشر ، ولذلك فلا نستطيع أن نربط تاريخيا بين هذا النظام فى عهد كورخانات القاراخيطاي وعهد خانات خوقند ، وربما كان هذا التشابه من باب الصدفة المحضة .

والان ، فلا تزال بين أيدينا مسألة لم تحل ، لقد قامت للقاراخيطاي فى آسيا الوسطى دولة أخذت طابعها الحضارى من الشرق الأقصى ، فكيف كان تأثير هذه الدولة على مسلكى آسيا الوسطى بوجه عام وعلى الأتراك بوجه خاص ؟

لقد تناول ماركارت هذه المسألة وغيرها من المسائل فى كتابه المسنون [أصل القومان] Das Volkstum der Komnenen حيث عنى بعناية خاصة بدولة الكورخانات ، وهو يرى أن دولة القاراخيطاي كانت وحدها المتقدمة طوال فترة الألف سنة الأولى الحضارى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولكنه لا يؤيد رأيه بأى دليل ، ومن الواضح أن رأيه هذا ناتج عن موقفه السلبي إزاء الاسلام والأتراك بوجه عام . ولعل أول ما نلاحظه عن حياة [أسرة لياؤو الغربيين] أنها كانت تكدس ، نعم كانت بمنأى عن التلاقل التى يسببها وجود القبائل ، ووجود النظام الاقطاعى ، وهى القسلاقل التى كانت تسمى

الدول الإسلامية والدول البدوية المعاصرة ، لكن خدمتها - في مقابل ذلك - كانت تقع أحيانا في أيدي النساء وعشاقهن كما كان يحدث في الصين ، وحدث أن قتلت إحدى هؤلاء النساء الحاكمت عاشقها ، قتلتها بيديها على ملاء من الناس لأنه أساء التصرف وأغضب الشعب فرأت أن تقتله قبل أن تستيقظ الفتنة . وليس بين أيدينا دليل على أن الكورخانيين كانوا يحاولون رفع المستوى الحضاري لشعبهم . فلئن كانوا قد نزعوا السلاح من أيدي القارلوق (التابعين للقراخانيين) على أثر ثورة قاموا بها ، وحاولوا أن ينشئوهم تنشئة زراعية ، فإن هذه التجربة لم تنجح ، واضطر القراخانيون بعد مدة قصيرة إلى التنكيل برؤساء القارلوق .

ومن المشكوك فيه أن يكون الكورخانات قد استطاعوا في وقت ما اقرار الأمن والسلام في داخل بلادهم وخارجها ، فمع أن بلاد خوارزم كانت خاضعة للكورخان ، إلا أنها لم تلق أية معونة حين هاجمها السلطان سنجر السلجوقي بعد أن أفاق من هزيمته الأولى ، وليست لدينا معلومات عن تدخل الكورخانات أثناء الفتنة الأخرى التي حدثت في تركستان ، والخلاصة أن القاراخيطة لم يكونوا يمثلون الحضارة العليا في تركستان ، بل كان وزير آخر كورخان رجلا يدعى « محمود باي » وهو في الغالب تاجر مسلم ، دلالة على أن ممثلي الحضارة الإسلامية كانوا يحتلون عند الكورخانات منزلة عالية .

ومع هذا ، فقد كان قيام دولة القاراخيطة سببا في التقدم الحضاري ، لأنه أعان على التقريب بين العناصر الحضارية المختلفة المتعايشة تحت ظلهم ، ومن المحتمل أن يكون وجود ولايات إسلامية تحت حكم أمير غير مسلم قد سبب انتشار العناصر الحضارية غير المسلمة نحو الغرب ، ولم يتضح حتى الآن السبب في وجود آثار مسيحية باللبنانين السرياني

والتركي في ولاية « يدى سو » بحوض نهر جو وبينما يرجع الجزء الأكبر من هذه النقوش وهو الموجود حول بحيرة « ايسيق كول » وفي حوض نهر ايله الى القرن الرابع عشر ، أى الى العهد المغولى ، فإن النقوش الموجودة بحوض نهر جو ترجع الى أوائل القرن الثالث عشر ، أى الى عهد كان القاراخيطة مازالوا فيه يحكمون * ويرى (كاكوفتسوف) Kokovkov عضو الأكاديمية الروسية الذى قام بمضاهاة الآثار المسيحية بولاية يدى صو بالآثار المسيحية فى ولاية طورفان - أن المسيحيين فى طورفان كانوا أعلى مدنية وثقافة من المسيحيين فى « يدى صو » ورأى - فى مسألة التأثير المتبادل بين مسيحي تلك المنطقة - ان هذا التأثير كان يتجه من الشرق الى الغرب * أى من طورفان الى يدى صو وليس العكس ، وقد استطاع الأويغور البوذيون كما استطاع المسيحيون منهم - أن ينشروا نفوذهم نحو الغرب ، ومع أنه لا توجد اشارة الى نفوذ الأويغور فى عهد القاراخيطة ، فإن السائح روبروق قد رأى البوذيين من الأويغور فى مدينة « قايا ليق » شمال نهر ايله ، وذلك فى سنة ١٢٥٣ أى أوائل عهد المغول *

ويحتمل أن يكونوا قد وفدوا على هذا المكان وتوطنوا فيه أثناء حكم القاراخيطة ، ومع أننا لا نملك الدليل على ذلك ، فإننا نعلم أن الترويج المسيحي كان نشيطا طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، ونعلم أن كثيرا من الأقوام المغولية قد قبلوا الدين المسيحي فى ذلك الوقت ، وترى المصادر الاسلامية - لا المسيحية وحدها - أن قبائل (نايمان) فى غرب منغوليا ، والكرايت فى شرقها كانوا مسيحيين ، ويمكن أن يستنتج من أبحاث الأستاذ بليو أن الأنغور القاطنين فى جنوب منغوليا المتاخمة للصين كانوا كذلك مسيحيين ، وقد التقى جنكيز خان فى بلاد نايمان (بحامل الأختام) = « تامغاچى » وكان أويغوريا فأخذ عنه جنكيز خان الأبجدية الأويغورية ، أى أنه يمكن القول بأن الأويغوريين

كانوا يشتركون في الترويج للمسيحية ! والواقع أن القواعد المتبعة في نقوش أورخون وفي الوثائق الأويغورية مستعملة على شواهد القبور المسيحية في يدى صو ، حيث نجد عبارة « واحد وعشرين » مستعملة بدلا من عبارة « أحد عشر » وهو دليل على أن نصارى يدى صو كانوا من الأويغور ، وكانت قصبة « بولا ييق » في شرق طورفان هي مركزهم الرئيسى .

وكانت كل النقوش التى وجدت هناك مسيحية مكتوبة بالسريانية والصفدية والتركية ، ومن الفروق بين مسيحيي يدى صو ومسيحيي الأويغور أن الأولين كانوا يستعملون على قبورهم أبجدية سريانية الأصل ، أضافوا إليها بعض العلامات ولم يستعملوا الأبجدية الأويغورية المشتقة من الأبجدية الصفدية .

التجار المسلمون ونشر الاسلام

والظاهر أن التبشير كان يمضى جنبا الى جنب مع النشاط التجارى ، فالروايات السريانية تقول في حديث تنصر الكرايت ان خبانهم أخذ المسيحية أول الأمر عن التجار المسيحيين ، وإذا كان في مسألة التبشير هذه ما يلفت النظر فهو أن التجار المسلمين - مع انعدام الاشارة الى نشاطهم في منغوليا - استطاعوا أن يرفعوا المستوى الحضارى هناك ، بأكثر مما استطاع المسيحيون ، وقد أخذ المغول عن الترك كلمة « صارت » بمعنى تاجر ، وكما اشتقت كلمة (صوغداق) من كلمة (صوغد) اشتقت كذلك كلمة (صارتاق) من كلمة (صارت) وأصبحت في منغوليا علما على قوم ينجبون التجار وهم المسلمون الايرانيون .

ومن قواعد المغول اذا أرادوا أن يقولوا مثلا (رجال هذا الشعب) أن يذكروا اسم الشعب ثم يضيفوا اليه كلمة (تاي) وهكذا كانت كلمة (صارتاقتاي) تستعمل في منغوليا بمعنى رجال شعب صارتاق (أوصارت) .

ومما يطلعوننا على مدى تأثير الأيرانيين المسلمين في منغوليا ، قصة المغول عن البطل الماهر الصناع (صارتاق) ، فقد أقام من أجل رى الأراضى أعمالا معجزة فوق الأنهار والبحيرات ، أى أننا يمكن أن نستنتج من ذلك أن المسلمين علموا المغول أصول الرى الصناعى ، ولم يكن المغول يطلقون كلمة صارتاق أو صارتاقتاي على أتباع قومية مغينة فحسب ، بل كانوا يطلقونها أكثر من ذلك على صنف خاص من الحضارة . فكان جنكيزخان يطلقها مثلا على أول حاكم مسلم خضع له وهو الحاكم القارلوقى أرسلان خان أمير القسم الشمالى من يدى صو .

هذا مع أن لسان القارلوق كان التركية لا الفارسية ، واشتق المغول من نفس كلمة (صارت) كلمة (صارتاغول) أو (صارتاول) وكانت جارية الاستعمال منذ عهد جنكيزخان ، ثم ترجمها رشيد الدين فيما بعد بكلمة (تاجيك) وترجمها ابن المهنأ بمعني مسلم .

ويدل ظهور قصة صارتاقتاي - مع انعدام الإشارة الى نشاط التبشير فى منغوليا - على أن نجاح التجار المسلمين فى أعمالهم التجارية بمنغوليا ، لم يكن ناتجا عن انتشار الاسلام هناك (نجاح الأوربيين التجارى فى وقتنا هذا لا علاقة له أيضا بانتشار المسيحية أو عدم انتشارها) وكان الأغنياء من تجار المسلمين ، يشيدون فى العهد المغولى المدارس والخانقاهات ، ولم تكن بين علماء المسلمين وتجارهم رابطة أى رابطة ، بل كان العداء يستحكم بينهم أحيانا والفرق بين تجارة المسلمين قديما ، وتجارة الأوربيين الآن ، هى أن الأولى لم تكن فى أى وقت مرتبطة بالنجاح السياسى للبلاد الاسلامية ، وأن حدود الدويلات التى نشأت عن انقسام الامبراطورية الاسلامية الخاضعة للخليفة كانت كثيرة التغير ، بسبب تغير الأسرات الحاكمة ، ولذلك لم يجد الناس بدا من أن ينظموا حياتهم بحيث لا تتأثر بتغير الحدود المستمر .

وفى العهد الساماني - كما قلنا من قبل - ظهرت بين الترك فى الصحراء مستعمرات اسلامية لم يكن للسامانيين يد فى ظهورها ، ولم تكن هذه المستعمرات خاضعة لهم ولكن للحكام المحليين من الأتراك ، وظهرت هناك شركات تجارية ، يتعامل بعضها مع بعض ، ومع أن بنوك التسليف من الطراز الحديث لم يكن لها وجود ، فقد كان من الممكن لمن يحمل سندا محررا فى بلد ما أن يقبض قيمته فى مدينة أخرى من قطر آخر .

ويروى فى كتاب أبى شجاع مؤرخ القرن الحادى عشر أن الحوالة التى يعطيها التجار كانت أسهل صرفا من الحوالة التى تعطيها الحكومة . ولما كان التجار الايرانيون أكثر عددا من غيرهم فقد شاعت الكلمة التى يستعملونها للدلالة على الحوالة . وهى كلمة « چك » ، شاعت بصيغتها الفارسية لا بصيغتها العربية « صك » ثم انتقلت الى غرب أوروبا ، وعم استعمالها فى عالم التجارة ، ولا شك أن الأتراك كانوا يشتركون فى الأعمال التجارية بآسيا الوسطى ، وقد كانت كلمة « أورتاق » بمعنى شريك تستعمل عند المغول فى العهود المتوالية ، وتدل هذه الكلمة على الدور المهم الذى اضطلعت به الشركات فى تجارة ذلك الزمان ، ومع ورود هذه الكلمة فى كتاب الكشفى ، فإنها لم تكن فى عهده تؤدى معنى « تاجر » ولكن كانت تدل فقط على الشريك ، ومن هنا يمكن القول بأن الشركات التجارية عند الترك بدأت تتطور بعد القرن الحادى عشر .

ولما كانت الحضارة الاسلامية تشغل فى ذلك الوقت المكان الأول بين الحضارات ، فقد كان أى صدام بينها وبين الحضارات الأخرى يؤدى فى النهاية الى توسيع ساحتها . ويختلف القارخيطاى عن المغول ، فقد وفد الأولون على آسيا الوسطى بعد أن أشربوا حضارة الصين ، ولذلك لم يستطيعوا أن يدخلوا فى الاسلام ، ومع ذلك فان تبعية

المسلمين في عهد القاراخطاي لحكام غير مسلمين ، أدت الى انتشار الدين الاسلامي في دائرة أوسع ، (ومع هذا فقد كان انتشاره في عهد القاراخطاي أضيق نطاقا في عهد المغول فيما بعد) .

وكما لم يكن للاسلام في زمان الكشغري أراض شمال امارة بالاساغون ، فلم يكن له شيء أيضا أثناء ظهور القاراخطاي . ولكن ولاية القارلوقى المسلم أرسلان خان ، ومدينة قاياليق ما لبثتا أن ظهرتا في شمال منطقة يدى صو قبل مضى قرن على ظهور القاراخطاي ، أى قبيل ظهور المغول . ولا يمكن الآن تحديد مكان قاياليق الا بطريقة تقريبية ، وقد مر السائح روبروق بهذه المدينة بعد قليل من عبوره نهر ايله في طريقه الى بحيرة « آلاكول » ، ويروى روبروق بهذه المناسبة أنه كان يرى — على بعد — بحيرة « بالخاش » ، ومن هنا يمكن الظن بأن الطريق في ذلك الوقت ، كان يمر بنقطة أقرب الى بحيرة بالخاش من طريق البريد الآن ، ولم تظهر مدينة قاياليق وحدها في عهد القاراخطاي ، بل ظهرت أيضا « امارة قالوق » وكان خان القارلوق تابعا للكورخان .

ولم يذكر الكشغري ولا قصص فتوحات القاراخطاي مدينة « الماليق » التى توجد خرائبها الآن فى شمال غرب مدينة « غولجة » ، ولم تكن هذه المدينة قبيل ظهور المغول فى قبضة الكورخان ، بل وقعت تحت حكم رئيس عصاية مناوئة له ، وكانت هذه العصاية تنتمى اما الى القارلوق ، واما الى أتراك قانكلى ، ويوجد هذا الخلاق فى النسب ، فى كل النسخ المخطوطة القديمة من (تاريخ جهانكشاي) للجوينى ، وهو المصدر الأساسى الوحيد لدراسة أحداث أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، ومهما يكن فقد كان حاكم الماليق مسلما .

وفى أواخر عهد القاراخطاي — وهم غير مسلمين — كان لهم وزراء مسلمون وظهرت كذلك فى عهدهم ولايات اسلامية فى أماكن لم تكن مسلفة من قبل ، ومع هذا فقد

بقى انتشار الاسلام نحو الشرق بطيئا نسبيا ، لان الاويغور كانوا يحولون دون ذلك ، وفي عهد المغول كانت حدود البلاد الاسلامية الواقعة الى الشرق من مدينة (كوجا) هي نفس الحدود في عهد محمود الكشغري ، وقد وردت بخصوص كوجا رواية فريدة عن أحد أبطالها وهو خضر بك الذي ذاع صيته بعد انتصاره على الأويغور الذين كانوا يعدون في ذلك الوقت أهل سلم وسلام لا قبل لهم بمواجهة الجنود الشجعان ، وقد أنعم خان كاشغر على خضر بك بلقب (خان) مكافأة له على صد هجوم الأعداء ، وأما في القسم الجنوبي من حوض نهر تاريم ، فقد تغير الوضع قليلا ، ففي عهد الكشغري كانت مدينة (جه رجه ن) هي حد بلاد الاسلام في تلك المنطقة ، ولكن ماركو بولو حين مر بها في القرن الثالث عشر ، كان سكان منطقة (لوب - نور) مسلمين *

الدور الذي لعبه الترك

ومن المسائل التي مازالت معضلة ، مسألة اشتراك الترك في حضارة آسيا الاسلامية : ما نوع هذا الاشتراك ! والى أى مدى أسهموا في تلك الحضارة ؟ لم يكن الترك في أى مكان تابعين كلية لحضارة العرب والایرانيين ، ولم يحدث في أى مكان أن تغل الأتراك عن لسانهم ، ومع هذا فإن تأثير المدنية العربية والایرانية على الترك كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية في أى مكان أن تصبح لغة رسمية أو لغة ثقافة ، فحتى القرن الثالث عشر كانت اللغة العربية لغة رسمية في آسيا الصغرى ، وهي أقصى بلاد الترك من ناحية الغرب وقد أشار الى ذلك كتاب فارسي مجهول المؤلف ، حرر في آسيا الصغرى في القرن الرابع عشر ولقد كنت في أول الأمر أشك في صحة هذا الخبر ، ولكن النقوش الموجودة بالأناضول كانت تكتب حتى القرن الثالث عشر باللغة العربية كما لاحظ ماكس فون بلخم ، وفي ذلك من غير شك تعزيز لما ذهب اليه ذلك الكتاب *

ومما يؤيد تأثر السلاطين السلاجقة بقصص البطولة الايرانية ، تسميهم بأسماء من قبيل كينحسرو وكيقباد ، ومع هذا فقد تصادف عندهم أسماء تركية خالصة تدل على أنهم لم ينسوا أصلهم التركي ، ولم يكن وضع سلاجقة ايران يختلف عن ذلك ، فعندهم صارت الفارسية بالتدريج لغة الادارة ولغة الثقافة ، وحتى في تركستان وهي تحت حكم القراخانيين ، كانت الفارسية تزاخم العربية ، في ميداني الادارة والأدب ، ومما يلفت النظر في هذا الباب ما حدث لكتاب (تاريخ بخارى) ، فقد حرر هذا الكتاب في عهد السامانيين - أي في القرن العاشر باللغة العربية ، ثم ترجم في القرن الثاني عشر الى الفارسية وقيل في سبب ترجمته الى الفارسية ، ان الناس لم يكونوا يميلون في ذلك الوقت لقراءة الكتب العربية وفقدت الكتب العربية منزلتها حتى في تدريس العلوم الاسلامية ، وظهر أساتذة كانوا يلقون الدروس بالفارسية ، ثم بدأت هذه اللغة تستعمل في التدريس للمبتدئين ، فيذكرون مثلاً عن مجد الدين عبد الغافر المولود سنة ٤٥١ ، وصاحب ذيل تاريخ نيسابور ، أنه قرأ أصول الاسلام بالفارسية وهو في الخامسة من عمره ، ومهما يكن فقد ظلت العربية لغة القضاء في بلاد القراخانيين ، وفي ولاية كاشغر ، حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ومن بقايا ذلك وثيقة قانونية نشرت في مجلة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ومعها ترجمتها الانجليزية ، وقد نشرت الترجمة التركية لهذه الوثيقة في العدد الأول من (تركيات مجموعة سي) وهي ترجع الى عهد بغراخان الذي كان يحكم حين ألف في كاشغر كتاب قوتا دغو بيليك . ومع ذلك فان الوثائق التي ترجع الى هذا العهد والى العهود التي تلتها تدل على أن اللغة التركية في عهد القراخانيين كانت الى حد ما لغة اصطلاحات ادارية ، ففي سمرقند مثلاً - ولم يكن بين سكانها على الأرجح ناطقون بالتركية - كانت توجد كلمات تركية في الاصطلاحات الحكومية ، فمثلاً كانت تضاف الصفة

التركيبية (أولوغ) الى كلمة (وريز) ثم اضيفت نفس هذه الكلمة الى عبارة (سلطان السلاطين) التي نقشت على عملة خانات سمرقند في نهاية القرن الثاني عشر .

وقد ظلت هذه الاسرة تستعمل الاسماء والالقاب التركيه حتى انقرضت ، وكان من عادة القراخانيين - اذا ولي الخان الملك أن يستبدل باسمه القديم لقباً جديداً يستعمل بدلاً من اسمه الخاص ؛ وهي عادة عرفت عن خانات الغز الذين كانوا يحكمون قديماً في منغوليا ، ومن هنا يصعب على المؤرخين عندما يجدون ألقاباً مختلفة منقوشة على عملة سكّت في وقت واحد ، وفي مكان واحد ، أن يعرفوا أترجع هذه الألقاب الى شخص واحد أم الى أشخاص مختلفين ، ولكن اللغة التركية مع هذا لم تكن فيما نعلم لغة الأدب في سمرقند ، فقد كان الشعراء الفرس يعيشون في سراي الخان وكانوا موطن عنايته واحسانه ، وكان الانتاج الأدبي باللغة التركية أكثر امكاناً في كاشغر منه في غيرها ورغم ذلك ، فان تأثير الأدب الفارسي كان أخذاً في القوة ، حتى لقد ألف هناك في القرن السابع عشر كتاب تاريخي باللغة الفارسية ، ولكن كثرة الأخطاء النحوية في هذا الكتاب تدل على أن مؤلفه لم يكن فارسي اللسان ، ولا معتاداً على استعماله .

كتاب قوتادغوبيليك

ففي كاشغر ألف للخان وباللغة التركية كتاب أخلاقي هو كتاب قوتادغوبيليك وذلك في سنة ٤٦٢ هـ « ١٠٦٩ - ١٠٧٠ » والمؤلف رجل من بالاساغون اسمه يوسف كان يعمل حاجباً في السراي ، وأما معنى هذا العنوان التركي « قوتادغوبيليك » فهو « العلم الذي يسعد » أو « العلم اللائق بالملوك » .

فان كلمة (قوت) أي (البخت والسعادة) كانت تستعمل في كل مكان وحتى في مواضع كثيرة من كتاب قوتادغوبيليك ، أداة للتعظيم مثل عبارة (صاحب الفخامة) وكان من المؤلف

قديمًا في الشرق - ومن جملة إيران - أن تؤلف الكتب الأخلاقية التعليمية للملوك وأصحاب المناصب ، ولكل الطبقات ، وأهم ما في هذه الكتب ما ترويه من الحكايات التاريخية والأسطورية التي يراد بها تأييد ما ترويه من النظريات الأخلاقية ، والنصائح ، ولكن كتاب يوسف البلاساغوني خال تمامًا من كل ذلك ، فليس به اسم واحد لشخص تاريخي وليس الملك « ايليك » الذي يتحدث عنه شخصًا حقيقيًا ، وإنما هو رمز للعدالة وأما الفضائل الأخرى فيمثلها وزير ايليك وابنه وأخوه ، ولا شك أن كتاب قوتادغوبيليك أقل قيمة من الكتب الفارسية المكتوبة بنفس الأسلوب .

وقد أشير في مقدمة الكتاب إلى أن الكتب كثيرة باللغتين العربية والفارسية بينما لا يوجد كتاب واحد باللغة التركية ، وتدل هذه الإشارة على أن الترك كانوا قد نسوا سريعًا الكتب التركية البوذية والمناوية والمسيحية ، والظاهر أن الشعر التركي الإسلامي الذي اكتشف بفضل كتاب محمود الكشغري لم يستطع أن يكون سببًا في ظهور كتب أدبية أخرى . هذا ولم يكن بد من أن يظهر الأدب التركي أول ما يظهر في كاشغر ، فقد كان أهلها كما يقول الكشغري يتحدثون أفصح لسان تركي وهو (التركي الخاقاني) ، بينما كان القرويون في نفس الولاية يتحدثون لغة (كنجاك) أي لغة السكان الأصليين الذين تتركوا فيما بعد ، ولم يكونوا أصلًا من الترك .

والآن نتساءل : إلى أي حد كان قوتادغوبيليك من حيث أسلوبه وطرز أدائه متصلًا بالتقاليد التركية القديمة ، ثم ماذا كان أثره على معاصريه ؟

إن لهذا الكتاب ثلاث نسخ كتبت أولًا بالحروف الأويغورية في هراة سنة ١٤٣٩ وكتبت الآخرين بالحروف العربية ، وتوجد أحداها في القاهرة ، والآخرى في فرغانة .

وأما الأبجدية التي سطر بها المؤلف كتابه أولاً وهل هي الأويغورية أم العربية ؟ فإن ذلك مازال حتى الآن موضع جدل ، ولا شك في أن اسم الكتاب ، واستعمال كلمة (قوت) (بمعنى صاحب الجلالة) يدلان على أن أثر الاسلام ، وأثر ايران لم يكونا قويين في كاشغر ولم يستطعا اخراج اللسان التركي من سراى الخان .

وفي العهد المغولي — أى بعد زمان قليل من تأليف الكتاب — كان اسمه « قوتادغوبيليك » مستعملاً عند المغول ، كانوا يطلقونه على مجموعة من الحكم تنسب الى جنكيزخان ، وكانت تعتبر — مثلها كمثلى الياسا — مصدراً للقوانين المطبقة فى امبراطورية المغول ، ثم فى الدويلات التى قامت على أنقاضها ، ويرى من كلام ابن عريشاه وهو من رجال القرن الخامس عشر ، أن كلمة قوتادغو كانت تستعمل عند المغول ، وكانت تعتبر كذلك اسماً للأبجدية الأويغورية وقد أخطأ ابن عريشاه حين خلط بين كلمة « قوتادغو » وبين اسم القبيلة التى ينتمى اليها جنكيزخان ، فانه بدلاً من أن يقرأها « قيات » قرأها « قئات » ، ويقول البعض ان قوتادغوبيليك بفراخان أثر على المغول من ناحية عنوانه على الأقل ، وأنه كان سبباً فى ظهور قوتادغوبيليك جنكيزخان .

ولكن ، لم يبق أدنى شك — بعد أن نشر كتاب الكشغرى — فى أن رعايا القراخانيين من الترك ، لم يكونوا يسمون أنفسهم « أويغور » ، ولم يبق شك أيضاً فى أن يوسف البلاساغونى لم يحزر كتابه بالأويغورية ، وأنه لمن المستحيل أن يكون الأويغور — وكانوا يحتفظون بالبوذية والنصرانية — قد تأثروا بقوتادغوبيليك مع سريان الروح الاسلامى فى كل تفصيلاته ، وأن يكونوا قد أثروا بدورهم على المغول ، بهذا الكتاب الذى أخذوه عن القراخانيين المسلمين .

وقد كتب (قوتادغوبيليك) قبل أن يشرع محمود الكشغرى فى تدوين كتابه بسنتين فقط ، فهل زآه الكشغرى

أم لم يره ؟ ان الكشغرى نفسه لم يجب عن هذا السؤال ، ولكنه يقول ان كتابه اللغوى ليس له نظير فيما كتب من قبل ، ولم يكن المستشرق مارتن هارتمان يرى فروقا أساسية بين كتاب يوسف البلاساغونى وكتاب محمود الكشغرى ، وكان ينسب الأول الى أدب السراى ، والثانى الى الأدب الشعبى ، ولا بد أن تكون هذه الدعوى خاطئة ، فقد رأينا من قبل أن من بين ما يورد الكشغرى من الأشعار أشعارا خاصة بالسراى ، ورأينا من ناحية أخرى أن يوسف البلاساغونى قد أفاد - فى نصائحه الأخلاقية - من الحكم أو الفلسفة الشعبية ، بل ان بعض الفقرات المتفرقة فى (قوتادغوبيليك) هى هى عينها نماذج الأدب الشعبى التى يدرجها محمود الكشغرى ، ولا شك أن من قرأ قوتادغوبيليك سيذكره فى الحال عندما يقرأ فى كتاب الكشغرى عبارة (اردم باشى تل) أى (رأى الحكمة فى اللسان) .

ومما يدل على أن قوتادغوبيليك كان بعيد الصيت فى عهده (رغم أن نسخة التى كشفت حتى الآن قليلة العدد) ، أنه عثر فى مكان اسمه (سرايىق) بالقرب من مصب نهر (يايىق) على زهرية من الفخار نقشت عليها أبيات منه ومنذ عهد قريب عثر فى تركيا على كتاب عنوانه (هبة الحقائق) أو (عيبة الحقائق) ونشر هناك . ويتناول هذا الكتاب - وهو يرجع الى عهد أحدث من عهد قوتادغوبيليك نفس الموضوع الذى يتناوله هذا الأخير ، فهو يحتوى على نصائح أخلاقية عادية ليس بينها وبين وقائع الحياة الحقيقية أية علاقة .

ومؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن محمد يوكناكى ، كتبه بلغة كاشغر وأهداه الى الأمير دادسبهسالار بك . ويدل كشف هذا الكتاب على أن قوتادغوبيليك لم يكن نسيج وحده ، كما يدل على وجود عهد أدبى خاض فى الأدب التركى هو (العهد الكاشغرى) ولا بد أن أثر هذا العهد كان ضعيفا جدا على أدب العهود التى أعقبته .

التأثير الصيني

وكانت آثار الصلات الوثيقة القديمة بين الترك وحضارة الصين لا تزال حية في ذلك الوقت ، ولم تكن قاصرة على استعمال لقب خان ، بل يفهم من كتاب الكشغري أن القاراخطاي كانوا يستعملون على عهد كلمة (تايانكو) وهي اسم صيني يقابل الكلمة العربية (حاجب) ، ويقال أيضا أنه مشتق من المصدر التركي (ته يه نمه ك) بمعنى الاعتماد والائتمان ، وقد استطاعت كلمة (قونجوى) الواردة فى نقوش أورخون ، والمقابلة للكلمة العربية (أميرة) ، أن تواصل سيرها حتى زمان محمود الكشغري ، ولكن كلمة (خاتون) كانت تدل فى ذلك الوقت على معنى اسمى من كلمة (قونجوى) .

ومن بين الكلمات الكثيرة الواردة فى كتاب الكشغري والدالة على آثار الحضارة المادية كلمة (ألاتو) وهي كلمة مهمة يفسرها الكشغري بقوله : قطعة حرير يمسك الرجل فى حجره (جيبه) لينظف بها أنفه (ديوان لغات الترك ج ١ ص ١٢٢) .

ومن المعروف أن منديل الأنف لم يكن يستعمل فى العصور القديمة والمتوسطة لا عند اليونان القدماء ولا عند المسلمين ، ولكنه كان يستعمل منذ أقدم الأزمنة فى الصين والتايان ، ولم يستعمله الأوروبيون إلا فى القرن الخامس عشر ، بعد أن عرفت حضارة الشرق الأقصى .

ولكنه كان يستعمل قديما فى منغوليا ، ولا بد أن يكون الترك قد استعملوا المنديل فى القرن الحادى عشر ، ثم بقى لهم فيما بقى من آثار حضارة الشرق الأقصى بعد أن تقلص نفوذها .

وكان مركز الأدب التركى الاسلامى بعد العهد الكشغري هو الأماكن الواقعة جنوب نهر سيحون والتي تضم خوارزم ، وسأبين فى المحاضرة القادمة أهمية هذه الأماكن فى تاريخ الترك .

المخاضرة الثامنة

علاقات الخوارزمشاهيه بالمغول

تتريك خوارزم

رأينا فيما تقدم أن التجارة بين خوارزم وبين الأقاليم البدوية في آسيا الوسطى كانت أهم لخوارزم منها للولايات المتحضرة الأخرى ، وذلك بسبب وضعها الجغرافى ، وكان من الطبيعى أن يؤثر هذا الوضع نفسه على سكان خوارزم من الناحية الأثنوغرافية واللغوية ، ويبدو أن هذا الأثر كان موجودا منذ كان جيران خوارزم بدوا من أصل إيرانى .

ومما يجدر ذكره أن بعض العلماء حاول أن يرجع أصل الخوارزميين إلى شعب (اللان Les alains) الذى كان يقطن فى الصحراء الممتدة من منابح سيجون إلى منابح نهر دون وبعد أن تتركت هذه الصحراء تعرض الخوارزميون أكثر من غيرهم للتأثر بالترك ، وقد كانت لغة الخوارزميين فى العصور الإسلامية الأولى لغة إيرانية ، وإن لم تكن مفهومة عند باقى الإيرانيين ، ولم تكن لغة حديث وحسب ولكن كانت لغة أدبية ظلوا يكتبون بها حتى القرن الحادى عشر . ومهما يكن فإن الكلمات التى توصف فى المعجمات الفارسية بأنها كلمات خوارزمية ، هى فى جملتها كلمات تركية خالصة وبالإضافة إلى هذا ، فقد ورد أن الخوارزميين فى القرن العاشر يشبهون الترك فى أزيائهم .

ويقرر المؤلفون الذين كتبوا عن خوارزم فى القرن الثالث عشر ، أى فى العهد المغولى أنها كانت من حيث اللغة — تركية تماما ومعنى هذا أن الخوارزميين تتركوا فى الفترة بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، وهى الفترة التى خضعت فى أثنائها للأمراء التابعين لسلطين السلاجقة ، وكان هؤلاء الأمراء — على نشأتهم التركية — يحتفظون باللقب

الایرانی القديم (خوارزمشاه) وقد تأسست دولة هؤلاء الخوارزميين في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر وكانت أسماء أكثرهم تركية .

وفي عهدهم صارت خوارزم للمرة الأولى والأخيرة في تاريخها مركزاً لدولة كبيرة ، وكانوا — وهم لا يزالون تحت حكم السلاجقة — يسيطرون بالتدريج على القسم الشرقي من العالم الإسلامي ، حتى أنهم لما انقرضت دولة السلاجقة أنكروا على خليفة بغداد أن يسترد سلطته الزمنية عليهم ، وكان قد فقدوها مؤقتاً في منتصف القرن الثاني عشر . وادعوا أنهم ورثوا كل ما كان للسلاجقة من حقوق بوصفهم (سلاطين الإسلام) ، بل طالب المتأخرون منهم بأن يعترف بسلطانهم في بغداد كما كان معترفاً بسلطان السلاجقة من قبل .

وكانت خوارزم في ذلك الوقت متأثرة بالمدينة الإيرانية ، وكان من بين الخوارزميين شعراء وعلماء يكتبون بالفارسية وإلى هذا فقد كانت لغة المعاملات الرسمية في عهد الخوارزمشاهيه ولكنها — كما حدث في الصفديانة — لم تحل غالباً محل لغة الخطاب عند جمهرة الشعب الخوارزمي ، بل بقيت اللغة الخوارزمية في الغالب لغة الشعب إلى أن تخلت عن مكانها في نهاية الأمر للغة التركية .

ولابد أن تكون حركة التترك قد أدركت مبكراً المستعمرات الحضرية بحوض نهر سيحون ، وهي المستعمرات التي أقام الخوارزميون بعضها ، وأقام الصفد — في الغالب — بعضها الآخر ، وآية هذا أنه وجدت هناك في القرن الحادي عشر مدن يسكنها الترك : فيذكر الكشغري من مدن الغز مدينة صاوران (كانت هذه المدينة التي مازالت موجودة إلى الآن إحدى مدن الحدود في عهد السامانيين) ثم مدينة (صوغناق) ، (وكانت في القرن الثاني عشر عاصمة لبلاد القبجاق غير المسلمين ، وتسمى خرائبها الآن صوناق قورغان) .

وفى الجنوب الشرقي من (صافوران) وبينهما وبين فاراب او (أوترار) يذكر جغرافيو القرن العاشر مدينة (شاوغار) وبالنظر الى المسافة المذكورة يكتب الجغرافيين يمكن القول بأن هذه المدينة كانت فى مكان مدينة (تركستان) الحالية ، ومع أن كلمة (شاوغار) كلمة إيرانية فانا لا نعلم أكان سكانها فى القرن العاشر تركا أم إيرانيين . وفى نص لابن حوقل أن الحملة التى قام بها نصر بن أحمد الساماني (٩١٤ - ٩٤٣) على رأس ثلاثمائة ألف جندي (فى هذا العدد مبالغة) ، كانت موجهة ضد هذه المدينة ، فان صح ذلك فانه يدل على أنها كانت عاصمة لحاكم قوى ، ولكن اسم هذه المدينة يرد فى نسخ الاصلطخرى - وهو مصدر ابن حوقل - بصورة مغايرة تماما ، فمن أجل ذلك ، وبما أن المصادر الأخرى لم تذكر شيئا عن هذه الحملة فان وجهة هذه الحملة مازالت محلا للسؤال . وكانت توجد فى حوض سيحون مدينة أخرى باسم (شاوغار) تقع على بعد أربعة فراسخ (٢٤ كيلو) جنوبى مدينة (اوليا آتا) ، وأما عبارة السمعاني : (ناحية ثغور الترك) - (هذه العبارة منقولة من مصدر عن مصادر القرن الحادى عشر) ، وعبارة ياقوت (من بلاد الترك) (أخذها ياقوت عن عمراني وهو من مؤلفي القرن الثانى عشر) فيمكن اسنادهما الى كل من المدينتين اللتين تحملان اسما واحدا .

أحمد اليسوى

ولم يذكر السمعاني ولا ياقوت مدينة ياسى (Yasi). أو يه سى Yesi التى كانت تقع فى مدينة تركستان الحالية ، رغم أنها كانت موجودة فى القرن الثانى عشر حيث ذاع صيت أحمد اليسوى أو (الياساوى) الذى نشأ أو على الأقل عاش فيها ، ومات . وقد توفى اليسوى فى ٥٦٢ هـ (٧ - ١١٦٧) ، وفى رواية أخرى أن أحمد اليسوى نشأ فى صايرام . ولا يمكن أن يكون المراد هو مدينة صايرام

الواقعة بشرق تركستان (لان هذه المدينة لم تكن وجدت في ذلك العصر ، بل أنشئت في القرن السادس عشر * أنشأها المهاجرون من صايرام بغرب تركستان) بل الراجح انها صايرام الواقعة الى الشرق من جيمكه نت Tchimkent الحالية بغرب تركستان والمعروفة أيضا باسم (اسفيجاب) و (اق شهر) المذكورتين في كتاب الكشغري *

ولابد أن يكون أحمد اليسوى الذى يلقبه الترك (آتايىسوى) ذا أثر كبير فى نشر الاسلام والتصوف بينهم * وقد انتشرت أشعاره التركية المفعملة بالروح الصوفى بين الشعب ، ومازال الشعراء الشعبيون فى آسيا الوسطى يتأثرون خطاه حتى الآن *

ولكن أشعاره هذه لم تصل لنا - بسبب شعبيتها - بشكلها الذى كتبت به أول مرة * وذلك أن النساخ الذين كتبوها كانوا يحورون لغة النسخة الأصلية بما يلائم عصرهم * وكانوا يضيفون اليها من عندهم * وأما ترجمة حياة أحمد اليسوى فلا نعرفها الا من الحكايات الخرافية المتأخرة ، وتروى هذه الحكايات أن سلف أحمد اليسوى ولى تركى اسمه (أرسلان بابا) أو (باب أرسلان) (من المعلوم أن كلمة باب كانت تطلق على المبشرين المسلمين فى تركستان) * وكان منصور آتاب أرسلان بابا كبير خلفاء أحمد اليسوى ، أما أحمد اليسوى فكان الخليفة الثالث للمتصوف الايرانى يوسف الهمدانى الذى هاجر من همدان الى تركستان ، وقد عاش الهمدانى سنوات كثيرة فى مرو شيخا للصوفية وتوفى سنة ١١٠٤ هـ ، ويقرر كاتب حياة الهمدانى ، أنه لم يعرف التركية أبدا ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يتخذ مؤسس التصوف التركى تلميذا له ، وكان ثانى خلفاء يوسف الهمدانى ، أى السلف المباشر لأحمد اليسوى هو الشيخ أبو محمد حسن بن حسين الأنداقى ، ويمدنا السمعانى ببعض المعلومات عن هذا الانداقى المتوفى سنة ١١٥٧ والذى كان صديقه ومعاصرا له ، ولكن السمعانى لا يقول شيئا عن اليسوى بل لا يذكره

في كتابه المخصص للأنساب ، وبخاصة أنساب علماء الدين .
اذ ليس بهذا الكتاب نسبة (يسوى) .

وتدل القبة الفخمة التي أقامها تيمور فوق قبر أحمد
اليسوى قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، على أن اليسوى ظل
مدة طويلة مقدسا كصوفي تركى فى حوض نهر سيحون ،
وليسوى مريدون وخلفاء كثيرون يكتبون بالتركية ، ويحملون
لقب (أتا) ومن بين هؤلاء (حكيم أتا) او (سليمان باقرغانى)
الذى كان يزاوئ نشاطه فى خوارزم ، والذى كتب بالتركية
مجموعة من النصائح الصوفية كالتى كتبها أحمد ، الا أنه
كتبها نثرا ، وكتبها أحمد شعرا ، وكانت كلماته - مثل
كلمات أحمد اليسوى بسيطة تخاطب جمهرة العوام .

الأتراك وحضارة خوارزم

ويهمنا الآن أن ندرس الحياة فى خوارزم اثناء الفترة
التي تم فيها تركها ، وبهذه الدراسة نستطيع الاجابة عن
هذا السؤال : الى أى حد كان تكاتف الترك التدريجى فى
خوارزم سببا فى سقوط الحضارة ؟

كان المستشرق الألمانى نولدكه أكثر المستشرقين مبالغة
فى القول بأن العنصر التركى عدو للحضارة ، ثم فى الارتكاز
على هذه النقطة وحدها للحكم على كل الأدوار التاريخية التى
لعبها الترك ، فعنده أن فتح الترك لبلاد السامانيين كان
أفدح مصيبة رميت بها هذه البلاد . وقد كرر هذه الدعوة
منذ زمن قريب (١٩٢٤) على صفحات «اسلام Der Islam» فقال ان
دخول الترك فى العالم الاسلامى المتحضر بعد سقوط دولة
السامانيين الايرانية كان نكبة هائلة فى تاريخ العالم كله ،
وقد كانت خوارزم نموذجا للبلاد المتمدينة التى لم تخضع
للحكم التركى من الناحية السياسية فحسب ، بل قبلت أيضا
أن تعدل اللغة التركية محل لغتها القديمة ، ومع هذا فمن
المتعذر أن نورد وقائع تدل على أن خوارزم كانت أقل حضارة
فى القرن الثالث عشر (أى فى عهد الحكم التركى) منها فى

الفرنين العاشر والحادي عشر (اى قبل الحكم التركى) ويدل كلام ياقوت عن خوارزم - وقد أقام بها قبيل الغزو المغولى مباشرة - على رقى الحياة الحضريّة ، وعلى زيادة الاراضى الزراعيّة ، وخاصة فى الجنوب الغربى من المنطقة * وتقرر مصادر أخرى أن تجار خوارزم كانوا يزاولون نشاطهم التجارى ونفوذهم فى أماكن من آسيا الوسطى ، أبعد من الأماكن التى كانوا يتعاملون معها من قبل ، ويدل على ذلك أن سفيرا من قبل جنكيزخان وصل الى محمد خوارزمشاه فى سنة ١٢١٨ واسم هذا السفير (محمود الخوارزمى) ، ومن المحتمل أن يكون هو نفس (محمود يلواج) اى (السفير محمود) الذى كان واليا على بكين فى العهد المغولى والذى كان ابنه مسعود بك يحكم البلاد المتحضرة بآسيا الوسطى * .

ويمكن أن نفرض - استنادا الى أن مسعود كان يحمل لقب بك والى أن ابنه كانا يحملان اسمين تركيين خالصين هما (ساتلمش) و (سيونج) - أن مسعودا وأباه كانا من أصحاب اللسان التركى ، ويشهد على الرقى الفكرى بخوارزم أن المذهب المعتزلى المعتمد على العقل والفكر انتشر بها منذ القرن الحادى عشر * ثم بلغ كماله فى القرن الثالث عشر ، ويروى علماء العرب الذين يتحدثون عن التقدم الفكرى بخوارزم ، أن المناظرات الدينية كانت تدور هناك فى أدب جم ، بعيدة عن التعصب ، فاذا استعمل مناظر أثناء دفاعه عن رأيه كلمة نابية قوطع فى الحال * .

ولا شك أن بقاء الاعتزال بخوارزم بعد الغزو المغولى دليل واضح على تأصله وبعد جذوره ، وخاصة أن هذه البلاد قد تعرضت - بسبب مقاومتها العنيدة للغزو المغولى سنة ١٢٢١ - الى التخريب والتدمير ، ومع أن مساحة الأراضى الزراعيّة فى القرن الرابع عشر كانت أقل منها قبل الغزو المغولى ، ولم يمكن اعادتها الى ما كانت عليه ، فقد بعثت مدينة (أوركانج) عاصمة خوارزم (وهى حاليا أوركنج

الفدييمة) بعد بضع سدين من حوادث ١٢٢١ ، وأعيد تعميرها في نفس مكانها القديم . حتى لقد كان الرحالة المسلمون والاوربيون يعتبرونها إحدى كبريات المدن الواقعة على الطريق التجارى بين غرب آسيا وأوربا ، وبين الشرق الأقصى ، فقال عنها السائح العربى ابن بطوطة وقد زارها ١٣١٣ أنها من أكبر مدن الترك وأهمها وأجملها . وبعد الغزو المغولى كانت خوارزم والمدن المتصلة بها حضاريا والواقعة فى الوادى الأدنى لنهر سيحون ، مجالا للنشاط الفكرى والأدبى كما كانت قبل الغزو ، وقد ذكرت - فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان - أسماء كثير من الكتب التى ألقت فى خوارزم وما جاورها ، مع أسماء مؤلفيها . وأعتقد أن مكتبات استانبول يمكن أن توسع هذه المعلومات التى يمدنا بها بروكلمان وتكملها .

ومعظم هذه الكتب دينى ، ولقد قيل لى ان جملا بلغة خوارزم قد وردت بأحد هذه الكتب ، وأملنا كبير فى أن تنشر هذه الآثار قريبا .

ومن بين العلماء الذين نشأوا فى خوارزم أو زاولوا نشاطهم فيها خلال القرن الثانى عشر ، عالمان مشهوران فى أرجاء العالم هما الزمخشري والشهرستاني ومن العبث أن نتنظر من علماء من أمثال هذين العالمين أن يكشفوا فى ذلك الوقت عن شعورهم القومى أو المحلى ، ومع هذا فمن اللافت أن (محمد بن قيس !) قدم لجلال الدين آخر سلاطين الخوارزمشاهية (الذى ترك خوارزم فى أوائل سنة ١٢٢١ ، وهرب فى نوفمبر من نفس السنة الى الهند ، وبدأ ينشط فى غرب ايران سنة ١٢٢٣ ، وفى سنة ١٢٣١ مات وهو يحارب المغول) كتابا كبيرا عن اللغة التركية ، ولا علم لنا بشيء عن هذا المؤلف ، والغالب أن كتابه عربى ، وهو محرر بعد كتاب الكشغرى ، فيعتبر بذلك الكتاب الثانى عن لغة الترك ولكنه - من أسف - لم يصل إلينا ولم ندر

بوجوده الا لأن جمال الدين بن المهنا الذى حرر كتابه فى العهد المغولى رجع اليه فى موضعين .

الأدب التركى الجغتائى

ومن الواضح أن الترك بعد توطنهم فى خوارزم تمنلوا حضارتها الراقية بالنسبة الى زمانها ، ثم أفادوا منها فى النهوض بالأدب التركى الاسلامى فيما بعد . ولو لم يكن لخوارزم حضارة تركية قبل العهد المغولى ، لصعب علينا أن نفهم الدور الذى لعبته خوارزم والآلتون أوردو بوجه عام فى الأدب التركى بعد ظهور المغول .

ففى سنة ١٣٥٣ كتب شاعر خوارزمى من الآلتون أوردو كتابا بنفس اللغة التى عرفت فى عهد التيموريين (بلغة جغتائى) .

ومع أن المؤلف يتخلص فى هذا الكتاب باسم (خوارزمى) فالراجح أن الكتاب حرر فى جنوب روسيا العالى لا فى خوارزم . وأستطيع أن أقول الآن وأنا فى استانبول أن مؤلفين كثيرين سبقوا هذا الشاعر الخوارزمى الذى ألف كتابه فى عهد جانبك خان ، فقد وصل الينا أثر أدبى آخر كتب قبل ذلك فى عهد (تينى بك خان) الأخ الأكبر (لجانبك خان) وفى هذا الكتاب يلقب تينى بك بالأمير ، دلالة على أن الكتاب حرر فى عهد أبيه أوزبك خان أى قبل سنة ١٣٤٠ ، وفى القرم — ولم يكن بها مسلمون قبل عهد المغول ، — كتبت قصة (يوسف وزليخا) — ولم تصلنا هذه القصة فى لغتها الأصلية ولكن مترجمة الى اللغة التركية الجنوبية التى ظهرت فى عهد المغول ، ثم سميت فيما بعد اللغة العثمانية ، وإلى هذه اللغة ترجمت كتب أخرى .

ففى القرن الخامس عشر ترجم فى مصر كتاب أبى نصر السرخسى فى العقائد وذلك عن نسخة مكتوبة باللغة التترية وهم ، اللغة الأدبية للآلتون أوردو ، وهى نفس اللغة التى

كتبت بها قصة يوسف وزليخا ، وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر عاش في بار جكند (وتعرف باسم بارجين اربارجينلغ) بالحوض الادنى لنهر سيحون فقيه كبير اسمه حسام الدين حامد بن عاصم البارجنليغى وكان يؤلف باللغات العربية والفارسية والتركية ويقول عنه (جما قرشى) وقد صحبه شخصيا - ان انتاجه العربى فصيح والفارسى مليح ، والتركى صحيح ، وهذا الذى يقول (جما قرشى) هو فيما نعلم أول مقارنة بين اللغات الثلاث ، بوصفه لغات العالم الاسلامى ، وقد ولد القرشى فى (المالىق) (حوا) سنة ١٢٣٠ ، وقضى معظم حياته فيما بعد فى كاشغر وعرف حسام الدين فى بار جكند سنة ٦٧٢ (١٢٧٣ - ٧٤) ويمكن أن نستنتج من قول جمال قرشى أن حضارة الألتو، أوردو كانت حتى فى القرن الثالث عشر ، تؤثر على حضارة تركستان ، وقد ظل هذا التأثير مجهولا عند أتراك أسب الوسطى وعند علماء أوربا حتى العهد الأخيرة ، وفى أوائل القرن السادس عشر ، كان يابرميرزا يتصور أن شاعر اللغة الجغتائية على شيرنوائى كان يكتب بنفس اللغة التى يتحدث أهل مدينة انديجان بفرغانة ، وفى سنة ١٨٨٨ ، حاو رادلوف أن يخطئ بابر ، وأن يثبت أن اللغة الجغتائية كانت تصطنع فى الكتابة الفنية فقط ، ولا علاقة لها بأية لغة من لغات الخطاب المحلية * وكان رادلوف - مع هذا - يرى أن هذه اللغة الأدبية نشأت بتأثير اللغة الأدبية الأويغورية القديمة ، التى ظلت لغة التأليف حتى سنة ١٣١٠ حيث أنهى بها كتاب قصص الأنبياء * أى أن اللغة الجغتائية ظهرت نتيجة للنفوذ الثقافى الذى زاو له الشرق على الغرب (قا رادلوف ذلك قبل أن تكشف نقوش أورخون) *

وتدل فرمانات (يارليغ) التى حررت فى أواخر القرن الرابع عشر ، فى عهد طوقتامش وتيمور قوطلوغ أن اللغة الجغتائية كانت منتشرة فى ذلك الوقت فى دو القبيلة الذهبية ، ولا بد أن يكون رادلوف قد ظن أن انتشار

هذا حدث فى نفس القرن الرابع عشر ، أى أيام تحرير هذه
الفرمانات ، فهو يقول ان احد اصحاب العلم بلغة جغتاي هو
الذى حررها .

ولم يكن من الصعب فى ذلك الوقت تصور ظهور ادب
لغة القبيلة الذهبية بتأثير اللغة الجغتائية ، بل كان الصعب هو
أن نتصور ظهور لغة جغتاي بتأثير دخول القبيلة الذهبية فى
تركستان .

ولم يكن ممكنا - لولا الغزو المغولى - أن تظهر لغة
جغتاي الأدبية ومعلوم أن لهذا الغزو وضعاً خاصاً فى تاريخ
العالم فمع أن غارات البدو على البلاد المتحضرة أمر مألوف ،
الا أننا لم نر قوماً آخرين من البدو استطاعوا أن يغزوا فى
مدة قصيرة البلاد المتحضرة فى الشرق الأقصى وغرب آسيا
وشرق أوروبا .

ولم يكن بد اذن من أن يكتب شىء عن المغول فى كل
البلاد التى فتحوها ، ومن هنا كانت المصادر التاريخية أحفل
بالمعلومات عن عهد المغول منها بالمعلومات عن العهود التاريخية
الأخرى .

ففى البيئات العلمية بغرب أوروبا فاق الاهتمام بتاريخ
دولة المغول الاهتمام بكل الدول الشرقية فى العصور
الوسطى ، ومع هذا فلا يمكن القول بأن المسائل والمشكلات
المتعلقة بتكوين هذه الدولة قد حلت ، فمن المسائل التى
تهمنا مثلاً مسألة الحرب بين جنكيزخان ومحمد خوارزمشاه :
ما سببها ؟

كثيراً ما ينظر الى هذه المسألة من حيث ارتباطها بخطة
جنكيزخان للفتح والغزو ، وكثيراً ما يقال ان خطط جنكيزخان
- اذا لم تكن بتحريض من دول أجنبية - فقد كانت على الأقل
تلقى تأييداً من الخارج وبخاصة من خليفة بغداد الناصر ،
ذلك ، على حين أن الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الاسلامية

عن هذه الحرب يدل على ان محمد خوارزمشاه سبب هذه الحرب ، أو على الأقل ، عجل قيامها .

كان المتأخرون من الحوارر مشاهية يريدون ان يكونوا (سلاطين الاسلام) ومن هنا ، فقد كتبوا على انفسهم - بالاضافة الى حماية الدين الاسلامي ، وأسس العدالة في داخل البلاد الاسلامية - أن يحرروا بقدر امكانهم المسلمين الخاضعين للكفار .

وفي عهد محمد خوارزمشاه كانت الظروف مواتية لتطبيق هذه السياسة ، فقد سقطت دولة كورخانات القاراخطاي ، وظهرت الثورات في الولايات الاسلامية الخاضعة لحكمهم ، وليس بين أيدينا ما يدل على اسباب هذه الثورات ، ولا على كيفية قيامها ، والظاهر أن أول من ثار من ملوك المسلمين ضد الكورخان هو سلطان ختن فانه - ولا شبهة في اسلامه ولا في تركيته - لم يذكر الا بمناسبة ثورة قام بها . (ولم تصل اليها أية مسكوكات ضربت في عهد ختن قبل عهد المغول) وفي نفس الوقت ثار الأهالي في بخارى بالقسم الغربي من ممتلكات الكورخان ضده وضد الحكام المعينين من قبله ، وقبل ذلك بقليل انتقلت السلطة كلها في بخارى الى أيدي زعماء رجال الدين بالمدينة المنتمين الى (آل برهان) والذين كانوا يحملون لقب (الصدر) واستقلت بخارى تماما عن الخانات المقيمين بسمرقند ، وكان هؤلاء الصدور يتصلون بالكورخان مباشرة ويجمعون الضرائب لتقديمها له بأنفسهم أي أن أسلوب الحكم في عهد الكورخانات وفي عهد المغول - طبق على هؤلاء الصدور في أحسن أشكاله ، وأكثرها ملاءمة ، ولكن حكم هؤلاء الصدور زال تماما نتيجة لثورة الشعب على الأرستقراطية المحلية ، وكان قائد الثورة هو رئيس الصنائع بالمنطقة ، وقد اتهم هو نفسه بأنه كان يناوئ الحكام السابقين بعنف ، مما يكشف لنا عن ماهية هذه الثورة وأوصافها ، ولعل الأمر اللافت في هذه الثورة هو أن

(الصدور) مع اعتمادهم في الحكم على سلطتهم الروحية ، طلبوا - من أجل التغلب على الثوار - مساعدة الكفار من القاراخطاي ، ومع أن القاراخطاي قد أسعفوهم ، فلم يذن ذلك الاسعاف بارسال قوة عسكرية ، ولكن باصدار بعض الأوامر والفرمانات ، التي لم تؤت أثرا ، بسبب اضمحلال دولة القاراخطاي .

واستغل محمد خوارزمشاه أحداث بخارى فأغار غارته الأولى على القاراخطاي في خريف سنة ١٢٠٧ ، وبينما كان من المتوقع أن يظاهر ثورة بخارى لأنها هي أيضا ضد الكورخان ، اذا هو يأسر رئيسها الذي عجز فيما يظهر عن مقاومته ، وعاد به أسيرا الى خوارزم . وفي نفس الوقت بدأ محادثاته مع خان سمرقند الخاضع للكورخان - وكان الحاكم القراخانيان الأخيران لسمرقند ، وهما ابراهيم وابنه عثمان يحملان لقباً طنانا هو (سلطان السلاطين) .

وكان ابراهيم ينقش على عملته الكلمة التركية (أولوغ) بالإضافة الى هذا اللقب العربي . وليس لدينا - غير هذه العملة - دليل على أن هؤلاء الخانات من أصل تركي ، ولكن عوفي المبورخ الايراني المعاصر لهما يذكر لقبيهما كاملين هكذا : (قليج طمغاچ خان) و (قليج أرسلان خان خاقان) وكذلك ليس لدينا دليل على مدى أهمية العنصر التركي بين قوات هذين الخانين العسكريين ، ومهما يكمن فمما تجدر ملاحظته أن البحيرة التي يصب فيها نهر زرفشان كانت تسمى منذ ذلك الوقت بحيرة (قاراكول) ويمكن أن نستدل بهذه التسمية على أن العنصر التركي كان موجودا في ذلك الوقت بولاية بخارى ، أو على الأقل في أجزائها المجاورة للصحراء والقريبة من خوارزم .

ولم تكن غارة خوارزمشاه سنة ١٢٠٧ حسنة العاقبة ، إذ لم تلبث البلاد التي فتحها أن عادت الى حكم الكورخان ، ولم يستطع محمد خوارزمشاه أن يغلب القاراخطاي الا في

سنة ١٢١٠ على مقربة من طالاس ، ومع هذا فلم يكن نصره حاسما لأن المسلمين الخاضعين للكورخان لم يتحدوا ولم ينضوا تحت لوائه ، ولم يستطع من ناحية أخرى أن يقدم أية مساعدة لأهالي بالاساغون حين تاروا ضد الكورخان . ولكنه - على كل حال - أفاد من نصره فأضفى على حكمه مظاهر العظمة وسمى نفسه (السلطان سنجر) وهو اسم آخر سلاطين السلاجقة وأقواهم ، وأضاف الى لقبه أيضا اسم (اسكندر) أى الاسكندر المقدوني . وتدل هذه الألقاب على أنه لم يكن يقنع بالفتوحات المفروضة عليه بوصفه (سلطان الاسلام) ، بل كان يريد أن تشمل فتوحاته العالم كله .

التتار

ومع هذا ، فإن مصير دولة القاراخطاي كان أكثر تأثرا بالزحف المغولي من الشرق منه بتحركات خوارزمشاه ، ففي ذلك الزمان زحف التتار الأول كما يقول ابن الأثير ، اذ خرجوا من منغوليا تحت ضغط جنكيزخان ثم ما لبث جنكيز نفسه أن خرج ومعه عساكره ، ويقول المؤرخ رشيد الدين ان اطلاق كلمة تتار على نطاق واسع يرجع الى قوة التتار الحقيقيين الذين كانوا يعيشون ذلك الوقت حول بحيرة (بوير نور) . Bouir Nor

أما الآن فانا نعلم ان استعمال هذه الكلمة على هذا النطاق الواسع يرجع الى زمن أبعد من ذلك ، يرجع الى عهد نقوش أورخون أى الى القرن الثامن وقد ورد هذا الاسم فى القرن العاشر فى مخطوطة تومانسكى ثم ورد فى القرن الحادى عشر فى كتاب الكشغرى ، ويحتمل كثيرا أن يكون هذا الاسم علما على الناطقين باللغة المغولية بوجه عام ، وتدل المعلومات التى نقلها رشيد الدين على أن حدود البلاد الناطقة بالمغولية والتركية فى زمانه ، هى تقريبا نفس حدود البلاد الناطقة بهاتين اللغتين فى عصرنا هذا ، فقد كان شعب (نايمان) الذى يملك كل غرب منغوليا ابتداء من شمال

نهر أورخون الى نهر ايرتيتس ، وشعب (اويرات) وهو جاره الى الشمال ، يتكلمان اللغة المغولية ، وتسمى المنطقة التي يسكنها الاويرات وهى منطقة منابع ينيسى (سه كيزمورهن) وتدل هذه التسمية على أن اللسانين التركى والمغولى كانا متداخلين ، فان كلمة (سه كيز) تركية بمعنى ثمانية ، وكلمة (موره ن) مغولية بمعنى نهر ، وفى شمال الاويرات كان القيرغيز الناطقون بالتركية يسكنون حوض ينيسى أو نهر (كه م) كما يسميه الترك ، وكان جيران النايمان على نهر ايريتش هم القاكلى والقبجاق ثم القارلوق فيما يظن ، وهؤلاء جميعا من الناطقين بالتركية ، وكانت عاصمة القارلوق هى (قيالىق) أو (قايالىق) الواقعة شمال ولاية (يدى صو) والتي لا يرجع تأسيسها الى أبعد من القرن الثانى عشر .

هذا وكانت قبائل المغول تقطن المنطقة الممتدة من (سد الصين) جنوبا الى بحيرة بايقال شمالا ، وكان مستواهم الحضارى على درجات مختلفة . وقد ذكر الصينيون ثلاثة أنواع من التتار : التتار البيض ، وكان الصينيون يجاورونهم جنوبا .

وفى شمالهم التتار السود ، وفى شمال هؤلاء التتار المتوحشون الذين كان المغول يسمونهم (شعوب الغابة) وكان التتار السود بدوا أما المتوحشون فكانوا يعيشون على الصيد .

وان معلوماتنا عن مغول القرن الثالث عشر ، وخاصة ما يتعلق منها بأماكن القبائل وطراز حياتهم ، لتفوق عددا وتنوعا معلوماتنا عن الترك الذين كانوا يسكنون قبلهم فى نفس المكان ، اذ لا تذكر المصادر الصينية ولا غيرها أنه كان الى جانب الأتراك البدو ، أتراك آخرون يعيشون على الصيد ثم لا يذكر شىء أيضا عن العلاقات بين سكان الاستبس وسكان الغابات ، اللهم الا بضع كلمات ذكرها الكرديزى عن علاقات القرغيز بجيرانهم الشرقيين .

ويقول رشيد الدين ان المذهب الشاماني لم يكن الدين الأصلي للبدو ، ولكن كان دين القبائل التي تعيش على الصيد ، وكان يعتقد في أيامه هو أى اiban العهد المغولي ان الشامانات الحقيقيين يوجدون بين سكان بلاد الغابات ، ويستنتج من حكاية نقلها رشيد الدين عن اغنى القبائل بالشامانات وهى قبيلة (أورمان أورانخينى) أن حياة الزراعة كانت فى نظر البدو نوعا من العبودية لا يطاق ، وأن حياة البدو كانت كذلك فى نظر القبائل التي تعيش على الصيد .

ظهور جنكيزخان

وكان (لشعوب الغابة) بوجه عام يد فى الاحداث والفتن الدامية التي سبقت اتحاد منغوليا تحت ادارة جنكيزخان ، ولكن أصحاب هذه الفتن الحقيقيين هم البدو بوجه خاص ، وقد ثبت الآن أن هذه الفتن لم تكن فى حقيقة أمرها الا الصراع بين الطبقة الأرستقراطية وجمهرة السكان فى الاستبس : تجمعت الطبقة الأولى تحت رئاسة جنكيزخان ، والتفت الثانية حول (جاموغا) ، وكان جاموغا فى أول أمره صديقا لجنكيز خان ثم خرج عليه ، واتخذ لنفسه - مثل القاراخطاي - لقب (كورخان) وظل يجد كل يوم أعداء جددا لجنكيز خان بين رؤساء قبائل المغول وخاناتهم ، ولكن هذا الصراع انتهى بآبادة قسم من أنصار جاموغا ، وفرار القسم الآخر من منغوليا . ووقعت أخرى المعارك التي اشترك فيها جاموغا ضد جنكيزخان فى سنة ١٢٠٤ ، وفى سنة ١٢٠٥ - سلم جاموغا الى جنكيزخان ، وأعدم كما تروى مصادر المغول ، ولكن المؤرخ الجوينى يذكر حكاية غريبة عن بطل اسمه (كورخان) كان فى خدمة جنكيزخان ثم انحاز الى المسلمين ، فلما فتح المغول مدينة بخارى سنة ١٢٢٠ أعدمه جنكيزخان ، ومن هنا ، فمن المحتمل أن يكون جاموغا - رغم الرواية المغولية - قد فر من جنكيزخان ولجأ الى بلاد خوارزمشاه . وكان من بين قبائل المغول المعادية لجنكيزخان

قبيلة (ماركييت) التي تسكن على ضفاف نهر (سيلينغا) ،
ثم قبيلة نايمان - وقد فرت كلتا هما الى الغرب ، وكانت اخر
هزائهما امام جنكيزخان سنة ١٢٠٨ ، وفي سنة ١٢٠٩
افترقت القبيلتان فأخذت الماركييت طريق الشمال حتى
وصلت الى بلاد القبجاق ، ووصل الناييمان الى بلاد
القاراخطاي . ومهما يكن فقد تعرضت القبيلتان قبل هذه
الأحداث لحركة التبشير المسيحي ، وكان من نتائج ذلك ان
أخذ الناييمان كما رأينا من قبل الأبجدية الأويغورية ، ولدينا
بالإضافة الى هذا حقائق كثيرة تؤيد تأثر المغول بمدينة الترك
فمن ذلك وجود الأسماء والألقاب التركية بين أقوام من أصل
مغولي ، وأما التبشير الاسلامي فلم يرد عنه شيء رغم وجود
كثير من التجار المسلمين في عاصمة جنكيزخان وهو لا يزال
في شرق منغوليا ، اذ ليس لدينا في هذا الباب سوى رواية
واحدة تدل على أن بعض المغول دخلوا في الاسلام ، وجنكيز
على قيد الحياة .

فقد كان أخو زوجته ، وهو أحد زعماء الماركييت يحمل
اسما اسلاميا هو (جمال خوجة) .

وفي أثناء الصراع بين جنكيزخان ، وبين الماركييت
والنايمان في سنة ١٢٠٧ خضع القيرغيز القاطنون بجوار
ينييسي لجنكيزخان ، فكانوا أول من خضع له من أقوام
الترك ، نعم لقد أعلنوا العصيان فيما بعد سنة ١٢١٨ ،
ولكن جوجي الابن الأكبر لجنكيزخان انقض عليهم بعد أن
عبر ثلوج نهر الينييسي ونكل بهم . ويروي الجغرافيون العرب
أن قيرغيز ذلك الوقت - كقيرغيز القرن الثامن - لم يكن لهم
خاقان ، بل كانوا منقسمين قسمين ، على كل واحد رئيس ،
لا يحمل لقب خان ، حتى لقد نسي القيرغيز المتأخرون أن قد
كان لهم خان فيما مضى ، ويروي رادولف نقلا عن حكايات
القاراقرغيز أنهم التمسوا من (الخان الكبير) (جنكيزخان)
أن يعين عليهم (جوجي) خانا ، ولكن قطيعا من حمر الوحش

اختطنت (جوجى) وكان لا يزال صبيا ، وهكذا كان (اقصاب
قولان جوجى خان) أول خانات القيرغيز وآخرهم ، ومع أن
الصفة الاسطورية واضحة فى هذه الرواية ، فانها تسجل ذكرى
خضوع القيرغيز لجنكيزخان وولده جوجى ، وربما كانت
حكاية حمر الوحش هذه صدى للشعر المنسوب الى جنكيزخان ،
فقد قيل انه لما بلغه وفاة ابنه قال هذين البيتين :

قولون ألغان قولاندای قولو نوم دين ايريلدم

اير لشقان آنقودای اير اولوم دين ايريلدم

أرايت الى العير يروعه الصياد، فينای عن صغيره

فكذلك شككت ولدى

أرايت الى سرب البط يتشتت فى كل اتجاه

فكذلك فارقت ابنى البطل

اضمحلال الخوارزمشاهية

فى سنة ١٢٠٩ أى قبل ان ينتصر محمد خوارزمشاه
على القاراخطاي بعام واحد ، خضع ايديقوت الأويغور - وهم
قوم متحضرون - لجنكيزخان ، وكان ايديقوت الأيغور حتى
ذلك التاريخ تابعا للقاراخطاي * ولكنه غير هذه التبعية
بسبب فرار خصوم جنكيزخان الى الغرب ، فقد أراد الماركيت
والنايمان أن يجتازوا بلاده ، ولكنه ثبت لهم وقاومهم بعنف
حتى غلبهم ، وكانت هذه الهزيمة سببا فى افتراق القومين
أحدهما عن الآخر ، وكانا - حتى هذه الهزيمة - متحدين *
وفى سنة ١٢١١ أى بعد أن هزم محمد خوارزمشاه
القاراخطاي بعام واحد دخل حاكم القارلوق المسلم
(أرسلان خان) فى طاعة جنكيز ، وكان حتى تلك السنة
خاضعا للكورخان *

وتدل هذه الحوادث على مدى اضمحلال نفوذ خوارزمشاه
عند المسلمين فى آسيا الوسطى ، مع أنه كان يعلن منذ

انتصاره على القاراخطاي سنة ١٢١٠ أنه (منقذ المسلمين من أيدي الكفار) ، والواقع أن أخلاق محمد خوارزمشاه كانت تناقض العظمة الظاهرية لدولته ، وتناقض القابلية العظيمة ، فقد كان عاجزا تماما عن كبح جماح عساكره ، وحمايه الأهالي في البلاد التي فتحها من اعتداءاتهم ، ولعل هذا يفسر لنا كيف ساءت العلاقات بينه وبين خان سمرقند في سنة ١٢١٧ ، مما دعا الثاني الى الانضمام من جديد الى القاراخطاي . ويذكر الجويني شيئا عن المحادثات بينهما وهي المحادثات التي سبقت القطيعة فيقال انه بعد أن تزوج خان سمرقند بنت خوارزمشاه رات أم هذا الأخير ان يبقى خان سمرقند عاما كاملا في بيت حميه طبقا لعادة تركية قديمة .

وبعد أن رجع خان سمرقند ، أعلن بموافقة اجماعية من الأهالي الخروج على خوارزمشاه منقذه من الكورخان المجوسي ، ولم يستطع خوارزمشاه اخماد هذا العصيان الا بمعارك دامية ، وصارت حدود خوارزمشاه بعد اخماد الثورة ممتدة من فرغانة الى بحيرة آرال ومشملة على كل الأراضي المجاورة لسيحون بما في ذلك ساحله الأيمن ، وأما بقية المناطق الاسلامية التي كانت خاضعة قبل ذلك للقاراخطاي ، فقد خضعت (باستثناء امارة القارلوق في أقصى الشمال وهي التي خضعت لجنكيز) لسلطة زعيم النايمن كوجلوك المهاجر من الشرق . وكان كوجلوك هذا مسيحيا في أول الأمر ، ولكنه اعتنق الوثنية في بلاد القاراخطاي ويحتمل أن تكون الوثنية هنا هي البوذية . وكان استيلاء كوجلوك على بلاد الكورخان في سنة ١١٢١ أي قبل أن يخرج خان سمرقند على خوارزمشاه ، الذي ما لبث أن حارب كوجلوك حربا غير موفقة فقد روى ابن الأثير وياقوت أنه اضطر الى أن يترك لكوجلوك بعض ممتلكاته ومنها اسفنجاب (سايرام) وطاشقند ، والقسم الشمالي من فرغانة ويقال انه دمر هذه البلاد قبل انسحابه ، وأنه صاحب معه

سكانها ، وأكبر الظن أن خوارزمشاه ، فكر فعلا فى هذه الخطة ، ولكن من المستبعد أن يكون قد نفذها وذلك أن وضع هذه الولايات فى أثناء الغزو المغولى ، أى بعد عشرة أعوام من الحروب بين خوارزمشاه وكوجلوك ، لا يدل أبدا على أنها دمرت تدميرا تاما ، ومع أن منغوليا بعيدة عن تركستان ومع أن المغول شغلوا بحروبهم فى الصين ابتداء من ١٢١١ ، فإن بصيب جنكيزخان من انعمود والسلطان فى اسيا الوسطى ، كان أكبر مما يتمتع به (سلطان الاسلام) نفسه . وببيل حوادث سنة ١٢١١ على الأرجح ظهرت حكومة مسلمة جديدة فى مدينة المالىق او (غولجه) الحالية ، ومع أن مؤسس هذه الحكومة كان قاطع طريق ، وسارق خيل ، فإن ذلك لم يمنع أسرته من تولى الحكم حتى بداية القرن الرابع عشر ، وكان رئيس هذه الأسرة فى أول أمره خاضعا لجنكيز . ولكن كوجلوك قبض عليه غيلة أثناء خروجه للصيد ، وقتله ، واستطاعت زوجة القتل أن تدافع عن المالىق ضد عساكر كوجلوك حتى وافتها النجدة من منغوليا ، والظاهر أن كوجلوك لم يكن يضمّر شرا لأرسلان خان القارلوقى التابع لجنكيزخان ، وذلك أنه وجه كل قواته الى كاشغر ، وبفتحه هذه الولاية ظهرت للمرة الأولى والأخيرة فى اسيا الوسطى حركة اضطهاد للاسلام ، ومنعهم من العبادة ، وقتل اماما من ختن ، وأسكن عساكر النايماں فى بيوت المسلمين (ليتأكدوا فى الغالب من تنفيذ المسلمين لأوامره) وبينما المسلمون على هذه الحال ، فإن خوارزمشاه لم يساعدهم ولم يتخلصوا من الاضطهاد والطغيان الا بوصول عساكر المغول سنة ١٢١٨ .

سوء العلاقات بين خوارزمشاه والمغول

كان خوارزمشاه فى ذلك الوقت مشغولا بالحرب مع الكفار ، فقد وجه ضرباته الى القبجاق بالمنطقة الشمالية من سيحون ، وكان القبجاق أضعف نسبيا وأقل نظاما .

وفي نواحي (ايرغيز) وقع بطريق الصدفة صدام بين
العساكر الخوارزمية وبين القوات المغولية بقيادة جوجي خان،
وكان قد وصل الى هناك أثناء تعقبه الماركيت الفارين الى
الغرب .

وكان خوارزمشاه - على فشله المتكرر - لا يزال يطمح
في أن يشتهر بأنه فاتح العالم ، بل كان يأمل حتى بعد ذلك
أن يفتح الصين ، وقد تملكه الحزن حين سمع باستيلاء جنكيز
على بكين سنة ١٢٢٥ ، وأرسل (بهاء الدين الرازي) سفيرا
لدى جنكيز ليحقق خبر هذا الفتح ، وليجمع المعلومات عن
فتوحات جنكيز وانتصاراته .

ووصل بهاء الدين و جنكيز لا يزال بالصين ، وقد روى
المؤرخ الجوزجاني قصة هذه السفارة نقلا عن السفير نفسه
فلا مجال للشك فيها .

وهكذا يتبين أن خوارزمشاه ، لا الخليفة الناصر هو
الذي أرسل سفيرا لدى أباطرة المغول .

وكلنا نعلم تطور الحوادث فيما بعد ، وكيف أرسل
خوارزمشاه بالاضافة الى هذه السفارة ، قافلة تجارية الى
جنكيزخان ، وكيف أن جنكيز أرسل بدوره سفارة وقافلة الى
خوارزمشاه ، وكيف استقبل هذا الأخير هيئة السفارة ، ثم
كيف خلا بالسفير محمود في الليل ، وكيف قتل التجار وهم
جميعا مسلمون في (اوترار) وهي إحدى مدن الحدود ببلاد
الخوارزميين . ومن المؤسف ان خوارزمشاه طلب الى السفير
محمود أن يعطيه كل المعلومات المهمة عن بلاد جنكيزخان ،
وذلك بوصفه (أى السفير) احد رعايا خوارزمشاه لانه ولد
في خوارزم . وقد يبدو هذا الطلب في عين الأوروبي
الحديث وجيها بل حقا من حقوق خوارزمشاه . فالحكومة
الانجليزية مثلا لا تتردد أبدا في أن توجه نفس الطلب الى
أى انجليزى ، يخدم في بلد همجى أو نصف همجى ولكن
التجار المسلمين في العصور الوسطى لم يكتفوا بحسن أن

لهم علاقة بحكومة الولاية التي نشأوا فيها ، ولم يكونوا على علاقة بتنفيذ الخطط الحربية لسلاطين المسلمين ، ومن المحتمل جدا أن تكون هذه المسألة نفسها هي السبب في قتل التجار المسلمين الوافدين من منغوليا .

وعلى أية حال ، فلم يكن بد بعد حادثة أوترار من أن يوجه المغول غزواتهم الى بلاد خوارزمشاه ، دون أن تكون بهم حاجة الى تحريض الخليفة الناصر أو سواء وكان من الطبيعي أن تنتشر الشائعات ، وأن تنسب الى الخليفة الناصر تدابير من هذا النوع بسبب الخلاف بينه وبين خوارزمشاه . ومن المعلوم أن جلال الدين بن خوارزمشاه كان يتهم خليفة بغداد بنفس الاتهام ، دون أن يملك دليلا واحدا لتأييده ، والطبيعي أن يكون غزو جنكيزخان للبلاد الاسلامية نتيجة مباشرة لحادثة أوترار ، وآية ذلك أن التجار المسلمين ظاهروا جنكيزخان ، وسنرى فيما بعد أنهم أفادوا أكثر من غيرهم من انتصار عساكر المغول ، ومما ترتب عليه من نظم وقواعد .

المحاضرة التاسعة

القبيلة الذهبية (آلتون أوردو)

لم تسلم المعلومات عن الحوادث التي سبقت استيلاء المغول على تركستان من التناقض : فمثلا تختلف أقوال المصادر وآراء العلماء في تاريخ المعركة التي وقعت بين جوجى خان وبين خوارزمشاه والتي كللت بتقهقر المغول : أكانت هذه المعركة قبل حادثة اوترار أم بعدها ؟ ولقد وجدت ببلاد محمد خوارزمشاه منظومات تناولت الحوادث السياسية باللغة الفارسية بنوع خاص ، ولكننا لم نعرف هذه المنظومات الا ببعض ما أخذ عنها وعزى اليها . فمن ذلك ما نقل ياقوت من منظومات عربية تصف خراب البلاد التي تركها محمد خوارزمشاه فيما وراء النهر وقد كتب هذه المنظومات فيما يظهر محمد خوارزمشاه نفسه ، ومن ذلك أيضا الملحمة الشعرية التي أشار اليها عوفى والمسماة (شاهانشاهنامه) لمجد الدين محمد بايزى وهى تتناول الأحداث أثناء سلطنة محمد خوارزمشاه (التقى عوفى بمجد الدين بايزى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ - ١٢٠٤) بمدينة (نسا) غرب عشق آباد بتركستان الحالية) ثم قصيدة عمر خرم آبادى التى ذكرها عوفى أيضا ، وفى هذه القصيدة يلقب محمد خوارزمشاه بالاسكندر الثانى ، ومنها : ان اصرار (خطائى) على أن يحارب عساكرى (خطأ) فان مضى فى طريقه فليرين عواقب جهله ، واذا لم يستسلم (التتار) لأمرى ، فمن الواضح وضوح الشمس أن نهارهم (تار) أى مظلم (الجنس بين خطائى وخطأ وبين تار وتار) ، فالى أى صدام عسكرى

تشير هذه القصيدة أصداًم مغول جنكيزخان ، أم صدام
(التتار الأول) أى كوجلوك والنايمان ؟ .

لم تكن للصدام العسكرى بجوار (ايرغيز) آثار بعيدة ،
كان محمد خوارزمشاه هو المهاجم ، ومع ذلك فلم يكن الطرفان
يتوقعان فى أول الأمر الصدام فقد كان خوارزمشاه يحارب
فى تلك الجهات القبيحاق ، وكان جوجى يحارب الماركيت ،
وقد حرص جوجى على ابلاغ خوارزمشاه بأن ليس لديه أمر
من أبيه بالدخول فى حرب ضده .

ولكن لما تحولت الحرب بالنسبة لخوارزمشاه الى حرب
دفاعية - قيل انه كان يجاهد ليصون (دار الاسلام) من
سلطات الكفار ، هذا مع أن سبب الحرب هو قتل البحار
المسلمين فى خوارزم ، ومع أن الحاكم العسكرى فى كاشغر
منح المسلمين فى سنة ١٢١٨ حرية العبادة من جديد .

وبالاضافة الى التجار المسلمين الذين كانوا يعملون مع
جنكيزخان ، كانت فى جيش المغول كتائب من مسلمى قاياليق
والماليق ، ومن المحقق أنه كان بين أولئك التجار - عدا
التاجيك - بعض الأتراك ، (وكان المغول يطلقون على التجار
جميعهم الكلمة التركية (أورتاق) بمعنى شريك والظاهر
أن السبب فى ذلك هو تجمع التجار فى شكل شركات ليستطيعوا
تجهيز القوافل) .

وكان جيش خوارزمشاه يتكون من عناصر تمثل قوميات
مختلفة ، فيلاحظ مثلاً أن عدد الترك والتاجيك فى حامية
سمرقند وهى عاصمة ما وراء النهر كان - بحسب رواية
الجوينى - متساويا تقريباً ، إذ كان عدد الترك ستين ألفاً
وعدد التاجيك خمسين ألفاً ، وكان من الممكن أن يؤثر الصراع
بين هذه القوميات على صلابة الجيش ، بل لقد قرر أحد
مؤرخى القرن الثالث عشر أثناء تناوله العلاقات بين
خوارزم وبين المنطقة الايرانية العالية مازندران ، أن
الصداقة الحقة لا يمكن أن تتوثق عراها بين الترك

والتاجيك ، وأدهى من ذلك ، استحكام العداء بين الترك وبين سكان المنطقتين الايرانيتين الجبليتين غور وغزنه ، فعندما أراد الترك تعسين علاقاتهم بحاكم غور ، أجابهم هذا الحاكم نحن غوريون وأنتم أتراك ، ولا يمكن أن نعيش معا .

ومهما يكن فقد كان الترك - من بين سائر القوميات - أقرب الى المغول بل كانت منهم بجيش جنكيزخان كتائب . وكانت التقاليد البدوية فى آسيا الوسطى ، تزيد الترك قربا الى المغول ، ورغم هذا كله فلم يحاول المغول الاتحاد مع الترك واشراكهم معهم فى الفتح ، ولم تكن المحادثات التى يجرونها أحيانا مع الترك الا ضربا من الخدع الحربية المألوفة عندهم . فقد كانوا يحاولون بتأكيداتهم الكاذبة لأواصر الصداقة - أن يفرقوا أعداءهم ، ثم يجهزوا عليهم واحدا فواحدا ، وقد أكد جنكيزخان صداقته لأم محمد خوارزمشاه ، وكانت بينها وبين ابنها جفوة ، وذلك لى يحول بينها وبين التدخل فى الحرب بما كانت تملك من كتائب .

وفى أثناء حصار المغول لسمرقند أعلنوا استعدادهم لان يقبلوا خدمة القسم التركى من حامية المدينة ، وكان على رأسه رجال خوارزمشاه ، فلما تم لهم فتح المدينة طوقوا هؤلاء الترك وعددهم حوالى ثلاثين ألفا - عليهم عشرون قائدا - وذبحوهم ، ثم فعلوا مثل ذلك فى داغستان حيث تحالف القبجاق مع اللان Alains ليقاوموا المغول معا ، فقد قال المغول للقبجاق بوصفهم أتراكا : اننا واياكم من أصل واحد ، وليس اللان منكم فى شىء فكيف تساعدونهم؟ وقدموا لهم الهدايا حتى يتخلوا عن اللان ، ولكنهم ما لبثوا بعد أن انتصروا على اللان منفردين أن استداروا فبطشوا بالقبجاق وأخذوا منهم الهدايا التى أعطيت لهم من قبل مضاعفة ، وكذلك لما وجد البولوفيتس (أى القبجاق) المسون من أعدائهم الروس ، أكد المغول لأمراء الروس أنهم لم يتجمعوا للاعتداء على أراضيهم ، ولكن ليحاربوا (القومان المشركين) .

القذرين ، خدم الخيل الاخساء على حد تعبير المؤرخين الروس .

وفي غرب آسيا لعب المغول نفس الدور - ففي وقت ما كانوا يجرون المحادثات مع الاسماعيلية ومع الخليفة في بغداد، ولكنهم ما لبثوا بعد ذلك ان استاصلوا شأفتهم جميعا .

وفي حوالى سنة ١١٢٦ امر السلطان جلال الدين وهو فى اصفهان وزيره فى آذربيجان ، ان يتحرى اخبار القوافل الآتية من سورية ، لأنه علم أن سفيرا من التتار قد هب الى هناك مع قوافل تجار الاسماعيلية بطريق بغداد .

وكان جلال الدين يبحث ، قبل ان يؤاخذ الخليفة أو بعض الأمراء على علاقاتهم بالتتار ، عن دليل ليثبت قيام هذه العلاقات ، ولكنه لم يستطع ان يجد عليها دليلا واحدا ، رغم ان وزيره لم يقنع بتفتيش القافلة ، بل أبادها عن آخرها مما سبب لجلال الدين فيما بعد كثيرا من المشاكل ، ومع هذا فليس بعيدا أن تكون الشائعات عن وجود هذه العلاقات مطابقة للواقع .

ومن المعروف أن محمد خوارزمشاه المتوفى فى احدى جزر بحر قزوين سنة ١٢٢٠ لم يكن عظيم الشأن أثناء حروبه ضد المغول حتى ان اسمه لم يكن معروفا عندهم ، فالمصادر المغولية مثلا تنسب كل ما دار أثناء الحرب وفى الفترة السابقة عليها ، بما فى ذلك حادثة أوترار الى ابنه وخليفته من بعده ، جلال الدين ، ومع أن الحرب وضعت أوزارها بفرار جلال الدين هذا الى الهند فى آخر نوفمبر ١٢٣١ ، فقد اضطر المغول فيما بعد الى اخماد بعض الثورات والى الاستيلاء على بعض القلاع المحصنة فى أعالي الجبال وفى صيف سنة ١٢٢٣ ترك جنكيزخان تركستان ، ثم قضى صيف سنة ١٢٢٤ فى منطقة نهر ايرتيش ، وقبل وفاته فى سنة ١٢٢٧ كان جلال الدين قد رجع الى ايران ، وفى سنة ١٢٢٨

هزمه المغول قريبا من اصفهان ولكنهم اضطروا - لفداحة خسائريهم الى الجلاء عن ايران ، وتعقبتهم جيوش جلال الدين حتى نهر جيحون ، ومع هذا فلم تكن هناك خطة لزلزلة حكم المغول في خوارزم وما وراء النهر .

وتجمع الروايات، على أن فتوحات المغول كانت مصحوبة بالمجازر البشرية ولكن علماء أوربا لا يدخلون في اعتبارهم الا حروب الابداء التي كان البدو يشنونها على البلاد المتحضرة ، هذا مع أن البدو لم يكونوا يحققون اتحادهم السياسى الا بعد معارك دامية فيما بينهم بل ربما أبيدت في هذه السبيل ، وطبقا لخطة ، قبائل بأسرها ، حتى ليصعب علينا أن نعرف أى صرعى جنكيزخان أكثر عددا ، صرعاة في الاستبس أم صرعاة في البلاد المتحضرة ، ويصعب أيضا أن نثبت أن فتوحات المغول كانت نفعا خالصا للبدو ، وضرا خالصا لأهل الحضرة ، فمثلا لم يكن استيلاء المغول على البلاد المفتوحة نتيجة هجرة كاملة لشعبهم ، كما كانت حال السلاجقة حين استولوا على غرب آسيا ، بل بقيت جمهرة المغول العظمى في منغوليا واليها رجع جنكيزخان ، وبقيت مقرا لخلفائه أكثر من أربعين سنة بعد وفاته .

وفى القانون العام اتبعت قاعداة من قواعد القانون الخاص المنولى بمقتضاها يعطى الأب قبل وفاته قسما من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ، ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه ، وبناء على ذلك انتقلت منغوليا وهى الوطن الأم لجنكيزخان الى أصغر أبنائه تولوى وكان جيش جنكيزخان النظامى يتكون من مائة وتسعة وعشرين ألفا من الجند تولى تولوى الرياسة على (١٠٠٠ ر ١٠٠) منهم . ويدل هذا العدد على قلة من هاجر من المغول بالنسبة الى الجمهرة التى بقيت فى منغوليا .

تكون امبراطورية القبيلة الذهبية

وقسمت البلاد الواقعة الى الغرب من منغوليا على الثلاثة الكبار من أبناء جنكيزخان ، فأخذ كل منهم (٤٠٠٠) شخص

من الجيش النظامي (ووزع الباقي وهو ١٦٠٠٠) على بقية أعضاء العائلة ، ولم توضع الا خطوط عامة لتحديد املاك كل من ابنائه ، وهما كانت القواعد تلزم بأن يكون الوطن الام ملكا لابن الاسفر ، فقد كانت تلزم ايضا بان يسدولى الابن الأكبر جوجى على اتقى البلاد المفتوحة بعدا ، رسدا كانت حصه جوجى تتقدم نحو الغرب جنبا الى جنب مع انتصارات جنكيزخان .

فحين كان لا يحكم الا منفوليا ، كانت حصه ابنه جوجى عبارة عن الاراضى الواقعة غربى نهر سيالينغا ، فلما حيزت الانتصارات فى الغرب تقرر أن تمتد حصته الى اخر حد تطؤه سنابك خيل المغول وكانت هذه الاراضى تشتمل - منذ عهد جنكيزخان - على استبس القبجاق فى شرب نهر ايرتيش ، وعلى المنطقة التى أبيد فيها الماركيت حتى حدود امبراطورية بلغار الفولجا ، وبعد موت جنكيزخان كانت ممتلكات أحفاده من أبناء جوجى تضم هذه المناطق جميعا ، بالاضافة الى كل الامارات الروسية (لم يؤد تدفق المغول على بولندا والمجر ، وبعض مناطق أوربا الغربية ، الى فتح هذه البلاد) ثم ادعى أبناء جوجى أن لهم حقوقا فى أراضى جنوب قافقاسيا وغرب بحر قزوين ، فأدت بهم هذه الادعاءات الى سلسلة من الحروب ضد دولة المغول التى تأسست فى ايران سنة ١٢٥٠ ، ولا توجد اشارة واحدة الى أن هذه الأراضى قد ضمت الى أملاك جوجى ، ابان الفارات على بلاد القاراخيلاى والخوارزميين ، وهى الفارات التى تبدأ ساحتها من نهر ايرتيش ، ثم تتجه جنوبا بغرب الى أبعد من نهر جيحون .

ولم تستثن من هذه البلاد الا خوارزم والمدن الواقعة فى الوادى الأدنى لنهر سيحون ، ولا بد أن جوجى حين حاول أن يجنب مدينة أوركندى الخراب فى سنة ١٢١ كان ينوى أن يضم منطقة خوارزم الى ممتلكاته ، ولا شك أن الاتحاد بين مناطق حوض الفولجا ، والمناطق المجاورة للمجرى الأدنى لنهر آموداريا تحت ادارة حكومة واحدة ، أمر له أهميته ، فلقد

كانت بين هذه المناطق من اول الامر صلات مدنية ونيسية ولكنها لم تكن قبل ذلك التاريخ ولا بعده (حتى فتح الروس تركستان) موحدة تحت حكومة واحدة .

وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت خوارزم

أكثر ارتباطا بمناطق حوض الفولجا منها بمناطق حوض سيحون ، وفي عهد أوزبك خان كانت العملة تسك باسمه في خوارزم وفي حوض الفولجا ، بينما كانت تسك في صرخس باسم خان آخر ينحدر أيضا من جوجي . وفي أول الأمر كانت ممتلكات جوجي وذريته تضم المناطق الشمالية من بلاد القاراخطاي وتضم من أياله (يدى صو) القسم المشتدل على مدينة قاياليق . وعلى الجملة فقد كانت تشتمل الأراضي الممتدة من نهر ايرتيش الى بحيرة (آلاكول) ثم تتجاوز ذلك الى نهرى ايلي وسيحون .

وفي أثناء رحلة المبشر الفرنسي سكانى بلانوقاربيني (Plano Carpini) سنة ١٢٤٦ كان ابن جوجي الأنبر اوردو يقيم في شرق تلك المنطقة في مكان لا يبعد كثيرا فيما يظهر عن نهر ايرتيش ، وأما الجزء الغربى وهو الواقع غالبا بين ايلي وسيحون فقد كان تحت امرة شيبان (بكسر الشين) الابن الأصغر لجوجي (وقد غيرت المصادر الاسلامية هذا الاسم فيما بعد فجعلته شيبان) بفتح الشين) ، وكان ذلك سببا في أن يسمى أحد احفاده في أوائل القرن السادس عشر (بالشيبانى) وهذا الحفيد هو مؤسس دولة الأوزبك في تركستان ، وبالإضافة الى أن هذا الاسم يختلط باسم إحدى القبائل العربية ، فقد كانت له قيمة خاصة لأنه اسم عالم مشهور من علماء لأحناف أخذ عن أبى حنيفة وأبى يوسف ، ومن المحتمل أن يكون هذا الاسم المنتشر في العالم الاسلامى هو الذى حول شيبان الى شيبان وبالتالي الى ظهور اسم (الشيبانى) وفي رواية لأبى الفازى أن شيبان أخذ من أخيه (باطى) الأراضى الواقعة بين ممتلكات (باطى) وممتلكات (اوردو) وذلك بشرط أن

يقضى الصيف على ضفاف ايرغيزواورا وايله ك أو بوجه عام فى شرق نهر ياييق وجبال أورال ، وأن يقضى الشتاء فى قاراقوم و (آراقوم ؟) وعلى ضفاف سيحون وجو وصارى صو .

ولا يذكر أبو الغازى وهو مؤلف متأخر عاش فى القرن السابع عشر مصادر روايته ، ولكننا مع هذا نراها متفقة مع ما قال قاربينى وهو معاصر لأوردا وباطلى وشيبان ، وقد بسط خلفاء شيبان سلطانهم على أماكن أخرى كثيرة . فكان حفيده — كما يروى رشيد الدين — قائدا على منطقة الحدود بحوار (تره ك) وظلت ممتلكات شيبان فى أيدي خلفائه حتى القرن الخامس عشر ، ووردت شجرة نسبهم دون اختلاف كبير — فى كتابين مختلفين ، كتاب أبى الغازى ، وكتاب (معز الأنساب) وهو مجهول المؤلف ويرجع الى القرن الخامس عشر .

القبيلة الذهبية وتقاليده البدو

وكانت الحياة البدوية فى البلاد التى آلت الى أبناء شيبان أكثر تأصلا منها فى سائر البلاد التى انقسمت اليها ممتلكات جوجى خان ، ومع هذا فقد بقى الحكم فيهم أكثر من مائتى سنة ، وهو أمر قلما يحدث عند البدو ، وظل أبناء شيبان — لبعدهم عن التأثير بحياة الحضرة — مخلصين لتقاليد البدو العسكرية ، وبذلك استطاعوا — حتى بعد أن خضعت الأيام شوكة أسرة جنكيز فى كل البقاع — أن يحافظوا على خصائصهم كغزاة وفاتحين .

وتدل هذه الحقيقة — بالاضافة الى حقائق أخرى مشابهة — على خطأ رادلوف حين علل بقاء الدولة المغولية — بالنسبة الى غيرها من دول البدو — بتكونها من دول أجنبية ، شعوبها حضرية ، بحيث يمكن القول (فى رأيه) بأنها لم تنشأ عن وحدة قبائل البدو ، ولكن عن اتحاد بين بلاد متحضرة

خضعت لأبناء جنكيز - وهذه البلاد المتحضرة هي الصين وآسيا الوسطى وآسيا الغربية النخ (والحق ان اختر الدول المغولية استقرارا نشأت في البلاد التي لم تستند الى تقاليد الحكم التي كانت سائدة قبل العهد المغولي). هذه البلاد هي صحارى القبجاق وحوض الفولجا والقرم (ويمكننا لذلك أن نستنتج أن التشكيلات العسكرية التي أوجدها جنكيز لم تكن أقل أهمية لقرار الحكم من التوجيهات التي كان يأخذها عن أصحاب الحضارات في مسائل الإدارة المدنية ولا شك أن هؤلاء كانوا يحاولون دائما أن يزيدوا نفوذهم عند الخانات ، وكان الصينيون منهم خاصة لا يعترفون بمدنية غير مدنياتهم ، ويرون أن لا رقى الا بالأخذ بأسبابها وتمثلها ، وبهذا تفسر الروايات الصينية عن الوزير ، يه - لو - جو وعن دوره في دولة المغول (لم يكن هذا الوزير صيني الأصل ، بل صيني الثقافة والتربية ، وأصله من القاراخيطة) ، بل تروى المصادر الصينية ، أن هذا الوزير هو المؤسس الحقيقي لدول المغول -

ومع أن المصادر غير الصينية لا تشير الى هذا الوزير - فقد قبل بلوشيه وهو الناشر الأوربي لكتاب رشيد الدين ، رواية المصادر الصينية ، فعنده مثلا أن (يه - لو - جو - تساي) هو أول من بين للمغول عدم جواز القتل العام والسلب والنهب ، وعنده أيضا أن دولة جوجي خان كانت وحدها بعيدة عن نفوذ (يه - لو - جو - تساي) وعن نفوذ ممثل الحضارة الصينية بعامه ، فظلت لذلك متردية في حماة من البربرية لا توصف -

حضارة القبيلة الذهبية

والواقع أن القسم الغربي من ممتلكات جوجي ، حيث ولى الأمر ابنه الثاني باطى ، وصل في عهد المغول الى درجة عالية من المدنية (كان باطى أعظم حاكم في كل ممتلكات جوجي) وفي ذلك العهد توطن المغول في بلاد بلغار الفولجا

بعد أن أبادوهم ، ولكنهم فنعوا بأن يأخذوا الجزية من أمراء الروس ، وبأن يرسلوا اليهم سوابا يمتلئونهم ، وكان البلغار قد طوفوا المغول في سنة ١٢٧٢ وهم في طريقهم من روسيا الى جنكيزخان . ولم يستسلم المغول شق طريقهم الا بنضحيات كبيرة ، فلما فتح المغول بلاد البلغار سنة ١٢٣٦ ، تاروا من الأهالي وخربوا عاصمتهم ، ومع هذا فما لبثت عاصمة البلغار أن بنيت من جديد ، بل ان الآثار والنقوش الموجودة بها الآن ترجع كلها الى العهد المغولي .

وفي وقت ما ساءت مدينة (بلغار) هي المدينة الوسيطة في بلاد اولاد جوجي التي تسك فيها عمله خانات المغول ، وتدل النقوش على ان الشعب كان يحتفظ حتى بداية القرن الرابع عشر بلغته القديمة التي ترجع الى ما قبل العهد المغولي . (وتمثل لغة الجوفاش الحالية آخر أثر لتلك اللغة) . ولكنه استسلم بالتدريج لنفوذ اللغة التركية القبجاقية التي أصبحت هناك - كما أصبحت من قبل في آسيا الوسطى - لغة رسمية للدولة ، ويحتمل أن تكون المدن التي أسست في عهد المغول على المجرى الأوسط للقولجا تركية خالصة مثل مدينة (فازان) .

ومنذ عهد باطى كانت المدن الجديدة تشيد على المجرى الأدنى للقولجا . ويقول الراهب روبروق انه رأى في سنة ١٢٥٣ في طريقه الى منغوليا قسبة أسسها التتار سكانها من الروس والمسلمين وكان السفراء يذهبون الى سراى باطى ويرجعون منها عبر النهر : ولا شك أن هذا الوصف خاص بالمكان القريب من ساراتوف والذي سمي متأخرا (أوكهك) . Oukek .

ويذكر روبروق أنه رأى أثناء عودته مدينة جديدة أسسها باطى على نهر اتيل (القولجا) واسمها (سراى) ، ويقول - وقد مر بنفسه من هذه المدينة - ان قصر باطى ومدينة سراى يقعان على الضفة الشرقية ، ولكنه لا يصف المدينة ولا القصر .

وقريبا من نفس هذه الأماكن ، على الفرع الأوسط للفلوجا ، كانت توجد من قبل المغول مدينة (سومر كنت) التي يقال ان المغول حاصروها ثمانية أعوام ولم تدخر هذه المدينة في أى مرجع آخر ، وما زلنا نجهل الى اية أمه تنسب وهل هي — كما قال مؤلف القرن الثانى عشر ابو حامد الغرناطى ، وغيره — نفس مدينة ساقسين التي كانت بأيدي الغز ، أم أنها مدينة أخرى * وما زال موقع ساقسين هذه موقع المسائل الخلافية ، ولكن يبحث عنها بوجه عام عند منابيع (ياييق) أو منابع الفولجا (وعلى هذا فلا علاقة بين مدينة ساقسين المعروفة فى القرن الثانى عشر وبين المدينة البلغارية (ساخسين) التي يذكرها محمود الكشغرى * ويقرر (انها هي مدينة سووار بعينها) وعلى كل حال فلم يرد فى أى مصدر أن المغول لاقوا مقاومة عنيفة فى ساقسين * وما زالت مشكلة تحديد مكانها بغير حل ، اذ لم يستطع العالم الفرنسى جابريل فراند Gabriel Ferrand ناشر كتاب الغرناطى فى سنة ١٩٢٥ أن يحدده * .

وكلمة سراى كلمة فارسية أخذها الترك فى زمن ميكر ووردت فى كتاب (قوتادغو بيليك) وكان المغول يطلقونها على مقام الخان * ثم اتسع معناها فأطلقت أيضا على المدن التي تنشأ حول السراى * ومن ذلك مثلا قرية (سراى) الواقعة شمال ترمذ على نهر جيحون * و (سراى) الواقعة على الفولجا ثم (باغجه سراى) بالقرم * وقد ثار الجدل فى كتب العلم حول (سراى) الفولجا : هل هي نفس (يكي سراى) المسكوكة على بعض العملات والواردة فى بعض المخطوطات ، ويتبين بالنظر الى أقوال روبروق أن أول (سراى) أسسها (باطلى) كانت فى مكان الخرائب المحدقة بقرية سه لتيرف Selctrennyi الحالية ، وأما (سراى) الأخرى التي أسسها أخوه (بركة) فقد كانت فى مكان (تساره ف) Carev وكانت — كما تدل خرائثها ، وكما تدل نتائج الحفريات — ذات قيمة تاريخية أكبر من (سراى) الأولى * .

وتوجد في وقتنا هذا محاولات لاثبات أن (سراى) التى أسسها أيضا (باطى) لا توجد وحدها فى مكان سيلتيرهن ، بل توجد معها أيضا (سراى) التى أقامها (بركة) • وأما (يكى سراى) التى كانت فى مكان (تساره ف) ، فيظن أنها لم تؤسس الا فى زمن الاوزبك ، وانها بلغت شأوا بعيدا فى عهد جانبك ومع هذا فان المصادر تسمى (سراى) ، التى كانت موجودة فى عهد الأوزبك ، (بركة سرايى) وقد وصلت الى أيدينا عملة نقدية سكّت فى (يكى سراى) فى سنة ٧١٠ هجرية ، أى قبل سلطنة الأوزبك ، وبالإضافة الى هذا فقد قيل لى ان باستانبول مخطوطة فى علم الكلام حررت فى (يكى سراى) سنة ٧٠٥ هجرية ، ويلاحظ أن المدن فى جنوب روسيا فى عهد المغول كانت توصف كثيرا بكلمة يكى ، أى جديد ، ومن الصعب أن نتصور وجود مدينتين تحملان اسما واحدا ، احدهما جديدة ، والأخرى قديمة ، والأرجح أن كلمة (يكى) كانت تطلق على الأحياء الجديدة على اعتبارها مدنا •

العملة

وكانت الحياة الحضرية فى عهد خلفاء باطى وبركة تتطور وترقى ، على العكس منها فى الأقاليم الشرقية من ممتلكات جوجى ، ففي عهد هؤلاء الخلفاء (أى خلفاء جنكيز) أسس عدد من المدن كانت تسك بها العملات ، ومما يلفت النظر أن كل مدينة كانت لها عملة خاصة تختلف شكلا ورسمًا عن عملة غيرها مع تقارب قيمة العملتين ، ومع هذا فقد كان شكل العملة فى عهد المغول ، أكثر تقاربا منه قبل ذلك العهد .
وبعد •

وقد ظهر فى كل الدول التى أقامها المغول — ما عدا دولتهم فى الصين — نظام خاص للعملة ، فكانت أكبر قطعة من النقد الفضى تسمى (دينا ز ا) وأصغر قطعة تسمى (درهما) وكان الدينار يساوى ستة دراهم ، وقد ثبت وزن الدرهم فى عهد خلفاء جوجى ، على ثلث مثقال ، ثم طبق هذا :

الوزن فيما بعد فى اسيا الوسطى وإيران مما يوضح أهمية ممتلكات خلفاء جوجى - وبخاصة خوارزم - فى التجارة الدولية فى ذلك الوقت .

وكان لكل مدينة طابع خاص يظهر فى شكل العملة ونقشها ونوع حروفها وهنا يرد سؤال : الى أى مدى يمكن أن يساعدنا العلم بمستوى المدنية فى تلك المدن المتعددة على معرفته فى امبراطورية أبناء جوجى بوجه عام ؟ .

لقد بدأ العلماء - استنادا الى الاكتشافات فى (سراى) وغيرها من الأماكن - يبرزون طابع مدنية التتار والآلتون أوردو ، (وهو الاسم الذى يطلق فى الحوليات الروسية على امبراطورية باطى ، ولم يستعمل هذا الاسم فيما أعلم فى المصادر الشرقية) .

ومهما يكن فلا بد من عمل طويل متواصل لكى نعرف فى كل مدينة على حدة - أى العناصر القومية كان أكثر عددا ، ولكى نعرف أيضا بصورة واضحة ، كيف تم هذا الرقى المدنى الذى كلل بانتصار الاسلام واللغة التركية .

النظام السياسى ودولة القبيلة الذهبية

لم يكن للعنصر المغولى منزلة كبيرة عند القبيلة الذهبية ، والظاهر أن اللغة التركية سادت بسرعة . وبخاصة بعد انقطاع العلاقات بين القبيلة الذهبية ومنغوليا وكان باطى وبركه يشتركان معا فى ادارة أمور الامبراطورية كلها . وسافرا من أجل ذلك الى منغوليا ولكن روبروق يقول فى سنة ١٢٥٣ ان الامبراطورية كلها قسمت بين باطى وبين مانغو الذى كان يعيش فى منغوليا . وكانت الحدود بين المنطقتين تشق المنطقة الواقعة بين نهري جو وتالاس . ويقول المؤلفون المسلمون ان مدن ما وراء النهر . انتقلت من حكم (باطى) الى حكم (بركة) ولم تقم حكومة آلفو (وهو حفيد الابن الثانى لجنكيزخان : جغتاي) فى اسيا الوسطى الا سنة

١٢٦٠ ثم اتسعت أراضيها فشملت اراضى كانت تابعة من قبل القبيلة الذهبية واحتل (ألغو) خوارزم ، وبعد بضعة سنوات أخذ (اوترار) مرة من يد (بركه) ، وخربها .

ومع ان هذه المناطق ما لبثت ان ضمت من جديد الى بلاد القبيلة الذهبية ، فان نفوذ الخانات لم يزد امتدادا نحو الشرق ، وفى عهد بركه (١٢٥٧ - ١٢٦٦) استغل خان القبيلة الذهبية ، بعد ان كان أحد أركان امبراطورية المغول ، ولكن خلفه الخان مانغوتيمور كان رل من سك العملة باسمه ، وكان كل الخانات المنتمين الى أسرة جوجى * ومن بينهم ابناء أوردا وشيبان تابعين نظريا - لخان القبيلة الذهبية دون أن يكون لهذه التبعية أية أهمية ، ويضيف بعض المؤرخين كلمة (كوك) الى عبارة (الآلتون اوردو) (أى القبيلة الذهبية) كما يصفون حكومة خلفاء أوردا بكلمة (آق) وهما كلمتان تركيتان غير مغوليتين الأولى بمعنى أزرق والثانية بمعنى أبيض ، ومع ذلك فان بعض المصادر تطلق عبارة (كوك أوردا) على بلاد خلفاء أوردا ، ويقول مؤرخ مجهول الاسم عاش فى بداية القرن الخامس عشر ان وصف الجزء الشرقى من بلاد أوردا بكلمة (آق) والجزء الغربى بكلمة (كوك) بدأ بعد الحروب التى نشبت بين الخان (توختة) (١٢٩٠ - ١٣١٢) وبين الأمير الثائر ضده نوغاي الذى قتل سنة ١٣٠٠ . (اسمه الحقيقى باللغة المغولية (نوغتاغا) كما هو ثابت فى كتاب أرسله الخان المغولى بايران الى ملك فرنسا سنة ١٣٠٥) ويقرر هذا المصدر أن خانات الآق أوردا كانوا من ذرية نوغاي ، وهو أمر مخالف للحقيقة ، يدل على الخلط الذى أصاب تاريخ أبناء جوجى بايران فى القرن الخامس عشر ، حيث حرر المؤلف كتابه ، ويسمى أبو الغازى بلاد شيبان (آق أوردا) .

واذا غضضنا الطرف عن بلاد أحفاد أوردا وشيبان ، فلا يمكن القول بأن الآلتون أوردا كانوا أكثر اتحادا من كل من سبق من أبناء جنكيز .

وفى كثير من الأماكن كان يوجد امراء يعترفون بحكم الخان ، ولكنهم يملكون فى نفس الوقت جيوشا خاصة بهم ، ويروى مؤلف مصرى أثناء حديثه عن المدينة التجارية (سوداق) أن دخل المدينة كان يقسم بين أربعة أمراء من التتار ، ولكن لم يبق بكل مناطق القبيلة الذهبية الممتدة من الطونة الى خوارزم فالمجرى الأدنى لسيحون أية أسرة حاكمة تابعة من عهد ما قبل المغول .

اللغة التركية فى عهد القبيلة الذهبية

وكان المغول قد جاءوا للقبيلة الذهبية - كما جاءوا فى كل مكان - بالابجدية الأويغورية التى لم تكن معروفة حتى ذلك الزمان فى بلاد القيقاق ، وبين أيدينا فرمانات من القبيلة الذهبية مكتوبة بالحروف الأويغورية وترجع الى نهاية القرن الرابع عشر ، كما أن لدينا قطعاً من آخر عملة سكها الخان (توختاميش) ، وقد نقش عليها اسمه بالحروف الأويغورية ومع هذا ، فلم نر هذه الحروف استعملت الا على العملة المضروبة فى (سراى) ، وحتى ذلك لم يكن بصيغة دائمة ، وتدل هذه القطع النقدية على أن المغول وبعض الترك ، كانوا ينطقون أسماء الخانات محرفة ، لأنها مكتوبة بالحروف العربية ، فمثلاً كان اسم جانبك (١٣٤١ - ١٣٥٧) يكتب بالحروف الأويغورية (جامبه ك) ويدل كلام أبى الغازى على أن لسان المغول لم يكن منعدم الاستعمال فى القرن الخامس عشر ، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك ومهما يكن ، فانا لا نعرف عملة للقبيلة الذهبية نقشت بالحروف المغولية . ولكننا نجد عملة عليها العبارة التركية : (قوتلوغ بولسون) أى (أسعده الله) وهى قطع لا تحمل اسماً وترجع الى عهد متأخر .

ولم يسمع ابن بطوطة فى زيارته معسكر أوزبك خان الا كلمات تركية فعند نساء القصر مثلاً كانت عبارتها (أولوخاتون) و (كوجوك خاتون) تستعملان بمعنى

(السيدة الكبيرة) و (السيدة الصغيرة) وكان الخان نفسه يصف مرييه الروحي وهو من السادات بكلمة (آتا) وهى كلمة تركية بمعنى الأب : وكانت اللغة التركية تستعمل فى العبارات الاسلاميه وفى مدينة آزاق ، سمع ابن بطوطه رجلا يعظ بالعربية ، وبعد ان دعا للسلطان (وهو فى ذلك الوقت أوزبك خان) ولحاكم المدينة (وأصله خوارزمى) ، وللحاضرين ، عاد فقال عظته بالتركية ، ولم يكن هذا فى مسجد بل فى مأدبة ، وكانت العادة فى ذلك الوقت أن يقرأ القرآن الكريم ثم تنشئ بعد ذلك القصائد الدينية العربية والفارسية والتركية ، ويضيف ابن بطوطه أن القصيدة الدينية العربية كانت تسمى (قولاً) وأما الفارسية أو التركية ، فكانت تسمى (ملمعا) ثم أطلقت هذه الكلمة فيما بعد على الكلام المركب من العربى والفارسى والتركى .

الاسلام فى القبيلة الذهبية

ولا بد أن أثر أتراك خوارزم ، وآسيا الوسطى فى نشر الاسلام فى القبيلة الذهبية ، كان أكبر من أثر بلغار الفولجا ، وكان الأتراك المحليون (القبجاق) يتعرضون من قبل عهد المغول - للتأثير المسيحى الوافد من روسيا وغرب أوربا وفى العهد المغولى نفسه لم يفتر الترويج للنصرانية ، وآية هذا وجود معجم قبجاقى - قوماني ، يرجع الى آخر القرن الثالث عشر ، ويحوى ترجمة تركية للانجيل ، ولبعض الأناشيد الكاثوليكية ، وتؤكد هذه الترجمة علم مروجى المسيحية باللغة ، وقد رأى ابن بطوطه فى القرم بين كفه Kaffa و ك - Kerch قوما من القبجاق يدينون بالنصرانية ، وكان بالقرم نصارى محليون ينتسبون الى عنصر قومى آخر ، وفى سنة ١٣٨٢ توفى بالقاهرة أنس ، أبو سلطان مصر الجركسى القرمى برقوق ، ويقال ان أنس هذا كان نصرانيا ثم أسلم .
وانه لم يستطع - حتى فى مصر - أن يحسن العربية

ولا التركية ، وظل يتكلم الجرحسية • وكان الترجمان -
بسبب ذلك - لا يفارقه •

ولما كانت المدنية الاسلامية هي العليا في ذلك الوقت ،
فقد دخلت في الاسلام اقوام كانت أرسخ قدما في التقاليد
المسيحية من القبطياق •

وبينما كان المؤلفون ، ومن بينهم (رو بروق) يؤكّدون
أن اللان وال (آس) كانوا نصارى ، فقد قايل ابن بطوطة
في (سراي) قوما من الأس يعتنقون الاسلام ولم يدخل هؤلاء
النصارى في الاسلام بالاكراه ، بل كان قساوستهم - متلهم
كمثل مشايخ المسلمين - يعفون من الضرائب ، وفي عهد
(برکه) المسلم أسست في (سراي) سنة ١٢٦١ أبروشية
مسيحية • ووردت فيما بعد روايات مختلفة عن دخول بركة
في الاسلام فيقول أبو الغازي ان بركة دخل في الاسلام وهو
خان ، على يد تاجرين وافدين من بخارى • وتقول روايات
أخرى انه دخل الاسلام قبل اعتلائه العرش بتأثير بعض
مشايخ خوجند وبخارى (ويذكر في هذا الباب اسم سيف
الدين البافري المتوفى سنة ١٢٨١) ، وقد نسبت الى
(برکه) فيما بعد احدى مناقب أوغورخان الواردة في رشيد
الدين ، وخلصتها أن أوغورخان رفض أن يرضع لبن أمه
لأنها كافرة ، ويفهم مما حكى روبروق أن بركة كان مسلما
في سنة ١٢٥٣ أي وباطلي لا يزال على قيد الحياة وأن لحم
الخنزير لم يكن يؤكل في أوردا بركة ، ومن الجدير
بالملاحظة أن تحريم لحم الخنزير مطبق حتى في الأماكن
التي يصعب فيها هذا التطبيق مثل الصين حيث يعتبر هذا
اللحم الغذاء الرئيسي للشعب ، وكان أوردا بركة يقع في
ذلك الوقت بين دربند والبولجا ، أي - كما يقول روبروق -
على الطريق الذي يمر به كل المسلمين الآتين من ايران وتركيا ،
وكان هؤلاء المسلمون حين يأخذون طريقهم الى باطلي ،
يحملون الهدايا الى بركة ، ثم يضيف روبروق أن باطلي أمر بركة

فى سنة ١٢٥٤ بان ينتقل الى شرق الفولجا ، لكى لا يأخذ هذا الجزء من الهدايا التى يحملها له السفراء ، وقد وتق اواصر الصداقة بين بركه وبين سلطان مصر عداؤهما المشترك لمغول ايران ، وبهذه المناسبة استقبل بركة عدة سفارات من قبل سلطان مصر . . يرجع اليها الفضل فى وصف الأوردا ، وأحواله الخارجية ، ولم يكن الخان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين ، وكان لكل سيدة ولذل أمير امام ومؤذن . وكانت مدارس تحفيظ القرآن للصبيان كثيرة . ومع هذا كله فقد كانت تتبع هناك بعض عادات المشركين المتبعة فى منغوليا ، فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الاسلام وهى عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال وقد نبه على سفراء مصر مقدما بالآ يغسلوا ملابسهم فى الأوردا . ولكنهم - لشدة حاجتهم لذلك - كانوا يغسلونها سرا . ولم يكن بد لمعاصرى بركة ممن جاؤا الى مصر من أن يتأثروا بالمدنية الاسلامية أكثر من أى شىء آخر .

ومن المعلوم أن بركه زوج ابنته للسلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ومن هذا الزواج ولد أول ابن لبيبرس وهو الملك السعيد خان محمد المسمى فى نفس الوقت ناصر الدين بركه خان . أى أن له - كما يتضح - اسما مغوليا الى جانب اسمه الاسلامى .

ويذكر المؤرخ المصرى الكتبى صاحب (عيون التواريخ) أن ناصر الدين بركه خان هذا ولد سنة ٦٥٨ = ١٢٦٠ م . (ويوجد هذا الجزء من مؤلفات الكتبى مخطوطا فى استانبول) وهذا مستحيل ، لأن العلاقة بين بركة وبين حكومة مصر لم تبدأ الا سنة ١٢٦٢ ، وفى نيسان ١٢٧٩ ذهب السلطان الصغير الى الشام مع أمه بنت بركه خان ، وبعد ذلك بقليل قامت بسورية ثورة ، وأرسل السلطان أمه لتهدئتها ، وخرج الأشراف لاستقبالها ، فخرجوا ساجدا أمام التختروان ، وفرشوا كماداتهم الأرض تحت أقدام الخيل ، ولكن محادثاتها

لم تنجح فأرسل السلطان امه الى قلعة كراك حيث نفى هو فيما بعد ، وكان هذا السلطان كما يروى (الكتبى) جوادا ذا مرحمة بريئا من الظلم والكبر وظهر سخاؤه فى كراك حتى أثار شبهة حمية قلاوون كما يقال ، وظلت زوجته (غزية خاتون) بنت قلاوون تبكيه حتى ماتت (عاشت هذه السيدة حتى سنة ١٢٨٨ وفى سنة ١٢٨١ جاءت بجثته الى دمشق ودفنته فى تربة بيبرس) .

ويصرح سفراء مصر بأوردا بركة خان بأنه لم يرزق الا اناثا ، ولكن الكتبى يذكر أن الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان ، وخال ابن بيبرس توفى بالقاهرة فى فبراير سنة ١٢٨٠ ، ويروى أن لهذا الأمير ديوان شعر عربى ، وكتبا فى الكلام ، وتفسيرا للقرآن ، وأنه سقط من مكان عال فقضى فى الحال وسنه خمسون سنة .

انقسام القبيلة الذهبية

وبعد وفاة بركة خان ، ولى الأمر من جديد خانات مشركون ، ولم يستقر الاسلام نهائيا الا فى عهد أوزبك خان (١٣١٢ أو ١٣١٣ - ١٣٤٠) ، ويروى ابن بطوطة أن معلم أوزبك خان هو سيد بن عبد الحميد ، وتقول رواية أخرى ان الشخص الذى هداه الى الاسلام وسماه السلطان محمد أوزبك خان هو الشيخ سيد آتا التركستان المدفون بطقشند وأحد خلفاء زنكى آتا (والاسم الأصلى للشيخ سيد آتا هو أحمد) .

وكان ذلك فيما يقال فى سنة ٧٢٠ هجرية الموافقة لعام الدجاجة (١٣٢١) وتروى عن هذا الشيخ أسطورة خلاصتها: أنه قاد شعب أوزبك خان الى ما وراء النهر حيث تسمى الشعب باسمه (أوزبك) وأما القاعدون عن الهجرة معه ، والباقون فى تركستان فقد سموا (قالمق) = أى (المخلقون) ولا شبهة فى أن هذه الرواية من صنع الخيال ، ومع هذا

فان بعض المصادر ومنها ابو الغازى تقرر أن اسم شعب الأوزبك مشتق من اسم (أوزبك خان) ولا شك ان هذا الرأى أرجح من الرأى القائل بأن أوزبك معناه : (حاكم نفسه بنفسه) وهو رأى كثير من العلماء ومن بينهم رادلوف . ويسمى مؤرخو القرن الخامس عشر بلاد جوجى خان او شعبه باسم (شعوب أوزبك) = (أوزبك او لوسلرى) وفي آسيا الوسطى صارت كلمة أوزبك بمعنى شعب مرادفة لكلمة (جاغاتاى) التى كانت تطلق على بدو تركستان الذين تتكون منهم القوات العسكرية للخانات المحليين ، وكان المشايخ فى آسيا الوسطى لا يكفون عن العمل لادخال خانات أوردا فى الاسلام حتى نجحوا فى النهاية ، وفى سنة ١٣٦٠ اقام عزيز خان ، واسمه المنقوش على العملة ، هو (عزيز شيخ) حكومة فى سراى .

ولما كان هذا الشيخ سفيها فقد نصحه السيد محمود اليسوى حفيد أحمد اليسوى وسمع الخان للشيخ وزوجه ورجع عن غيه ، ولكنه ما لبث بعد ثلاثة أعوام أن عاد الى حياة المجون الى أن قتل .

وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر . كان شعب (أوزبك) المنظم عسكريا يعتبر شعبا موحدا ، فلما اضمحلت القبيلة الذهبية بالتسديج . وفقدت أجزاؤها المختلفة استقلالها لم تعد كلمة (أوزبك) فى جنوب روسيا علما على أمة أو على دولة ، بل صارت لا تدل الا على القبائل التى هاجرت الى تركستان .

وكما كان الروس يطلقون كلمة تثار على شعب الآلتون أوردا . (القبيلة الذهبية) أيام كان يتكلم المغولية ، فقد ظلوا يطلقون عليه نفس الاسم بعد أن تتركت المنطقة كلها ، وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كان الروس يطلقون كلمة تثار على كل الخانيات المتصلة بهم فى القرم وقازان وآزدرخان (اصطراخان) وسيبيريا ، ومن المعلوم أن أطول

هذه الخانيات عمرا هي خانية القرم ، ويلاحظ أن اصطلاح تثار قد تأصل فيها أكثر منه في غيرها .

ولما احتل العثمانيون القرم سنة ١٤٧٥ أطلقوا هم على أهاليها كلمة تثار ، ومن المعروف أن أهل القرم يرفضون الآن هذه التسمية ويسمون أنفسهم الترك ، هذا على حين أن الطبقة المتقفة من سكان وادي الفولجا قد اعتبرت كلمة (تثار) (وذلك بعد بعض المناقشات) اصطلاحا قوميا وترتب على ذلك ظهور (جمهورية التثار) وكان الروس في وقت ما يستعملون كلمة تثار على نطاق واسع ، حتى أن رادلوف كان يسمى الأوزبك - كما كان يسمى كل الناطقين بالتركية في آسيا الوسطى - تثارا ، وجرت محاولات منذ ذلك الوقت لتحديد مفهوم كلمة (تثار) ولكن لم يمكن حتى الآن تثبيت الفروق اللغوية والاتنوغرافية بين التثار وبين الأقوام التركية الأخرى .

وتذكر المصادر في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، قوما غير التثار لهم وحدتهم الاتنوغرافية واللغوية والسياسية ، ولهم أمراؤهم (النوغاي) وكان مركزهم في ذلك الوقت هو (سراييق) الواقعة بالقرب من منبع (ياييق) والتي تضم مدافن خانات الآلتون أوردا .

وقد خلط كثير من المؤلفين - وأولهم أبو الغازي - بين سراييق هذه وبين يكي سراي وفقد النوغاي كيانهم السياسي ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، عندما كون قازاق الياييق جيشا . وكان هؤلاء القازان ، في أول أمرهم ، مستقلين عن موسكو ، ولكنهم ما لبثوا أن أخضعوا لقيصر روسيا في القرن السابع عشر ، ومما تجدر ملاحظته أن الروس كانوا - في ذلك الوقت - يستعملون وحدهم اصطلاح (نوغاي) .

فأما المصادر الشرقية وعلى رأسها أبو الغازي ، فكانت تطلق عليهم اسم مانفيت وهو اسم أحد الأقوام التي تتركت ،

والآن حدث العكس اذ تسعمل كلمة نوغاي فى آسيا الوسطى
بمعنى أوسع مما كان لها فى روسيا حتى انها لتطلق هناك
على التتار القاطنين وادى الفولجا .

وفى جنوب روسيا الآن تطلق كلمة نوغاي على قومية
خاصة بالقرم وشمال قافقاسيا . وتختلف لغة النوغاي
— بوصفهم شعبا لم يظهر الا فى العهد المغولى — عن لسان
القاراخاي والبلغار ، فان هذين اللسانين أقدم منها وأقرب
الى لغة القبيجاى قبل العهد المغولى .

والآن فما زالت لدينا مسائل غامضة : كيف كانت حياة
الترك القومية والسياسية فى آسيا الوسطى طوال القرنين
الثالث عشر والرابع عشر ؟ وكيف تم تترك المغول ؟ هذا هو
موضوع المحاضرة القادمة .

المحاضرة العاشرة :

المغول فى آسيا الوسطى اضطراب الموقف السياسى

بينما كان لخانات القبيلة الذهبية - فى أول أمرهم - نوع من الاستقلال بفضل بعد بلادهم عن منغوليا ، كان النظام السياسى فى المناطق التى غزاها المغول بتركستان ، وفى آسيا الوسطى بوجه عام ، مائعا مطموس المعالم . ولا شك فى أن جنكيزخان كان يريد أن يخلف كل البلاد التى فتحها فى غرب منغوليا لأولاده الثلاثة الكبار . بل لا شك أيضا فى أن هؤلاء الأبناء قد مارسوا الحكم فى هذه المناطق وأبوهم على قيد الحياة ، ولكنهم - مع هذا - لم يحددوا المنطقة التى يحكمها كل منهم كما لم يحددوا مدى نفوذ كل منهم بالنسبة لنفوذ الرئيس الأعلى للامبراطورية .

ومما تجدر ملاحظته أن (أوردا) كل منهم كان قريبا من (اوردا) الآخر رغم ترمى أطراف الامبراطورية .

كان (اوردا) جوجى على المجرى الأعلى لنهر ايرتش وتقول المصادر القديمة انه مدفون هناك ، وان كان قبره قد ظهر فيما بعد فى مكان بعيد نحو الغرب وهو (صارى صو) الواقعة فى ملك شيبان ، مما يتفق مع قاعدة المغول التى تقضى بأن يرث الابن الأصغر (اوردا) الأب ، والى جوار ايرتش عاش فيما بعد ، (اوردا) (١) الابن الأكبر لجوجى ،

(١) كلمة أوردا فى هذه الجملة اسم علم . وليست بمعنى معسكر وهو المعنى الذى ورد قبل ذلك .

وكان ملك الابن الثالث (او كه دى) = Ogedey أبعد نحو الجنوب على ضفة نهر (اميل) الذى يصب فى بحيرة الاكول، ودقن أو كده ي كما يرون رشيد الدين فوق جبل عال ينبع منه أحد فروع نهر ايرتش ويقع على مسيرة يومين * ويتحدث الراهب الصينى جان - جو Tch,ang - Tchouen وقد مر بأوردو المغول سنة ١٢٢١، عن طريق أنشئ عبر الألتاي بأمر من أو كه دى ، ويمكن أن نستنتج من هذه الرواية أن أو كدهى كان يعتبر نفسه حاكما على تلك النواحي حتى فى حياة أبيه، ولم نستطع حتى الآن أن نجد فى أى مصدر تحديدا لبلاد (او كدهى) وكل ما لدينا هو قول الجوينى : « كان وطن أو كدى - وأبود حى - داخلا فى حدود اميل وقوبوق » ومن المعلوم أن هذين النهرين ينبعان تقريبا من مكان واحد ، ثم يجرى أحدهما غربا والآخر شرقا * وأما (اوردو) الابن الثانى جاغاتاي ، فقد أورد عنه الجوينى معلومات أصدق وأيقن فقد كان يقع على روايته فى (قوياس) المجاورة لآماليق ، وأما البلاد التى يحكمها فكانت تمتد من حدود بلاد الاويغور الى سمرقند وبخارى ، ويؤخذ من « روايات جان - جون أن جاغاتاي هو أول من فتح الطريق المار بجوار بحيرة سايرام ، عبر جبال تالكى ، وأنه أيضا أقام الجسور من جديد على نهر جيحون بعد أن دمرت فى حرب سنة ١٢٢٢ ونعلم من مصادر أخرى أن (قوياس) و (اوردو) جاغاتاي كانا بمنطقة قولجه فى جنوب نهر ايلي، ولقد رأينا فى كتاب الكشغرى أن (قوياس) مدينة تقع خلف بارسخان ويقول فى مكان آخر أن (قياس) اسم بلاد تخسى وجكيل ، وهى ثلاثة حصون يسمى أحدها (سابليغ قياس) والثانى (أورك قياس) والثالث (قراقياس) *

(انظر ديوان لغات الترك ج ٣ ص ١٢٩) *

ويذكر الجوينى (اوردو) جاغاتاي وخلفائه الأولين باسم (اولوغ او) أى البيت الكبير ، ولا شك أن لاطلاق هذه

الكلمة (اولوغ او) على مصر الخان فى هذا الوقت المبكر أهمية خاصة ، وليست لدينا معلومات عن المكان الذى دفن به جاغاتاي وخلفاؤه .

وهكذا كانت بلاد أبناء جنكيز الثلاثة تشغل مكانا أصغر نسبيا اذ كانت تمتد من المجرى الأعلى لايرتيش الى جنوب ايلي . ويستنتج من هذا أنه لا يمكن اعتبار (الاوردادات) الثلاثة عواصم لثلاث حكومات مختلفة ، وتظل مسألة علاقات جاغاتاي وأوكدهى بمنغوليا مبهمة ، فبعد موت جنكيز انتخب اوكدهى امبراطورا ونقل عاصمته الى منغوليا حيث شيد مدينة قاراقوروم ، وبنى بها وحولها عددا من القصور ، ثم بدأ يمارس حقوقه فى الحكم غير ناظر الى أى حق لتولوى بوصفه وارث منغوليا . . الوطن الأصلى لأبيه .

أما فيما وراء النهر ، فقد كان الحكم بيد محمد يلواج المعين من قبل أوكدهى رغم أن الأراضى الممتدة الى سمرقند وبخارى كانت خاضعة لجغتاي .

كان الوضع اذن هكذا سنة ٦٣٦ (١٢٣٨ - ١٢٣٩) أى وقت واجه المغول فى بخارى ثورة الشعب وخاصة الفلاحين ، وبعد ذلك التاريخ بقليل عزل جغتاي محمودا من منصبه دون أن يستشير أخاه أوكدهى وعين مكانه حاكما آخر ، فلما شكّا محمود الى أوكدهى ، استوضح أخاه الأمر فرد عليه معتذرا ، ولم يكتف أوكدهى بقبول العذر ، بل أقطع أخاه جغتاي كل ما وراء النهر وقد استعمل فى هذا المقام الاصطلاح المغولى (انجو) (بمعنى اقطاعية الأمير أو مخصصاته) التى يستطيع بايرادها أن يسهم فى سد حاجات البلاط ، وكان لكل أمير بالاضافة الى ذلك الحق فى أن يحكم عددا من القبائل أى (أولوس) ، وكان من الممكن الظن بأن الحكام المعينين من قبل جاغاتاي كانوا يحكمون بعد ذلك بلاد ما وراء النهر ، ولكن رشيد الدين يروى أن والى (قاراخوجو) و (بش باليق) (أى بلاد الأويغور ، وختن ، وكاشغر ، والماليق ، وقايلق ،

وسمرقند ، وبخارى حتى بضاف جيحون) فى عهد (أوكدهى) هو مسعود بن محمد يلواج وكان معيناً من قبل أوكه دى ، وأما محمود يلواج نفسه فقد عين حاكماً عاماً على بكين وتوفى سنة ١٢٥٤ وهو فى هذا المنصب .

ولم يستطع المؤرخ الفارسى (الجوزجاني) ان يفهم هذا الوضع السياسى ، فقرر خطأ ان مسعود بك كان وزيراً لجفتاى . ونحن نعلم ان مسعوداً كان يمارس حقوق الحكم على المنطقة الواسعة الممتدة من يش باليق الى سمرقند وبخارى وان هذه المدينة كانت تبجله ، فقد أنشأ بها مدرسة كبيرة تعرف بالمسعودية ، خربها مغول ايران سنة ١٢٧٣ ثم اعيد بناؤها ثم دفن بها بانيها سنة ١٢٨٩ ، ونعلم أيضاً انه أنشأ (مسعودية) أخرى فى كاشغر ، وأن ابنه الثالث اتخذها مقراً له فى أوائل القرن الرابع عشر ، ومما يلفت النظر أن هذا التاجر الخوارزمى المسلم (يلواج) استطاع أن يقبض — طول حياته — على أزمة الحكم فى آسيا الوسطى رغم التغيرات السياسية المتعددة ، واستطاع أيضاً أن يترك هذا الحكم لأبنائه من بعده .

الصراع والمنافسة

كان من أسباب القلاقل فى امبراطورية المغول عدم وجود قانون لوراثة الحكم ، فقد أدى ذلك الى كثرة المباحثات والجدل بعد وفاة كل خان . وكان لابد للاعتراف بالخان الجديد من أن يحضر كل أعضاء الأسرة حفل اعتلاء العرش ، ولذلك كان يعقد بهذه المناسبة (قورولتاي) ، وكانت ارادة الخان المتوفى مرعية المقام ، ولكنها لم تكن تفرض على الأمراء بلا قيد ولا شرط ، وربما انقضت سنون بين وفاة الخان وانعقاد القورولتاي . وكان الحاكم طوال هذه المدة وطبقاً للتقاليد هو زوجة الخان المتوفى ولكن سلطانها لم يكن يعترف به من الجميع . بل كان بعض الأمراء يتصرفون فى ايلاتهم بوحى من أنفسهم غير عابئين بحقوقها .

وقد تجلى هذا النوع من القلاقل فى الفترة بين وفاة أوكه دى (سنة ١٢٤٦) ، واعتلاء ابنه كويوك العرش فى سنة ١٢٤٦ . اذ كانت ارادة المتوفى أن يلى العرش شخص آخر . وفى عهد أوكه دى هرب مسعود بك مع الحكام الآخرين خوفا من أن ينقلب عليهم أوكه دى . ولجأ مسعود الى باطى ولكنه استطاع قبيل تنصيب كويوك أن يرجع : واشترك فى قورولتاي سنة ١١٤٦ بصفته واليا . وصدق كويوك على تعيينه واليا على (ما وراء النهر وتركستان وسائر الولايات) .

وتوفى كويوك سنة ١٢٤٨ ، فانتقل العرش الى ابن آخر من أبناء جنكيز هو تولوى ، وفى سنة ١٢٥١ نصب مانكو الابن الأكبر لتولوى خانا على الامبراطورية كلها . ولم يكد يعتلى العرش حتى ائتمر به بعض الأمراء من أبناء جاغاتاي وأوكه دى ولكنه قتل جزءا منهم ونفى الجزء الآخر . فتبدد بذلك شمل شعوب جاغاتاي وأوكه دى ولكنها — على هذا الشتات — لم تبتد . فمثلا ظلت أرملة كويوك حاكمة على (أوردنا) نهر اميل . وبقيت (اروكنه خاتون) زوجة قاراهاكو حفيد جاغاتاي حاكمة على (اوردنا) جاغاتاي . ولكن السلطان الفعلى والنفوذ بقيا فى أسرة تولوى وجوجى .

وفى سنة ١٢٥٣ قال مانكوخان للمروج الكاثوليكي روبروق : ان سلطاني أنا وباطى منتشر فى كل البقاع انتشار نور الشمس . ويؤخذ من كلام روبروق أن دائرة نفوذ مانكو وباطى كانت تتجاوز حدود تالاس الشرقية . أى أن جزءا من أراضى قبائل جوجى كانت خاضعة لنفوذ مانكو .

وليست لدينا معلومات عن نشاط مسعود بك ابان فترة القلاقل والمؤامرات الا ما يقال من أن حياته تعرضت للخطر بسبب علاقته بمانكو . فلما استتب النظام من جديد وسعت حدود ولايته . فشملت ما وراء النهر وتركستان وأوتزار وبلاد الأويغور ، وختن ، وكاشغر ، وجند ، وخوارزم ، وفرغانة ، وفى خريف سنة ١٢٥٣ خرج هولاکو أخو مانكو من منغوليا

على رأس جيش استولى به على بغداد * وأجهز على الخلافة العباسية * وأسس بهذا حكومة مغولية فى غرب اسيا وكان جيش هولاء فى أول الامر يتحرك ببطء مثل جيش جنكيزخان فيما سبق * ولم يستطع أن يعبر نهر جيحون الا فى سنة ١٢٥٦ ، وفى سنة ١٢٥٤ استقبلته اركنه خاتون فى (الماليق) و (اولوغ او) وفى خريف سنة ١٢٥٥ قضى أربعين يوما فى سمرقند حيث تكفل مسعود بك بقضاء كل حاجياته *

الامبراطورية الجغتائية

ولكن الموقف ما لبث ان تغير بعد وفاة مانكوخان فى سنة ١٢٥٩ ، فقد نشبت الحرب بين اخويه (قوبيلاي) و (اريق بوغا) من أجل العرش * فنصب الأول نفسه خانا فى الصين ، ونصب الثانى نفسه فى منغوليا ، وكانت أولى نتائج هذا الوضع هى عجز منغوليا عن استيراد القمح من الصين ، فاوفد (اريق بوغا) الأمير (آغو) أحد أبناء جاغاتاي الى تركستان ليدبر أمر استيراد المواد الغذائية والضروريات عامة ومن بينها الأسلحة ، واستطاع آغو أن يستولى فى وقت قصير على كل الولايات التى كانت تابعة لشعب جاغاتاي ، بل استولى أيضا على خوارزم ، وكانت فى قبضة شعب جوجى ، وكان من الطبيعى أن يفعل كل ذلك لحسابه الخاص دون أن يفكر فى تحقيق المهمة التى أوفده من أجلها اريق بوغا وجاءت اركنه خاتون اريق بوغاتشكو آغو ، والغالب أن مسعود بك ذهب اليه أيضا ، فأعلن اريق - بوغا الحرب على آغو ولكنه هزم بعد أن أحرز بعض الانتصارات فترك تركستان ، وأرسل اركنه أحرز بعض الانتصارات فترك تركستان ، وأرسل اركنه خاتون ومسعود بك الى (آغو) فتزوج آغو (اركنه خاتون) وعين مسعود بك واليا على سمرقند وبخارى ، ثم استطاع آغو بفضل الأموال التى جمعها مسعود أن يفتح قبيل وفاته سنة ١٢٦٦ أوترار الداخلة فى بلاد بركة خان *

وبعد وفاة آغو نصب مبار كِشاه (وهو ابن اركنه خاتون من زوجها الأول) خانا على بلاد جاغاتاي ، وذلك بالقرب من نهر آنكرن، ولكنه ما لبث أن فقد عرشه على يد أمير جاغاتائي آخر هو (بوراق) الذي أرسله (قوبيلاي) بعد أن سيطر على منغوليا ، ثم اضطر بوراق بعد قليل الى ان يخضع بدوره لقاييدو حفيد أوكه دى ، وكان قاييدو هذا يعمل أول مرة فى جيش اريق بوغا ولكنه بعد أن اختفى اريق من مسرح الحوادث ، واصل الحرب مستقلا ضد الغو وخلصائه وفى سنة ١٢٦٩ عقد قاييدو قورلتايا بالقرب من نهر تبالاس ، تقرر فيه الدفاع عن الأراضى المزروعة ضد غارات البدو ، وتعهد الأمراء بأن يعيشوا فى أعالي الجبال ، وفى مناطق الاستبس ، وألا يتركوا قطعانهم ترعى فى الحقول ، وعهد الى مسعود بك مرة أخرى بإدارة المناطق الحضرية ، وكان تعيينه هو وابنيه الكبيرين من قبل قاييدو ، أما ابنه الثالث فقد عينه جابار بن قاييدو خليفته الذى ولى الأمر سنة ١٣٠٣ فى مكان قريب من نهر (اميل) ، ويفهم من هذا أن مقر قاييدو وخلفائه كان منذ البداية مكانا تابعا لوكه دى ، مع أن قاييدو مدفون فى مكان بالجبال الواقعة بين نهري جو وايلي ، ومع أن السلطة العليا فى تلك المنطقة كانت فى ذرية أوكه دى ، فقد كان الخانات الجغتائيون يصلون أحيانا الى الحكم ، وكان أطول هؤلاء زمانا هو (تؤولا) ابن (بوراق) ١٢٨٣ - ١٣٠٦ وقد عاش كثيرا بعد قاييدو ، ولا نعلم هل ثبتت الحدود بين شعوب جاغاتائي واوكده أم لا ، وكذلك لا نعرف هل ثبتت الحدود فى ذلك الوقت بين شعوب أبناء جنكيز الأربعة فى آسيا الوسطى .

وفى الشمال، كانت بلاد تولوى تضم منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر الأراضى التى كانت فى ممتلكات جوجى ، ومن بينها مناطق القيرغيز .
وقد تناولت هذه المنطقة بايضاح فى تاريخ قوبيلاي ، وفى كتاب أبى الفازى - بالاضافة الى ذلك - رواية عن

غزوات قام بها المغول في المنطقة بين بلاد القيرغيز ومصب
ينيسى ، حتى منطقة آلاقيين ، ولكن هذه الرواية لم تؤكد
في المصادر الأخرى .

وفي الشمال الغربي كانت بلاد قوبيلاي تصل الى
إيريتش ، وفي رواية أن الحدود بين بلاد قوبيلاي وقايدو
كانت خطا يمر بالقرب من قايااليق ، وانه لمن الصعب التوفيق
بين هذه الأقوال وبين ما يقال من أن جابار اتخذ لنفسه
عاصمة بالقرب من نهر اميل .

ويدخل ماركو بولو اثناء وصفه لتركستان الحالية -
ختن والمناطق الأكثر بعدا نحو الشرق في ممتلكات قوبيلاي ،
ولكنه يقرر في نفس الوقت أن المناطق الممتدة من كاشغر الى
ذلك المكان ، والى أبعد منه تابعة لتركيا الكبرى (هكذا
يسمى ماركو بولو ممتلكات قايدو) . أما عن باركند
فان ماركو بولو يخطيء مرة أخرى حين يقرر أنها من ممتلكات
قايدو صهر الخان الأكبر ، ومن الروايات المهمة قول
رشيد الدين ان (ولاية الأويغور) احتفظت بحيادها أثناء
الحرب التي نشأت بين قوبيلاي وقايدو ، وكانت تحاول
تحسين علاقاتها بالطرفين معا . ومن المفهوم أن سلالة
الأديقوت كانت لا تزال تحكم في بلاد الأويغور .

ولما خضع أديقوت - الأويغور (بارجوق) لجنكيز خان
سنة ١٢٠٩ ، اشترك أولا في الغارة التي شنت على كوجلوك
سنة ١٢١٨ ، ثم في الهجوم على محمد خوارزمشاه ، ثم في
الحرب التي شنها جنكيز على التانكوت ، وبعد وفاة بارجوق
- وذلك في عهد أوكه دي - خلفه أيناؤه الثلاثة واحدا بعد
الآخر ومات الأول في عهد (توراكين) أرملة أوكه دي التي
حكمت من سنة ١٢٤١ الى سنة ١٢٥٦ ، أما الثاني فقد أعدم
في عهد مانكو لأنه اتهم بتدبير مؤامرة لقتل مسلمي (بش
باليق) جميعا أثناء صلاة الجمعة ، وكان قطع رأسه بيد أخيه
الذي ولي الأمر من بعده .

والظاهر ان اخبار اسرة الاديقوت تقف عند هذا الحد -
 واذا كانت حدوده الخان الكبير قد استطاعت ان توسع
 حدودها قليلا على حساب ممتلكات قايدو ، فقد استطاع
 قايدو ان يوسع ممتلكاته نحو الجنوب والغرب على حساب
 ممتلكات خلفاء هولكو وجوجي ، وكانت مملكة قايدو تشمل
 كل الجزء الشمالى الممتد من بدخشان ببلاد الافغان الى سواحل
 مرغاب فهناك كان يعسكر (ساريان) وهو احد ابناء قايدو
 الاربعة والعشرين ، ومن الطبيعى ان اولوس (اى شعب)
 جغتاي كان يفقد بالتدريج المناطق الشرقية الواقعة شرق
 المجرى الأدنى لسيحون ومع هذا ، فلا ندرى أين كان مقر
 خلفاء (اوردو) بالضبط فى النصف الثانى من القرن الثالث
 عشر ، ويرى رشيد الدين ان جيشا من جيوش المغول بآسيا
 الوسطى مر اثناء توجهه الى معسكر (قونجى) احد
 خلفاء (اوردو) بمدينة تتى جتد واوز كند ، ويمكن الاستدلال
 بهذه الرواية على ان مقر قونجى كان يقع الى الغرب أو الشمال
 الغربى ، أما ماركو بولو فيقول ان بلاد قونجى تقع فى
 أقصى الشمال ، فى مكان يعيش به الناس كما يعيش
 الحيوان ولا توجد به الحبوب ، وفى بعض جهات تجر
 الكلاب العربات بدلا من الخيل وقد توفي قونجى وقايدو
 لا يزال على قيد الحياة ، وانتقل الحكم من بعده الى ولده
 (بايان) ولكن كويكوك وهو احد أحفاد اوردو ، بدأ ينازعه
 العرش مستعينا بقايدو وكانت رحى الحرب بينهما دائرة
 قبل ان يتم رشيد الدين تأليف كتابه .

ويقرر مؤرخو العرب الذين حصرروا كتبهم بمصر
 وسوريا - وعلى رأسهم أبو القدا - أن قونجى وخلفاءه كانوا
 يزاولون الحكم فى غزنة وباميان ، ومع أن المؤرخين
 الايرانيين وهم أكثر علما فى هذا الباب لم يؤيدوا هذا الخبر ،
 فإنه انتشر فى الكتب الأوروبية ومن بينها كتاب الدوال
 الاسلامية للين بول (وقد صححت هذه النقطة فى الطبعة
 الروسية لهذا الكتاب) - والظاهر أن المؤرخين العرب خلطوا

بين اسم (قونجى) واسم (قولى) بن اورداء الذى اشترك مع هولاء فى غزو ايران ، والواقع أن (قولى) هذا أعظم فيما بعد ، ثم اتجهت كتائبه العسكرية فى أثناء الحرب بين هولاء وبركه الى الشرق فاستولت على غزنه وباميان ، ثم دخلت تحت حكم الأمراء الجغتائيين .

الحكومات المحلية

ومع أن آسيا الوسطى قد قسمت بين أعضاء أسرة الخان ، فقد كان بها منذ ابتداء القرن الرابع عشر اسرات حاكمة ترجع الى ما قبل العهد المغولى . وذلك على العكس مما حدث فى دولة الالتون اورداء . وثمة جزء من اخبار هذه الدول فيما كتب (جمال قرشى) فى بداية القرن الرابع عشر . وجزء فى نقوش القبور المكتوبة باللغة العربية الخاصة وكان هؤلاء الحكام جميعا يحملون اللقب العربى (ملك) وهو لقب الحكام التابعين فى ايران وآسيا الوسطى قبل عهد المغول . وكثيرا ما كانوا يردفونه بألقاب أكثر عظمة مثل (خان) و (سلطان) ، وفى احدى روايات جمال الدين قرشى يذكر اسم (ايلجى ملكشاه) حاكم فرغانه (مع اسم برهان الدين فيليخ وهو ولى من أولياء مدينة أوزكند) ومازال قبر صاتيلمس بن ايلجى ملكشاه موجودا . وكانت وفاته سنة ٦١٥ هجرية = (١٢٢٦ - ١٢٢٧) ويتبين بالنظر الى أسماء هؤلاء الملوك وألقابهم أنهم كانوا جميعا من أصل تركى ، بل توحى صيغ هذه الأسماء بأنها ترجع الى ماض بعيد . ومن هؤلاء الحكام المحليين (بالىخ بولكه أولوغ بيلكه اقبال خان) المتوفى فى أوليا آتا سنة ١٢٦٢ والمدفون بها . وكان العلماء يكتبون شواهد القبور بالعربية ، وقد أدرج جمال قرشى نصا كتبه على قبر كمال الدين الخوارزمى السوغناقى ، وهو أحد أولياء الترك بمدينة جنبد ، وكان هذا الشيخ معروفا عند التركمان باسم (شيخ بابا) وتوفى فى جنبد فى تشرين الثانى سنة ١٢٧٣ وسنة خضنة وثمانون ،

وينقل جمال قرشى الترجمة الفارسية لشاهد قبر يوجد على ساحل سيحون غير بعيد عن خوجند ، وبالإضافة الى هذا يدرج قرشى أبياتا فارسية مجهولة التاريخ فيلت فى مدح سلطان ختن (مونمش تكين) وفيها : أيها الملك عش طويلا حتى يقول الترك ما كان أطول عمر مونميش تكين ، وقد وردت العبارة الأخيرة باللغة التركية .

(يفلاق قرى بولميش مونميش تكين) .

وتدل المسكوكات التى ضربت فى بعض مدن آسيا الوسطى ، ومنها مدينة (أوترار) على وجود بعض الدول هناك خلال القرن الثالث عشر ، وكانت العادة ان تضرب هذه المسكوكات باسم الملك المحلى دون أن ينقش عليها هذا الاسم ، وليس ثمة مسكوكات تحمل اسم (قايدو) أو (تووا) أو غيرهما . على حين أن (مانكوتيمور) وهو من ملوك الآلتون أوردا كان ينقش اسمه على العملة ، وليس لدينا دليل على وجود حدود بين الأراضى التى كان يحكمها الخانات مباشرة والأراضى التى تركوها تحت حكم الدول المحلية السابقة عليهم ، ففى المالىق - وهى أقرب المدن الى اوردا جاغاتاي - كان الحكم بيد دولة محلية خضع مؤسسها لجنكيزخان . ومن ناحية أخرى كان ابن أرسلان خان القارلوقى يحكم (أوزكند) كبرى مدن فرغانة ، أخذها من مانكوخان ، ولا ندري لماذا أخذ هذه المدينة بالذات ، فقد كان الأولى به أن يأخذ قايايلىق التى كانت من ممتلكات أسرته ثم فقدت ، ولا ندري أيضا هل جافظ خلفه على هذه المدينة ؟ وهل كان (ايلجى ملكشام) الذى ورد اسمه من قبل ، من حلفاء أرسلان خان القارلوقى ؟

اضمحلال الحياة الحضرية

ومن المعروف أن روبروق زار قايايلىق سنة ٢٥٣ وقضى بها اثنى عشر يوما ، وقال فى وصفها : (انها مدينة كبيرة ، سوقها نشيطة) ومن المهم أنه كان للاويغور بها ثلاثة معابد

يوزية ، ولو بقى شيء من خرائب هذه المدينة التى احتوت على عناصر مدنية مختلفة ، لكان لذلك أهمية كبيرة ، ولكن حتى موقعها لم يمكن تحديده الى الآن ، ويقول روبروق انه مر شمال قاياليق بقصبة كل سكانها نساطرة ولهم بها كنائس . ولكن لم يمكن حتى الآن العثور على نقوش مسيحية في القسم الشمالى من منطقة يدى صو .

ورأى روبروق مدينة أجمل من قاياليق تقع شمال ايلي ، والى الجنوب قليلا من قاياليق . وكان أهلها مسلمين ، ولكنهم يتكلمون الفارسية لا التركية . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء هم المهاجرين الذين أتوا قبيل ذلك من الجزء الجنوبى من بلاد ما وراء النهر . ومهما يكن فإن الحياة الحضرية فى المنطقة الواقعة شمال ايلي كانت قد اضمحلت تماما وكان التتار - حرصا على استغلال المراعى الخصيبة - قد خربوا ما كان بهذه المنطقة من المدن ويقال أيضا ان التركمان كانوا مستولين هناك على معظم الأراضى . ولا تدرى ماذا يقصد روبروق بعبارة (التركمان) ؟ أيقصد شعبا تركيا معيناً - يحمل هذا الاسم ؟ أم أنه يقصد العناصر التركية المتخلفة ثقافيا واقتصاديا . (كلمة تركمان وخاصة بالصيغة العربية تراكمة تدل فى قافقاسيا (حتى الآن) على العناصر التركية المتخلفة) .

ان التأويل الثانى أرجح لأن جمال قرشى يتكلم عن قوم من التراكمة بالقرب من بارجكند وجند ، ولا يعقل أن يكون التركمان قد عاشوا هناك فى ذلك الوقت . وقد أكد روبروق أن الحضارة كانت مضمحلة فى تلك المناطق ، ثم عززه فى هذا القول بمصاحبه جان - دو وهو رحالة صينى مر هناك سنة ١٢٥٩ ويقول (جان - دو) (Techang To) وهو رحالة صينى مر هناك سنة ١٢٥٩ ويقول (جان - دو) ان شعبا كثيفا كان يعمر المناطق التى سكنها القاراخيطلاي من قبل وأن قنوات الري كانت عديدة ، ولكنه يقرر أيضا أن الخرائب وآثار الدمار كانت كثيرة .

وليس لدينا برهان على ان خراب المدن يرجع الى سياسة
 خانات المغول أو الى كثافة العنصر التركى ، بل لقد راينا
 الخانات ومن بينهم قايدو يتخذون التدابير لحماية الاراضى
 الزراعية - من افساد البدو ، وبالإضافة الى هذا فان قايدو
 وتووا قد أسسا مدينة جديدة فى فرغانة هى مدينة انديجان
 التى عظم شأنها فيما بعد والتى تتركت بالتدريج عن آخرها ،
 ويقول بابر انه لم يكن بها ولا بسوقها فى القرن السادس
 عشر من يجهل التركية - وتختلف هذه المدينة هن معظم
 المدن فى العهد المغولى ، اذ خلا الحديث عنها من ذكر قصور
 الخان ، بل من ذكر مقره بوجه عام - وربما دل على أن
 الخانات لم ينشئوها لأنفسهم ، ولكن خصصوها لينتفع بها
 الشعب -

وكان للقلق والفتن التى بدأت مبكرة فى دولة المغول
 آثارها السيئة على التجارة وعلى الحياة الحضريّة - وزاد
 هذا سوء تباين العناصر التى كانت تؤثر حضاريا ومدنيا
 على المغول ، فقد كان من المألوف أن يربى بعض أبناء الخان
 تربية اسلامية ، وأن يربى بعضهم تربية مسيحية - وكانت
 العناصر المتحضرة الخاضعة لحكم المغول ، يكيد بعضها لبعض
 بتدبير المؤامرات ، واثارة الفتن فى اوردا الخان - وبالإضافة
 الى هذا فقد كان فى دولة المغول - كما فى غيرها من الدول -
 صراع على تولى الحكم - ويروى مؤرخو الروس أن اعدام
 كثير من الحكام والنبلاء الروس فى عهد الألتون اوردا كان
 نتيجة للمؤامرات التى دبها هؤلاء الحكام الروس بعضهم
 ضد بعض - نعم ان التثار هم ناطقو الحكم وهم منفذوه -
 ولكنهم فى حقيقة الأمر كانوا آلة فى يد أعداء المحكوم عليهم
 وكان هذا الوضع يحدث أيضا فى البلاد الأخرى الخاضعة
 للمغول ولكن اوكدتهى أول خلفاء جنكيز استطاع وحده من
 بين الخانات أن يسمو فوق المؤامرات ، بل استطاع - بأحكامه
 العادلة غير المتحيزة - أن يصلح بين الأمراء وبين الأعيان حين
 اشتد بينهم الخلاف - ولكنه لم يكد يموت حتى بدأت فى

(الأوردوا) - فترة كثر فيها الحكم بالاعدام وبعد عشرة أعوام كان اعضاء الأسرة أنفسهم أكثر تعرضا لهذا الحكم من غيرهم .
(كان ذلك يحدث قليلا فيما قبل) وبعد عشرة أعوام اخرى كان التجار - ولا ذنب لهم - لا يكادون يجتازون بلدا الى بلد اخر حتى يقتلوا بسبب الحروب بين الحكومات المغولية .

وفي سنة ١٢٦٢ أمر (هولاكو) بعد أن هزمه (بركة) بالقرب من ترك Terek أن يقتل كل التجار الآتين من بلاد عدوه ، ورد بركة على ذلك بقتل التجار الوافدين على بلاده من بلاد هولاكو ، وهكذا يظهر أن المنافع الفردية والمنافع المؤقتة ، تكون في وقت الاضطرابات أرجح كفة من منافع الامبراطورية بوجه عام ، ويروى المؤرخون أن اعتبارات من هذا القبيل دفعت آلفو سنة ١٢٦٠ الى أن يثبت أركان ملكه في آسيا الوسطى ، وأعجب من هذا أن مغول ايران دمروا عن عمد مدينة بخارى سنة ١٢٧٣ ، لأنهم توهموا أنها قد تصبح قاعدة لهجوم يقوم به خصومهم من تركستان ليستولوا على ايران ، وكانت بخارى قد نهضت سريعا بعد أن استولى عليها المغول سنة ١٢٢٠ ، بل وصلت في خلال الثلاثين سنة الأولى من حكمهم الى درجة من الازدهار لم تبلغها من قبل ، وقد وصفها الجويني ، فأكد أن لامثيل لها في العالم الاسلامي ، أما ماركو بولو (وكان أبوه وعمه قد عاشا في بخارى ثلاثة أعوام من ١٢٦٢ - ١٢٦٥) فقد قال عنها انها أجمل مدينة في بلاد الفرس ، ولم تؤثر الثورة التي قامت بها ضد المغول (١٢٣٨ - ١٢٣٩) على عمرانها وازدهارها ، فقد استطاع محمود يالواج أن يقنع المغول وبخاصة أوكه دي بأن لا صالح للدولة في تدمير مدينة غنية كبخارى ثارا لجرائم بعض المتمردين .

ولكن بعض الخانات والأمراء كانوا يتصرفون ابان الثورات على نحو آخر . . كانوا يؤثرون أن يغنموا بضربة واحدة مبلغا كبيرا من أموال المدينة على أن يحصلوا على دخلها

بانتظام لمدة طويلة ، وقد تعرضت بخارى ابتداء من ١٢٦٠ الى مصادرة الأموال وإلى السلب والنهب ، ولكنها استطاعت حتى بعد مأساة (١٢٧٣) أن تجذب عيون عصابات السطو فنهبوها ، ثم استولى أبنا الغو المتمردان على ما بقى من ثروة المدينة غنيمة لهما - وبعد ذلك بسبع سنين (بين ١٢٧٥ و ١٢٨٢ تقريبا) لم يكن بقى من بخارى أى أثر ، ولم تبعث من جديد الا بعد أن اعتلى توتوا العرش .

ولا شك أن ما ترويه المصادر عن بخارى كان يقع فى مدن أخرى لا نعلم عنها الا قليلا ، وكان ينتظر أن نحصل على معلومات مهمة عن مدن آسيا الوسطى بدراسة الدليل = (الملحقات) الذى أضافه جمال قرشى (من رجال القرن الرابع عشر) الى ترجمة معجم عربى من القرن العاشر ! .

وقد اتهم محمد حيدر أحد كتاب القرن السادس عشر جمالا القرشى بالعصبية لمسقط رأسه بالاساغون ، والواقع أن القرشى أحصى مشاهير البلاد وأعلامها ، فلم يذكر الا عشرة أشخاص من سمرقند ، فلما تناول بالاساغون ذكر من أسماء المشاهير عددا لا ندرى كيف أمكن أن تنجبه المدينة فى وقت واحد ، وقد كان ينتظر قبل أن تصل إلينا مخطوطة (الملحقات) أن نجد بها مادة غزيرة عن الحياة الفكرية فى (بالاساغون) ولكن النسخ التى وجدت حتى الآن خيبت الظن ، فهى خالية حتى من اسم المدينة ، ولم يذكر من المنسوين إليها الا شيخ المؤلف وهو شمس الدين أيوب البلاساغونى وابنه ركن الدين أحمد البلاساغونى ، وذكرت بها أيضا مدينة قوزباليق حيث توفي أحد أمراء الماليق سنة ١٢٥٩ . ويذكرنا هذا الاسم بمدينة قوز اوردو أو قوز أولوش الواردة بكتاب محمود الكشغرى . وفى القرن الثالث عشر ورد اسم هذه المدينة (قوزا وردو) مكتوبا بالهيوغليفيه الصينية . ومن الغريب أن المؤلف لم يذكر المدينة التى ينتسب إليها شيخه . وغدا هذا فانا نجد فى كتاب جمال القرشى اسما جغرافيا آخر لم

نجدته في غيره من المصادر - وذلك هو : (ايل آلا رغو) وهو اسم المكان الذي يضم اوردو جاغاتاي . وقد نسب الى هذا المكان التاجر المسلم (قطب الدين حبش عميد) وزير جاغاتاي (توفي قطب الدين في سنة ١٢٦٠ في بداية عهد آغو) باحدى مدن ولاية الماليق . ودفن هناك بالخانقاه التي بناها .

وقد خص جمال قرشي كاشغر وختن وخوجند وفرغانه ، وشاشى اى : طشقند وبارجكند وجند ، بأبواب تتفاوت طولاً وقصراً . وبين في كل باب معالم كل مدينة وخصائصها . ثم أورد ثبثاً مختصراً بأسماء من نشأ بها من العلماء المشاهير . وكانت الماليق هي مسقط رأسه (كان أبوه من بلاساغون) ثم انتقل منها الى كاشغر وزار كثيرا من المدن . وقد لاحظ علامات الاضمحلال في كاشغر وجند ، وكانت الأولى في عهده خراباً مهدودة ، أما الثانية فقد كانت تجارتها كاسدة ، مع أنها كانت فيما مضى كبيرة ، ويذكر قرشي في حديثه عن كاشغر ، اعتداءات ال (جته) .

وتورد هذه الكلمة في هذا المقام لأول مرة ، ولكنها استعملت بعد ذلك في تركستان الصينية مرادفة لكلمة (قازاق) المستعملة بتركستان الغربية ، أى أنها صارت علماً على قوم من البدو خلعوا أنفسهم من قبائلهم وكونوا عصايات للغارة وقطع الطريق . وكانت غارة (الجته) في الشتاء (ولكن المؤلف لا يذكر في أى عام) . وأبيد في أثنائها خلق كثير وأسر خمسة آلاف صبي . وفي الحديث عن كاشغرخبر كبير الأهمية من وجهة نظر تاريخ الحضارة ، فقد روى أن الثيران والأبقار لم تكن تستعمل هناك في حرث الأرض ، بل كان يكتفى باستعمال الآلات الزراعية ولا نظن أن في كاشغر الآن نقصاً في الحيوانات المستخدمة في الفلاحة . .

دخول تركستان في الاسلام

وفي القرن الثالث عشر ، كانت حركتا الدخول في الاسلام والتترك تسريان في تركستان ببطء ، ولكن في غير توقف ، وقد تكشف الموقف هناك - منذ عهد جنكيز - عن ظاهرة تناقض ما توقعه كوجلوك ، وذلك أن القاراخيطة الذين استطاعوا مواصلة الحياة بعد احتلال المغول للمنطقة ، أخذوا عن المسلمين تقاليدهم وأزياءهم . وكانت حال المسلمين في البلاد التي كانت من قبل ملكا للقاراخيطة خيرا من حالهم من قبل في بلاد محمد خوارزمشاه ، وذلك أنهم في هذه كانوا يقاومون المغول مقاومة عنيدة !

وفي سنة ١٢٢١ كانت بسمرقند هيئات من الأعيان المنتمين إلى قوميات مختلفة وكان الولي العام رجلا من القاراخيطة ربي تربية صينية ، وكان للمسلمين حق امتلاك بساطين الفاكهة والحقول ولكن بشرط أن يشاركهم بعض الصينيين أو الخيطة . وبعد بضع سنين (في عهد أوكه دي) عين على بخاري وبسمرقند وآل له اسم أبو لقب صيني هو (جونباق تايفو) وقد كان اسم هذا الشخص لا يزال يذكر في سنة ١٢٦١ ، وربما وضح لنا وجوده في هذا المنصب كيف ظهرت في بخاري (للمرة الأولى والأخيرة) عملة منقوشة بالهروغليفية الصينية ومع أن بعض المصادر تتحدث عن بعض الهجرات الآتية من الشرق ، فلم يكن يتولى أمر المناطق الإسلامية - فيما ولي ذلك من حقب - إلا مسلمون ، ويروي جان - دو الصين أن الصينيين كانوا يعيشون مع المسلمين في المالبق ، وأن عادات الصينيين وتقاليدهم كانت تبسط سيادتها بالتدريج .

ومع أن جاغاتاي كان من فرط عصبية لقانون المغول العرفي يأخذ المسلمين باستمساكهم بشريعة الاسلام ، فإن الاضطهادات التي عاينها المسلمون في عهد كوجلوك لم تتجدد ثانية في عهد المغول .

وقد نقل الجوينى أبياتا من قصيدة كتبها أحد الشعراء بمناسبة هلاك جاغاتاي فى سنة ١٢٤٢ قال فيها : (ان من كنا نفرق منه فلا نمس الماء قد غرق فى ظلمات بحر العدم) ومع هذا ، فقد كان لجاغاتاي طبيب مسلم اسمه مجد الدين وكان قطب الدين حبش عميد - وهو من اثرياء تجار العصر - يتمتع عنده بنفوذ كبير حتى لقد استطاع أن يجعل لكل واحد من أبناء جاغاتاي رفيقا من أبناءه هو (كان حبش عميد من كرمينه. كما يقول جمال قرشى او من أوترار كما يقول رشيد الدين) ومع أن قطب الدين هذا كان مسلما وله - كما قلنا - خانقاه ، فلم يكن علماء الاسلام يطمئنون اليه ، ولم يكن هو يطمئن اليهم ، وقد اتهموه بأنه كان سببا فى مصرع يوسف السكاكى الجوارزمى وهو أحد مشاهير العلماء فى زمانه ، وقد بقى من آثاره - بالاضافة الى كتابه (مفاتيح العلوم) المعروف فى كل العالم الاسلامى - رسالة أرسلها الى أحد تلاميذه من أترك الغرب وهو (صاجا قلى زاده) .

وليس لدينا عن نشاط علماء تركستان فى نفس الفترة سوى معلومات ضئيلة ، بل اننا لا نعرف الأساتذة المرشدين لمباركشاه وبوراق وهما أول من أسلم من خانات جاغاتاي ، ويقول جمال قرشى ان (أركنه خاتون) أم مباركشاه كانت مسلمة ، أما (قايدو) فلم يكن مسلما وقد دفن - على عادة المغول - فوق الجبل المرتفع بين نهري (ايلى) (وجو) وفى نفس المكان دفن بوراق - وهو مسلم تنفيذا لارادته ، ولم يكن قايدو عدوا للاسلام ، وقد وصفه جمال قرشى بأنه كان عادلا سخيا رحيفا يكن الخير للمسلمين ، وقد لقيه قرشى مرتين احدهما فى أول عهده بالسلطنة والأخرى قبيل نهاية عهده ، وحصل منه على كتاب شكر وتقدير (ولا ندرى بأى لسان حرر هذا الكتاب) .

والآن نتساءل : هل كان علماء الدين بتركستان ينفيدون من علم العناصر الأخرى المتمدنة التى تعمل فى خدمة الدولة ،

إن لهذا الموضوع أهمية خاصة . ولدينا بخصوصه خبر وحيد يتعلق بعالم اسمه (هيبة الله) تركستاني الأصل هاجر الى إيران ، وتوفي في عهد غازان خان (١٢٩٥ - ١٣٠٤) ويقول فيه رشيد الدين انه كان عالما باللغتين التركية والسريانية ، أخذنا من كل علم بطرف وكان له - الى هذا - كلام ككلام المشايخ ولكن غازان مع هذا يعتبره من علماء الطبقة الثانية ، وكان يشبهه « بالموظفين الذين يسهمون في أعمال الدولة ، ولكنهم لا يستطيعون الوصول الى الخزانة الهمايونية » ثم يضيف : ولست أعجب من أن هذا العالم وأمثاله يجهلون الروحانيات ، ولكني أعجب مع هذا بعلمهم ، وأقدرهم . ويمكن أن يستنتج من هذا أن هيبة الله لم يكن من علماء أصول الدين بل كان يشتغل بالعلوم الدنيوية .

اللغة التركية عند مغول آسيا الوسطى

ومن الأدلة القاطعة على أهمية اللغة التركية في ذلك العصر أن رشيد الدين عندما يتناول أسرة جنكيزخان في كتابه ، يستعمل الكلمات التركية جنبا الى جنب مع الكلمات المغولية .

وفي تركستان كان الاصطلاح المغولي (نويان) بمعنى (أمير) او بمعنى الكلمة التركية (بك) يطلق حتى زمان تيمور على أفراد الأرسقراطية العسكرية ، وفي عهد جنكيزخان كان ابنه تولوي هو (النويان الأول) المسئول عن كل أمور الجيش ، يسمى هذا المنصب بالمغولية (يكه نويان) أي النويان الكبير ومع هذا ، فقد كانت الكلمة التركية (أولوغ) بمعنى كبير تستعمل أحيانا بدلا من الكلمة المغولية (يكه) وهكذا ، نجد أحيانا عبارة (ألوغ نويان) ولكننا مع هذا لم نر المسلمين يحاولون أن يجعلوا اللغة التركية لغة رسمية - فمثلا عندما غادر بلاتو قاربيني منغوليا سنة ١٢٤٦ أعطوه رسالة للبابا محررة بالفارسية ، وقد استطاع بليو Pelliot أن يثبت أن هذه الرسالة موجودة الآن في دار المحفوظات بالفاتيكان ،

وتاريخ هذه الرسالة هو نهاية جهادى الأخيرة سنة ١٤٤٤ أى نوفمبر ١٢٤٦ ، ويدل ما بالرسالة من الخطأ فى اللغة الفارسية ، على أن كاتبها لم يكن من أصحاب اللغة ، وقد كتب عنوان الرسالة بالتركية ، ومن اللافت أن اسم (كيوك) لم يرد بالرسالة ، وإنما أرسلت باسم (خان الاولوشى الكبير والعالم كله) = (الوغ الوى فنىك تالوى فونك خان يرلغىز) وفى ثانيا الرسالة ترد بعض الكلمات والعبارات التركية ، ولا شك أن محرريها هم بعض تجار آسيا الوسطى من الترك ، كماؤا يحاولون الكتابة بالفارسية لغة الأدب فى بلادهم .

محاولة اقامة الوحدة

وكان مغول آسيا الوسطى (ومن بينهم الألتون اوردا) أحوج الى منفذ على البحر من غيرهم من حكومات المغول ، ذلك بأن الاضطرابات السياسية وما يترتب عليها من قطع العلاقات التجارية ، كانت تزيد حاجتهم الى هذا المنفذ ، وربما فسر لنا هذا الوضع ، لماذا ظهرت الدعوة وقتذاك فى آسيا الوسطى للتكوين (حكومة الدول المغولية المتحدة) ، فقد كان ذلك وحده كفيلا بأن يضمن للتجار التنقل بحرية من دولة الى أخرى ، دون أن يتعرضوا لأى نوع من المصادر .

ويقرر المؤرخون أن أول من نادى بهذا المشروع هو الخان الجغتائى توتوا ، أقنع به أول الأمر جابار ثم بدأ يبعث السفراء الى دول المغول المختلفة ثم أعلنت الموافقة على المشروع فى كل مكان .

وذهب السفراء أول ما ذهبوا الى الصين حيث دولة تيمور (المتوفى ١٢٩٤) وحفيد قوبيلاي ، وفى سنة ١٣٠٤ وصل سفير تيمور مع مندوبى جابار وتوتوا الى المراغة بايران ، وكان أولجايتو قد اعتلى العرش حديثا بالمراغة ، وفى سنة ١٣٠٥ كتب الجايتو رسالة مغولية الى فيليب الرابع ملك فرنسا يتنبئه فيها بتمام الاتحاد ، وقد وصلت اليها هذه

الرسالة ، التي تعتبر حتى الان الوثيقة المغولية الوحيدة عن هذا الاتحاد ، ويقول أولجايتو في رسالته ان سبب الحروب فيما مضى لم يكن سوء نية الخانات ، ولا حرصهم على الكسب ، ولكن دس الرعايا وافتراءاتهم ثم يضيف : والآن قد أعيد السلم وتم ائتلاف أسرة الخان جميعها ، كبارها وصغارها ، وفتحت الطرق كلها ، ومنه ينقض هذا الميثاق ، فسيتحدا الآخرون ضده ، وفي الرسالة اقتراح ساذج بأن يأتلف سلاطين الفرنجة أي ملوك أوربا ، ويعقدوا ميثاقا مماثلا ، وأن يجتمعوا ضد من ينقضه ، ولما وصل إلى إدوارد الأول ملك إنجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧) كتاب مشابيه ربه الملك الجديد إدوارد الثاني في سنة ١٣٠٧ بأنه يأمل أن يتحقق السلم بعون الله .

هذا ، ولم تكن المادة التي تنهى على أن يجتمع الكل ضد من يفسخ المعاهدة الا مجرد الفاظ ، وهذا هو مصير هذه المادة عند غير المغول مع سبقهم ومن جاء بعدهم .

وسنرى في المخاضرة القادمة أن النصف الأول من القرن الرابع كان فترة القتل العام والاضمحلال الحضارى فى تركستان .

المحاضرة الحادية عشرة

تدهور المغول

ليس بين أيدينا - من أسف - أى مرجع عن آسيا الوسطى يتناول اقرار السلم أو نقضه بين دول المغول ، وحتى جمال قرشى الذى يمدنا بإخبار المغول حتى ربيع سنة ١٣٠٣ لم يكن على علم بهذا الميثاق ، اذ اقتصر على التعبير عن ثقته بأن الخاقانات يملكون من القوى العسكرية ما يستطيعون به احباط أية محاولة يقوم بها تيمور (حفيد قوبلاى) أو خلفاؤه للاستيلاء على مدن آسيا الوسطى ، وقال قرشى ايضا ان تووا كان (الركن الوثيق) فى حكومة جابار ومن الواضح أن هذا الكلام قد جرد قبل أن تبدأ الحرب بين الخانات فى سنة (١٣٠٥ - ١٣٠٦) .

ولا نملك عن هذه الحرب وما أعقبها من أحداث ، الا ما نملكه عن كل شئون آسيا الوسطى حتى القرن السادس عشر ، أعنى المصادر التى حررت فى ايران . وقد وقعت الحرب - كما تروى هذه المصادر - بين أبناء أوكه دى وأبناء جغتاي أو بين سمرقند وخوجند ، وأرسل تووا السفراء الى جابار قائلاً ان هذا الصدام المسلح انما هو من اندفاع الشباب ، واقترح وقف الحركات العسكرية وتكوين هيئة للتحكيم تجتمع فى طاشقند لدراسة أسباب الخلاف ومع أن جابار قد وافق على عروض تووا ، فان الأمراء الجغتائيين ما لبثوا أن نقضوا الهدنة ، ويبدو أن هذا النقض كان بموافقة تووا نفسه ، رغم أنه لم يكن يشترك بشخصه فى

شئ ، وفى ذلك الوقت تعرضت (بلاد ما وراء النهر وبلاد الواقعة بمحاذاة نهر تالاس للسلب والنهب ، وهاجم جيش تيمور حرس الحدود فى ممتلكات جابار المجاورة لايرتش والتاى ، ويقال ان تورا هو الذى دعا الجيش لهذا الاعتداء ، ولما انفض انصار جابار من حوله تقدم ومعه ثلثمائة فارس ، فأعلن خضوعه لتورا ، وعلى هذا النحو تأسس حكم أسرة جغتاي فى آسيا الوسطى من جديد وظلت هذه الحروب الداخلية مشتتة حتى صيف ١٣٠٩ ، حيث دعى القورو لتاى للانعقاد ، وكان صاحب هذه الدعوة هو (كه به ك) بن تورا (مات تورا سنة ١٣٠٦) .

أما أسرة (أوكه دهى) فقد خرج قسم من أمرائها من البلاد ، وفقد القسم الآخر ملكه ، واستطاع واحد فقط من أبناء قايدو كان يسمى (شاه) أن يحتفظ (بمعسكره) الخاص وبجيشه المكون من ألف عربة حربية .

ويروى المؤرخ الايراني وصاف أن النتيجة المباشرة لهذه الحروب الداخلية كانت الانحطاط التام للتجارة والزراعة فى ما وراء النهر وتركستان ، وكانت الثقاليد الزراعية من القوة فى بلاد ما وراء النهر بحيث لا يمكن القول بأن هذه المدن والمزارع قد امتحت تماما ولكن الوضع يتغير كلما اتجهنا شمالا ، فقد قال المؤلف العربى العبرى « ١٣١١ - ١٣٤٨ » نقلا عن زجل غاش فى تركستان : « ولا يوجد فى تركستان الآن الا أطلال تتفاوت درجة المحافظة عليها ، وترى على البعد القرى التى أنشئت وقد أحاطت بها الحضرة والزهور ، حتى اذا اقتربت منها لترى أهلها وجدت منازلها خاوية وأهل البلاد جميعا من البدو ولا يشتغلون أبدا بالزراعة » .

تركستان

ولم يزل القورو لتاى المنعقد فى سنة ١٣٠٩ الفقر من تركستان ، ونصب أيسان - بوقا الأخ الأكبر ل (كه به ك)

خانا (كلمة آيسا مغولييه) وفي عهده تعرضت
نرخستان لغزو الجيوش المغولييه الاتيه من الصين ، وكانت
الاماكن الواقعة على قوبوق وعلى فروع المجرى الاعلى
لايريتش ، مشتركة الحدود مع ممتلكات الخان الكبير ،
وما لبث هذا الجيش الذى دخل بلاد جفتاي أن خرب المعسكر
الشتوى لأيسان - بوقا (كان هذا المعسكر بجوار بحيرة
ايسيق كول) ومعسكره الصيفى (بجوار تالاس) ويمكن ان
نستدل بكلام مؤرخ مجهول الاسم من مؤرخى القرن الخامس
عشر على أن أعمال السلب لم تكن قاصرة على جنود الأعداء ،
بل اشترك فيها عساكر الخان الجفتائى نفسه ، وتقرر هذه
الرواية نفسها أن آيسان - بوقا وكه بك خرجا فى جيش
للاقاء عساكر العدو الآتية من قاراخوجا وتحرك آيسان بوقا
من كاشغر وكه به ك من المالىق . وكان رأى الأول ألا يترك
إذا هزم شيئا للعدو ، لأن إعادة العمران سهلة فى حالة النصر ،
وعلى هذا الأساس فانه خرب كل شىء فى طريق خروجه وأما
كه به ك فكان على العكس من ذلك يرى أنه إذا انتصر فان
شعب الحكومة المعادية سينحاز اليه متأثرا بما ذاع عنه من
العدل ، وإذا هزم فان قومه سيلتزمون بجانبه ومن هنا فكر
فى تسهيل طريق العودة فلم يخرب الأماكن التى مر بها ،
بل حافظ على ما بها من عمار . وهزم آيسان - بوقا واضطر
كه به ك - نتيجة لذلك - الى العودة ، وتجشم جيش آيسان -
بوقا فى أثناء العودة أصنافا من الفقر والعوز اضطر معها
الى أكل خيله بينما وجد جيش كه به ك حوائجه .

وبخلفه كه به ك (١٣١٨ - ١٣٢٦) ايسان - بوغا ،
ولسلطنة كه به ك أهمية تاريخية كبيرة ، ففي أثنائها بدأ
خانات المغول بآسيا الوسطى يتمثلون المدينة الاسلامية
بالتدريج ، وبقي كه به ك مثل أسلافه مشركا ، ولكنه نقل
عاصمته الى ما وراء النهر . بل الى الجزء الجنوبى منها وهناك
على المجرى الأدنى لنهر كسك (قاشقادرينا) بنى لنفسه حصنا
يبعد فرسخين ونصف عن مدينة نخشب . وكان المغول فى

قلب منغوليا يستعملون كلمة (فارسي) بمعنى (سراي) -
ويقرر علماء ذلك الزمان أن هذه الكلمة معويه ولبننا
نصادف هذه الكلمة في قوتادغوبيليك وفي كتاب محمود
الكشغري ولم يذكر الكشغري استعمال هذه الكلمة عند اتراك
الشرق ام عند اتراك العرب والظاهر أن الاتراك أخذوا هذه
الكلمة عن أهالي تركستان الصينية ، وبسبب هذا الحصن
احتفظت مدينة نخشب حتى يومنا هذا باسم (قرشي) ، مع أن
موقعها مغاير لموقع نخشب الاولى ، السابقة على العهد المغولي
ونخشب التي أسست في القرن الرابع عشر ، وهكذا نرى
أن اسم الخان كان يطلق في تركستان - كما هي عادة المغول -
على المدينة التي تحويه * ومن التجديدات التي أدخلها كه بهك ،
سك النقود باسم الخان ، فقد سكّت كما هي الحال في ايران
نقود فضية كبيرة وصغيرة وسكّت الدنانير والدراهم ، وتقرر
أن يكون الدينار معادلا لستة دراهم *

وسكّت النقود في المدن التي كانت تسك بها من قبل ،
وهي المدن التجارية الكبيرة فيما وراء النهر مثل بخارى
وسمرقند وأوترار وترمد ، وتسبّت هذه النقود فيما بعد إلى
اسم كه بهك فليل (كبكي) وأدى هذا إلى أن قرب خطأ بين
هذه الكلمة وبين الكلمة الروسية (قوبيك) ووجدت - كما
وجدت في الالتون أوردا - سكة منقوش عليها باللغة التركية
وبالحروف الايغورية عبارة (قوتلوغ بولسون) دون أن
ينقش عليها أي اسم * ولم يوجد حتى الآن - فيما أعلم -
مثل لكلمات مغولية نقشّت على عملة خانات جغتاي * ومع هذا
فمما يدعو إلى الحيرة أننا نجد فيما بعد على عملة تيمور
العبارة المغولية (أوكامنو) منقوشة بالحروف العربية ومعنى
هذه الكلمة هو (كلمتي) *

ولم يكن الانتقال إلى ما وراء النهر وتشيد السراي
دليلا على ترك حياة البداوة فقد كان الطرف الأيسر (الغربي)
من وادي نهر كشكه يغر البدو بالمجيء منذ جنكيز خان وآية

هذا أن جنكيزخان نفسه قضى به صيف سنة ١٢٢٠ ، وقد تمثل تارماشيرين (١٣٢٦ - ١٣٣٤) - وهو أخو كه به ك واحد خلفائه الاقربين - المدينة الاسلامية أكثر من كه به ك ، ومع هذا ، فإنه قابل الرحالة ابن بطوطة فى خيمة وفى فصل الشتاء .

ولا يوجد دليل واحد على أن خانات جغتاي كانوا على علم فى ذلك الوقت باللغة المغولية ، وقد كان ابن بطوطة يتصور (كه به ك) واحدا من الناطقين بالتركية ، وعندما قابل (تارماشيرين) ابن بطوطة قرأ عليه السلام بالتركية ، وكان الامام حسام الدين ياغى وهو مرشد الخان يتكلم الفارسية ، ولكن الخان كان يذكر كل يوم باللغة التركية من بعد صلاة الفجر حتى مطلع الشمس .

وقد انتقلت بعض الكلمات التركية الواردة فى كتاب ابن بطوطة الى اللغة المغولية بطريق اللغة الأويغورية ، ثم راجت هذه الكلمات واستعملت فى كل حكومات المغول ومن ذلك كلمة (آل تامغا) أى (الختم الأحمر) وتستعمل أحيانا فى الفارسية مختصرة فيقال آل فقط .

وكان ال (تامغاچى) أى الختام (المهر دار) يؤدى كل الأمور الكتابية وكان طبعا يفهم العربية حتى لقد قام بالترجمة لابن بطوطة .

ومن العجيب ان ابن بطوطة يستعمل كلمة (طوى) ومعناها المأدبة بمعنى (قورولتاي) ، ذلك أنه يقول ان الطوى مجلس يعقد كل سنة ، يحضره خلفاء جنكيز والأمراء وعظميات السيدات وقواد الجيش . وفى زمن ابن بطوطة لم يدع الطوى للاجتماع وكان هذا من الأسباب التى بررت الثورة ضد تارماشيرين .

ويقول العمرى ان دخول تارماشيرين فى الاسلام نشط الحركة التجارية بين بلاد ما ورم النهر وغيرها من البلاد

الاسلامية ولكنه - في نفس الوقت - زاد الفارقة بين ما وراء النهر والايالات الشرقية من بلاد جفتاي - ويعول ابن بطوطة أنه كان من عادة الخان أن يذهب مرة في كل عام الى الشرق، الى المنطقة المتاخمة للصين حيث توجد الولاية التي تشتمل على مدينة المالبق وكانت هذه المدينة تعتبر العاصمة - ومع هذا فقد قضى تارماشيرين أربعة أعوام متوالية في المناطق المتاخمة لخراسان ولم يكن تارماشيرين - على تمسكه بالاسلام - يتخرج من محاربة الحكومات الاسلامية فقد قام في أوائل سلطنته سنة ١٣٢٦ بغزوة فاشلة ضد خراسان أدت الى استيلاء مغول ايران على غزنة وتخريبها - وفي سنة ١٣٢٩ دخل الهند الاسلامية وكاد يصل الى دلهي ولكنه كان - كما يفهم من كلام ابن بطوطة الذي أوردناه من قبل - لا يرمى في الادارة الداخلية قوانين المغول العرفية أي الياسا ، ولا يهتمنا أكان موقفه هذا من الياسا ناتجا عن تأثره بالدين الذي اعتنقه وهو الاسلام أم لا - ويذكر مؤلف مسلم مجهول الاسم من رجال القرن الخامس عشر ، وعلى علم بقوانين مناطق الاستبس ، أن تارماشيرين لم يكن يرمى الياسا -

ولهذا السبب تجددت الاضطرابات في تركستان واستمرت الى ١٣٤٦ أو ١٣٤٧ وانتهت بزوال حكم الخانات فيما وراء النهر، وبانفصال الولايات الشرقية مما وراء النهر انفصالا تاما ، ولا يمكن الوقوف على هذه الحركات الحربية كيف وقعت ولا كيف زادت الحياة المدنية وهنا واضمحلالا ، فلم يرد عن هذه الحركات الحربية الا حكاية في ابن بطوطة تناقض من حيث توارينها وكل تفصيلاتها الحكايات الواردة في المصادر الأخرى - ولا شك في أن مقر الخان قد نقل ثانية الى الشرق في أثناء السنوات التي تلت خلع تارماشيرين وقتله ، ولا شك أيضا في أن نفوذ الاسلام قد ضعف في تلك الفترة -

وفي عهد جكنشي خان الذي كانت نفوذه تسك فيما وراء النهر ، استطاع مروجو الكاثوليكية أن يبنوا كنيسة

جميلة بقرب المالىق ، وكان جكنشى كما يروى مؤرخ القرن الخامس عشر المتجهول الاسم يستشير (الباششير) أى كهنة الديانة البوذية ، ومع هذا فإن الحركة الرجعية المضادة للإسلام عجزت عن أن تذرك نجاحا مطردا ، فمنذ سنة ١٣٤٠ اعتلى العرش فيما وراء النهر شيخ من أصل تركى كان يعتبر من أحفاد جنكيزخان ، وفى فترة ما كان الشيخ السلطان مرشدا روحيا للولى المشهور بهاء الدين النقشبندى البخارى (١٣١٨ - ١٣٨٩) ، ويروى فى ترجمة حياة هذا الولى انه رأى فى المنام الولى التركى حكيم آتا (لا شك فى أن بهاء الدين كان تاجيك) وكان تفسير هذه الرؤيا أن مرشده سيكون درويشا تركيا ، وعندما وقع نظر بهاء الدين على الدرويش التركى خليل الذى أصبح سلطانا تأثر به تأثرا كبيرا ، واعتبره هو الدرويش المقصود فى تفسير رؤياه ولزمه وظل يلزمه حتى بعد أن اعتلى خليل العرش ، وبعد أن مات خليل اقتنع بهاء الدين بأن الدنيا لا خير فيها وزاول حياة الزهد .

ولا نصادف اسم خليل بين أسماء السلاطين الجغتائية ، ولكن ابن بطوطة يذكر بين أسماء حكام فترة القلاقل اسم خليل وهو ابن ياسا وور بن جغتاي ، ويقال انه هو الذى استطاع أن يغلب بوران أول خلفاء تارما شيرين ، (لم يذكر جنكشى ولا الخانات الذين تناوولتهم المصادر التاريخية فى ابن بطوطة) .

ولم يستول خليل على المالىق فحسب ، بل استولى أيضا على قاراقورم وبش باليق ، ثم عقد بعد ذلك صلحا مع امبراطور الصين ورجع الى سمرقند وبخارى ، وكان زميله فى النصر هو علاء الملك سيد حاكم ترمذ الملقب بخداوند زاده وفى النهاية أقدم خليل بتحريض من بعض وشاة الترك على اعدام علاء الملك فأدى ذلك الى ضياع ملكه ، فقد جاء اليه حسين حاكم هراة وأسره ، وكان لا يزال فى الأسر حين غادر

ابن بطوطة بلاد الهند في ربيع سنة ١٣٤٧ ومع أن هذه الحكاية من نسج الخيال ، فإن النقود المسكوكة في بخارى سنة ٧٤٢ أو سنة ٧٤٣ (١٢٤٢ - ١٣٤٤) والمنقوشة بعبارة (سلطان خليل الله) تثبت وجوده .

ولا يعرف المؤرخون من أبناء ياساوير الا قازان ولدينا نقود تحمل اسمه ، وقد كان قازان هذا يسكن وادي نهر كشكه مثله كمثلكه به ك وتارما شيرين (وأنشأ لنفسه على بعد منزلتين من قارشى قصرا يسمى (زنجير سراى) ثم هلك فى سنة ١٣٤٦ أو سنة ١٣٤٧ أثناء حربه ضد رؤساء العصاة من البدو ، ولا نستطيع حتى الآن أن نجيب بصورة قاطعة عن هذا السؤال : هل ينتمى قازان و خليل الى أسرة واحدة أم لا ؟

الأمراء الأتراك

وبعد وفاة قازان انتقل الحكم فيما وراء النهر الى الأمراء الأتراك كما تسميهم المصادر الفارسية ، أما الترك فقد كانوا يستعملون فى هذا المعنى كلمة (بك) أو الكلمة المغولية (نويون) وأول هؤلاء الأمراء هو (قازاغان) وكان معسكره الشتوى (القيشلاق) هو (سالى - سراى) الواقعة على نهر جيحون (وهى الآن عبارة عن (سراى) الواقعة شمالي ترمذ) وربما كان لهذه المدينة نفس المنزلة منذ عهد الجغتائيين ، وقد دفن بها الخان قازان كما يروى مؤلف القرن الخامس عشر المجهول الاسم ، وإذا نظرنا الى اسمها استنتجنا أن سراى الخان كان موجودا بها ، وقد كانت شواطىء جيحون تتخذ منذ القدم مشاتى للبدو ، وهناك قضى جنكيزخان شتاء سنتى ١٢٢٠ و ١٢٢١ ، أما فى الصيف فقد كان قازاغان ينتقل الى المكان الجبلى الواقع بجوار مدينتى مونك وبالجوان ، وكان قازاغان وخلفاؤه يجلسون على العرش رجالا تافهين من أسرة جغتاي فى أول الأمر ، ثم من أسرة أوكه دى ك بعد ذلك وكانت النقود التى تحمل أسماء هؤلاء الملوك تسك فى كل بلاد ما وراء النهر من ترمذ الى أوتزار

ومن اسفيجاب الى سايزام ، ونحن تعلم أن القسم الشمالى من أفغانستان كان داخلا تحت حكم أمراء ما وراء النهر . ولكننا لا نملك دليلا ينم على ذلك .

وكانت المناطق الشرفية من خانية جفتاى السابقة قد انفصلت عن بلاد ما وراء النهر انفصالا سياسيا تاما ، وكان لها خاناتها وأمراء أمرائها (أولوس أمير لرى) الذين كانوا فى وقت ما يجلسون الخانات على العرش وقد تطور التاريخ المتأخر لآسيا الوسطى ، بصورة جعلت أمراء ما وراء النهر يقبضون على أزمة الامور بأيد قوية ، حتى خرجت من بينهم الشخصية الفذة شخصية تيمور الذى أسس دولة مترامية الأطراف ، وقد وصلت - منقوصة بعض الشيء - الى خلفائه الذين تخلوا بالتدريج عن عادة الحكم من وراء ستار من الشخصيات التافهة .

خانات تركستان الشرقية

ومن جهة أخرى ظهرت فى الشرق أسرة من الخانات . ازاله حكم هؤلاء الأمراء ، وأول هؤلاء الخانات هو (توغلق تيمور) الذى ولد سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ - ١٣٣٠) ، وصار خانا فى الثامنة عشرة من عمره أى فى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ - ١٣٤٨) ويدل التوافق الزمنى بين اعتلاء توغلق العرش وخلع قازان خان على علاقة سببية بين الأمرين ، وان كنا لا نجد فى المصادر أية اشارة الى مثل هذه العلاقة ، كما أننا لا نعرف بالضبط متى انقرضت تماما أسرة جفتاى .

وليست لدينا معلومات صحيحة عن الوقت الذى انفصلت فيه المالىق عن بلاد ما وراء النهر سياسيا ، ويقول المبشر المسيحي مارينوللى Marignolli الذى مر بالمالىق سنة ١٣١٤ انه بنى هناك كنيسة وألقى عظامه بحرية تامة ، مع أن عددا من المبشرين من قبله كانوا قد هلكوا فى نفس المكان . ولكن مارينوللى لا يذكر اسم خان المالىق فى ذلك الوقت ، وقد تولى الملك بعد السلطان على (الذى عرف بين خلفاء

أوكه دى بأنه ضيق على النصارى والموصوف فى المصادر الإسلامية بأنه كان مستبداً (السلطان محمد بولاد ، وتوجد نقود سكت فى المالىق فى شعبان سنة ٧٤٦ (١٣٤٥) تحمل اسم محمد وهى - فيما نعلم حتى الآن - آخر نقود سكت فى المالىق ، وقد نسيت أسماء هؤلاء السلاطين بدرجة كبيرة فيما بعد ، وفى القرن السادس عشر كان محمد حيدر - وقد أفاد فى تحرير كتابه (تاريخ رشيد) من أخبار المغول واثارهم - يقرر أن توغلوق تيمور هو بن ايسان - بوقا ، مع انه لا يعقل أبداً أن يكون هذا الأخير قد عاش بعد سنة ١٣١٨ ، وفى المصادر الاقدم من ذلك يقرر أن ايا توغلوق تيمور هو (اميل خواجه) وهو أحد أبناء تووا .

وقد ذهب أبو الغازى - من أجل أن يؤلف بين الخلافات الواردة فى المصادر الى أن اميل خواجة أو ايل خواجه على حد ما كتب - كان ملقباً بـ (ايسان - بوقا) ولا توجد أية إشارة فى المصادر القديمة ولا فى المصادر المتأخرة الى انتماء توغلوق تيمور الى أسرة الخان ، فقد تزوجت أمه بعد وفاة زوجها الأمير أو - طبقاً لرواية أخرى - وهو لا يزال على قيد الحياة - ، أميراً آخر ، ونشأ تيمور توغلوق فى كنف هذا الأمير فكان يعتبر مثل ولده ومن المحتمل أن تكون الرواية القائلة بانتماء تيمور توغلوق الى أسرة الخان موضوعاً ، وضعها الأمير المنتمى الى قبيلة دوغلات والذى أجلس على العرش فى القسم الشرقى من ممتلكات جفتاي .

امبراطورية المغول المتتركين : تيمور والتيموريون

مصادر تاريخ تيمور

ولقد كان من المحتمل أن نعجز عن تصور الأوضاع فى آسيا الوسطى ، بل عن تصور الخطوط العريضة لهذه الأوضاع خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كان ذلك محتملاً لو لم تتكون امبراطورية تيمور لك ، فقد كان ظهورها سبباً

فى تأليف كثير من الكتب التاريخية ، بل لقد أوصى تيمور لنك نفسه بان يؤلف بعض هذه الكتب ، وتضم قصص الغزوات التيمورية اسماء كثير من زملائه فى المعارك المظفرة وكذلك أسماء الأماكن التى عاش فيها هؤلاء الزملاء هم واسلافهم ، وتبين أيضا الأجناس التى ينتمون اليها ، وفيها الى هذا مواد قيمة عن كلمات تيمور وحركاته وأخبار أصدقائه وأعدائه ، وعن خصائص البيئة التى عاش فيها ولكن هذه المواد لم تدرس بعد مع الأسف دراسة دقيقة ، بل لم تنشر بعد ليطلع عليها جمهور القراء .

وبين أيدينا ثلاثة مؤلفات عن تاريخ تيمور كتبها - تنفيذاً لرغبة تيمور نفسه - مؤلفون إيرانيون ، وكتبوها بالفارسية ، وقد نشرت أكاديمية بطرسبرج فى سنة ١٩١٥ أقدم هذه التواريخ ، معتمدة على نسخته الوحيدة الموجودة فى طاشقند وأما الكتاب الثانى فقد ألفه نظام الدين الشامى وهو يتناول الأحداث حتى سنة ١٤٥٣ ، وقد سمي بإشارة من تيمور نفسه (ظفر نامه) = (كتاب الظفر) ولم ينشر شيء منه * وتوجد من هذا الكتاب نسخة فى لندن ، كما توجد نسخة أخرى (١) فى استانبول أدرجها حافظ أبرو بتمامها فى مصنف رتبه سنة ١٤١٧ وأشهر هذه المؤلفات الثلاثة هو (ظفر نامه) لشرف الدين اليزدى وقد بدأ تأليفه سنة ١٤١٩ وأتمه سنة ١٤٢٥ ، وقد طبع هذا الكتاب فى الهند طبعة غير علمية ويمكن الاطلاع عليه فى ترجمته الفرنسية التى حررت فى القرن الثامن عشر (صاحب هذه الترجمة هو بيتى دى لأكروا Petis de la Croix أستاذ اللغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » وظهرت هذه الترجمة فى باريس سنة ١٧٢٢) .

ولم ينشر حتى الآن مدخل هذا الكتاب وهو يحتوى على تاريخ العالم حتى ظهور تيمور ، ويضم فيما يضم تاريخ امبراطورية المغول .

(١) ترجمها الى التركية الأستاذ نجاتى لوكال سنة ١٩٤٩ - (المترجم) .

وظهرت مجموعة أخرى من الكتب عن تاريخ تيمور من بينها كتاب عن تاريخ العالم مجهول المؤلف وقدم الى السلطان اسكندر أحد أحفاد تيمور ، ومازال هذا الكتاب مخطوطا ، ولا يوجد منه فيما نعلم الا نسختان احدهما في لندن والأخرى في ليننجراد ، وكنت - في ثانيا كتابي عن أولوغ بك - أشير الى النسخة الثانية بعبارة (اسكندر أنونيمى) أى (كتاب السلطان اسكندر المجهول المؤلف) .

وقد استعمل مؤلف هذا الكتاب اللغة الفارسية مثله كمثل شرف الدين ، ولكنه كان أعلم منه بتقاليد آسيا الوسطى وعاداتها وأفكارها وقد أفاد حافظ أپرو من هذا الكتاب ومن كتاب نظام الدين الشامى حين ألف كتابه (زبدة التواريخ) فى سنة ١٤٣٢ لحفيد آخر من أحفاد تيمور . ولم توجد حتى الآن نسخة كاملة من زبدة التواريخ .

ولم يعثر فى أى مكان على القسم الخاص بتاريخ تيمور ، وانما عرفت محتويات هذا القسم من الكتاب الذى ألفه فيما بعد المؤرخ عبد الرازق السمرقندى (١٤١٣ - ١٤٨٣) وقد تناول فيه الحوادث حتى سنة ١٤٧١ ، ومع أن مخطوطات كتاب عبد الرازق جميلة وكثيرة فانه لم يمكن نشره حتى الآن . وبالإضافة الى هذا الكتاب والى غيره من الكتب المحررة بالفارسية ، يوجد كتاب آخر يؤرخ الحوادث بحسب السنين وقد كتبه الباخشيلر ، الأويغوريون بأمر من تيمور ، وهو مكتوب باللغة الأويغورية وعنوانه (تاريخ خانى) وقد أشار الى هذا الكتاب مؤلف أوزبكى عاش فى القرن السادس عشر ، ومن الواضح أنه كان يملك نسخة من هذا الكتاب ويبدو أن كلمة (باخشى) فى هذا المقام ليست بمعنى الراهب البوذى ، وانما تدل على الموظف الذى يحضر الوثائق بالحروف الأويغورية ، ولم يكن هؤلاء الموظفون موجودين عند خانات جغتاي وعند تيمور فحسب ، بل نجدهم يعملون أيضا لدى خلفاء تيمور فى القرن الخامس عشر ويبدو أن هذا الكتاب

— مثله كمثله كتاب اسكندر وكتاب محمد حيدر — يعنى يتقاليد الأستبس وبالمناقب وقصص البطولة أكثر مما يعنى بالحوادث التاريخية . ومن المحتمل أن تكون الحكايات المتعلقة بأهمية أسلاف تيمور فى آسيا الوسطى منذ عهد جنكيز وقبل عهده ، يحتمل أن تكون كلها من اختراع كتاب تيمور من الأويغور .

وكثيرا ما يبدى علماء أوروبا أسفهم لضياح كتاب (دورت أولوس تاريخى) = (تاريخ الشعوب الاربعية) الذى يقال ان أولوغ بك حفيد تيمور قد ألفه بالفارسية وقد وجدنا فى كتاب خوندمير وهو من مؤلفى القرن السادس عشر ، بعض الاشارات الى ذلك الكتاب ، ويقرر مؤرخ آخر من مؤرخى القرن السادس عشر ، ألف كتابه بالفارسية فيما وراء النهر ، ان كتابه خلاصة لكتاب أولوغ بك (توجد من هذا الكتاب مخطوطتان فى لندن وقد طبعت احدهما مع ترجمة انجليزية سقيمة سنة ١٨٣٨) ولا شك أن هذا المؤلف قد أضاف من عنده أشياء ولكن خوندمير يؤكد أن أولوغ بك لم يؤلف هذا الكتاب ، وانما ألف الكتاب باسمه فقط ، وقد كرر هذا الكتاب — مع بعض الاضافات — ما ورد فى كتاب رشيد الدين وفى مدخل كتاب نظام الدين الشامى ، وهكذا فان ضياعه ليس خسارة فادحة للعلم .

ومهما يكن من شئ ، فما كان تدوين التاريخ بآسيا الوسطى فى عهده المغول والتيموريين ليخرج كتابا يضاهى كتاب رشيد الدين ، ومن المحتمل أن سجل حكايات المغول الموسوم (بالكتاب الذهبى) والمحرر بأسلوب أدبى مصنع كان معروفا فى الصين وفى آسيا الوسطى ما عدا ايران .

ومع هذا ، فليس لدينا من الروايات ما يدل على شدة رواج هذه الحكايات فى آسيا الوسطى ، وكان المنتظر أن يذيع كتاب رشيد الدين بين الشعوب التركية ، بفضل ما فيه من تصوير صادق وواضح لحياة البدو ، ولكن الملاحظ أن

هذا التصوير كان أعظم قيمة عند (أتراك الغرب) أى أتراك آسيا الصغرى منه عند أتراك تركستان ، فهناك لم يترجم كتابا رشيد الدين وشرف الدين اليزدى الى اللغة التركية الا فى بداية القرن السادس عشر حيث ترجمما للخان الأوزبكى كوجكونجى Koutchkonutchi ، أما فى آسيا الصغرى فقد استغل كتاب رشيد الدين فى تحرير كتاب (تاريخ آل سلجوق) الذى ألفه السلطان العثمانى مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) . بعض أقسام هذا الكتاب عبارة عن ترجمة من الكتابين الفارسيين كتاب الرواندى وكتاب ابن بيبى .

ومن آيات استغلاله أن مؤلف (تاريخ آل سلجوق) اخذ ما ورد به من كلمات جنكيزخان وأدرجها فى كتابه ، بل ترجمها الى التركية ونسبها فى جراءة عجيبة الى جد الأتراك الأسطورى أوغوز خان ، وقد ذهب أحد علماء الترك الى أن كتاب (اغوز نامه) يحتوى على كل القوانين التى نقلها جنكيزخان . ولكن المقارنة بين النصين الفارسى والتركى تدل بوضوح على أن الثانى ترجم عن الأول ، وفى بعض الفقرات أخطأ المؤلف التركى فقرأ الكلمة الفارسية (سنك) (أى حجر) بحذف النون فصارت (سك) بمعنى (كلب) وهكذا صارت الجملة المترجمة (الكلب الذى وقع فى الماء ، بدلا من الحجر الذى وقع فى الماء) .

واذا قارنا بين روايات رشيد الدين وبين الحكايات التى كانت ذائعة فى أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، عن أحداث القرن الثالث عشر ، وجدنا أن ليس لهذه الحكايات سند من الواقع ، وأنها وضعت لتوضح بعض الأحداث أو لتعلل حدوثها ، وقد حدث الأمر نفسه فى حكومة تيمور وفى الولايات الشرقية التى انفصلت عما وراء النهر .

وقد نشأ تيمور فى قبيلة مغولية متتركة هى قبيلة بارلاس (بارولاس بالمغولية) وكانت هذه القبيلة تحكم وقتذاك الأماكن الواقعة على نهر كشكة ، ويحدثنا رشيد الدين بأن

(قاراجار) وهو الأمير الجغتائي الذي اعتبر فيما بعد جديا لتيemor كان منسوبا الى برلاس ولكن رشيد الدين لا يشير الى أن قاراجار أو ذريته القريبة قد اشتركوا بأي قسط في الحكم ، هذا بينما تتواتر الروايات في عهد تيمور بان قاراجار وخلفاءه كانوا - من بين خانات الجغتائية - أصحاب قدرة وشوكة ، مثلهم في ذلك كمثّل تيمور نفسه ، وتضيف هذه الروايات أن حكمهم كان يستند الى معاهدة عندها (قابول) وهو الجد الأعلى لجنكيزخان مع أخيه قاجول وهو الجد الأعلى لقاراجار ، وتقول هذه الروايات أيضا ان تلك المعاهدة قد جددت مرات عديدة ، بل تذهب الى أن وثيقة مكتوبة خاصة بهذا الموضوع قد فقدت أثناء الاضطرابات في القرن الرابع عشر .

ومن ناحية أخرى فان الدوغلات - وهم يمثلون إحدى القبائل المغولية المتتركة ، وكانوا يحكمون في منتصف القرن الرابع عشر مساحة شاسعة - تضم بالإضافة الى تركستان الصينية - فرغانة والجزء الشمالي من يدى صو حتى بحيرة ايسيق كول ، هؤلاء الدوغلات يزعمون أن جغتاي منح جدّهم (اوتروبو) حكم تلك البلاد هذا ، مع أن رشيد الدين يقرر حين - يتحدث عن قبيلة الدوغلات - أن ليس من أعضائها (حتى وقته هو) من تمتع بأية منزلة أو أى شأن .

المغول المتتركون

ولا شك أن المنزلة التي أحرزتها القبائل المغولية المتتركة في ذلك الوقت في شرق آسيا الوسطى وغربها جديدة بامعان النظر ، ولم يحص المؤرخون العشائر التي انقسم اليها البدو في كل من الحكومتين ولا نكاد نجد بين ما ذكر من أسمائها اسما واحدا كان يطلق فيما مضى على أحد الشعوب التركية ، وكان للعنصر القبجاقي في حكم تيمور ذكر ما على حين لم يكن للعنصر القارلوقي أى ذكر ، وكان الأويغور يذكرون بوصفهم الذي ينتمى اليه كتاب تيمور (الباخشيلر)

وخلفائه . ومع أن هناك اشارات الى الأراضى التى يقطنها كل عنصر ، فان رشيد الدين لا يذكر شيئا عن الأراضى التى كان الأويغور يقطنونها وقد ذكر أن عدد أفراد الجيش الذى عينه جنكيزخان لخدمة جغتاي هو أربعة آلاف فقط .

ولكن كثيرا من أسماء العشائر المغولية كان يذكر بين أسماء البدو. بآسيا الوسطى فى القرن الرابع عشر ، ويدفعنا هذا الى الظن بأن أعدادا ضخمة من المغول كانت قد وفدت على تركستان فيما بعد . ولا ريب فى أن أبناء العشيرة الواحدة والمكان الواحد كانوا يرحلون الى أماكن مختلفة ، ومن هنا كان كثيرا ما يذكر اسم العشيرة الواحدة فى الولايات التابعة لتيemor . ويذكر فى نفس الوقت فى الولايات الشرقية . وقد كان شعب الدوغلات مثلا على ذلك ، وإلى هذا الشعب ينتمى الأمير داود صديق تيمور وزوج أخته (قوتلوغ توركان) ويلاحظ فى نفس الوقت ان اسم عشيرة بارلاس كان موجودا فى الولايات الشرقية .

ومما يلفت النظر أن كلمة (جغتاي) لم تكن تطلق الا على البدو الخاضعين لحكم تيمور ، ومع أن الخانات بالمناطق الشرقية كانوا أقوى وأهم وينتسبون أيضا الى جغتاي ، فان بدو هذه المناطق كانوا يسمون أنفسهم المغول ويسمون بلادهم مغولستان = بلاد المغول واسم المغول يرد فى النصوص المغولية فى آسيا الوسطى بصيغة (مونغول) فقد جرت العادة على ألا تنطق النون ، ولم يحتفظ بلسانه من المغول الذين هاجروا الى الغرب الا قبيلة (بروجكى) وهى تعيش الآن فى أفغانستان وحتى هذه القبيلة تقول عن نفسها (موغول) . ويعتقد المغول أنهم هم المشلون الحقيقيون لشمال آسيا الوسطى وكانوا يزددون الجغتائيين لبدائوتهم ويطلقون عليهم (قارواناس) أى المولدون .

ومن ناحية أخرى فان الجغتائيين - بوصفهم أصحاب الدول المغولية بآسيا الوسطى - يطلقون على المغول كلمة

(جته) بمعنى الصماليك وقطاع الطرق • وتطلق كلمة جته أيضا على جماعات البدو التي تخرج على النظام السياسي السائد ، وتقف موقف المحارب وقد سبق أن أشرنا الى كلمة أخذت نفس المعنى في القرن الخامس عشر وهي كلمة قازاق ، هذا وقد حاول بعض علماء أوروبا أن يقربوا بين هذه الكلمة (جته) وبين اسم الكوت القدماء Gets del'antiquite ولدينا حتى الآن أسئلة لم تعرف أجوبتها :

الى أي مدى كان مغول القرنين الرابع عشر والخامس عشر مغولا من الناحية اللغوية ؟

وهل يجوز اعتبار العداء بين المغول والجفتائيين عداء قوميا بين الترك والمغول ؟ •

توجد شواهد على أن لغة المغول في القرن السادس عشر كانت هي اللغة المغولية •

ويقول بابر ان جده أجمد كان يحمل اللقب المغولي (الاجي) وتستعمل هذه الكلمة في اللغتين المغولية والقالموقية بمعنى (القاتل) • ومن ناحية أخرى فان محمد حيدر يعتبر المغول والقيرغيز أمة واحدة ، ويؤكد أن الفرق الوحيد بين الطائفتين هو أن المغول دخلوا الاسلام وأن القيرغيز ظلوا مشركين ، ومهما يكن فقد كان خلفاء الخان أحمد أتراك اللسان ، وكان ولده سعيد خان المتوفى سنة ١٥٢٢ يقرض الشعر بالتركية والفارسية وكان محمد حيدر يفرق بين المغول وبين السكان الأصليين لشرق تركستان ولم يكن يطلق كلمة مغولستان الا على مناطق الاستبس التي تمتد من بالخاش في الغرب (بالخاش هي الحد بين أوزبكستان ومغولستان) ، الى بلاد القالموق في الشرق والمحدودة من الشمال باميل ايرتش ، ومن الجنوب بفرغانة وبمناطق تركستان الشرقية الممتدة من كاشغر الى بارس كول وفي القرن السادس عشر طرد القالمة والقيرغيز المغول من مناطق الاستبس هذه ، ولكن المغول استطاعوا البقاء في كاشغر ، ويقدر محمد

حيدر عددهم في كاشغر بثلاثين الفا ، ولم تكن الظروف في كاشغر مساعدة على مواصلة حياة البداوة ، وبعد ان زالت أسرة الخانات في القرن السابع عشر اندمج المغول في اهل البلاد حتى نسوا في نهاية الأمر أنهم مغول * ولم يبق بينهم وبين السكان المقيمين فرق كبير من الناحية اللغوية حتى أن كلمة كنجاك الواردة في كتاب الكشغري في القرن الحادى عشر - كانت كما يبدو - قد نسيت تماما من زمان بعيد *

ومن هنا ، فانه على الرغم من أن البدو بشرق بلاد المغول لم يتأثروا بالاسلام وان طراز حياتهم كان من اجل ذلك يختلف عن طراز حياة الآخرين - على الرغم من ذلك - لم يكن بينهم عداء كالذى كان بين الترك والتاجيك والسارت في بلاد جغتای * وكان من التقاليد في بلاد المغول أن يقضى الشاب مدة وحيدا في الجبال والبرارى وأن يذهب على مسيرة شهرين من أقرب مكان معمور ببلاده ، ويعيش زمانا على لحوم الحيوانات ويلبس جلودها * وكان لمن يقوم بهذه الرياضة من الفتیان شأن كبير ، ولم يكن ممكنا بطبيعة الحال أن توجد عادة كهذه في بلاد جغتای *

وفي عهد تيمور كان الجغتائيون يعتبرون أنفسهم جنودا مسلمين ، ولكنهم ظلوا محافظين تماما على تقاليد جنكيزخان سواء في الزى أو في التشكيلات العسكرية ، وكانوا يطلقون على قانون البدو العرفى المنسوب الى جنكيزخان كلمة (تورا) ومن المحتمل أن تكون هذه الكلمة تحريفا للكلمة التركية القديمة (تورو) وأن يكون هذا التحريف بتأثير الكلمة العبرية (تورا) الواردة في القرآن ، وقد اتهم تيمور والجغتائيون لشدة تمسكهم بالتقاليد الجنكيزية بأنهم يقدسون (التورا) كما يقدسون الشريعة حتى لقد أصدر أصحاب النفوذ من علماء سورية فتوى ، أكدوا فيها أن تيمور وأتباعه غير مسلمين * وفي سنة ١٣٧٢ قيل لسفير تيمور في خوارزم : ان بلادكم دار حرب وان الجهاد ضدكم فرض على

المسلمين ، وكان من الفروق الظاهرة التي تميز تيمور واتباعه عن سائر المسلمين ، ارسال الشعر * ويؤيد هذه الحقيقة كثير من المحفوظات المزودة بالصور والتي صورت في آسيا الوسطى في ذلك الوقت - وعندما حاصر تيمور دمشق ١٤٠٠ - ١٤٠١ خرج عليه حفيده السلطان حسين وانضم الى المحاصرين فقصوا على الفور شعره وغروا زيه *

النظام القبلي عند الجغتائيين

من الصعب أن نعرف بالتفصيل كيف كان الجغتائيون يقسمون القبائل والعشائر، وترجع هذه الصعوبة الى غموض الاصطلاحات ، فكلمة (اولوس) مثلا وهي أوسع هذه الاصطلاحات معنى (يقال مثلا اولوس جوجى أو اولوس جفتاي) ، وكلمة (ايل) و (تومان) والكلمة المغولية (ايماق) وكثيرا ما تكتب (اويماق) هذه الكلمات جميعا بمعنى واحد * وقد أخذت اللغة التركية كلمة (تومن) بمعنى كثير أو بمعنى عشرة آلاف ، عن لغة الشعب الكشغرى وبدأت هذه الكلمة تطلق فيما بعد على سكان الحضر أكثر مما كانت تطلق على البدو أو الجيش ، وقد فرق محمد حيدر بين أربع طبقات كانت تعيش في بلاد كاشغرى أو (فى كاشغرى وختن على حد تعبيره) :

- ١ - تومن : القريون *
- ٢ - قاثوجين Qautchim الجيش *
- ٣ - اويماق : البدو ، وكان لهم الحق في مقادير معينة من القمح ومن المنسوجات *
- ٤ - طبقة الموظفين والعلماء *

وكانت كلمة (تومان) تستعمل في بخارى حتى وقت قريب ، للدلالة على سكان الوادى وذلك فى مقابل كلمة (كوهستانى) بمعنى ساكن الجبل * ولقد بين السفير

الأسباني قلاويخو Ceavijo وضع الجفتائيين في بلاد تيمور بالنسبة لسكان الحضر وكان بيانه أوضح مما ورد عن هذا الموضوع في المؤلفات الشرقية . قال انهم يستطيعون أن يزرعوا قطعانهم في أى مكان في الصيف والشتاء ، ويستطيعون أيضا أن يزرعوا في أى مكان وهم أجراء تماما لا يدفعون للامبراطور ضرائب ، ولكنهم كانوا يخدمون في الجيش متى استدعوا .

وتتميز بين الجفتائيين قبائل أربع هي :

آرلات وجلالير وقاجين وبارلاس ، وقد رأينا أن كلمة (قاجين) لم تكن تستعمل في أول الأمر للدلالة على القبيلة أو البطن ، ولكنها كانت تطلق على الفريق المميز من الجيش ويقول شرف الدين اليزدى ان الخان كان يطلق هذه الكلمة على حرسه الخاص ، ومن المحتمل أن يكون قازاغان (١٣٤٦ - ١٣٦٨) وهو أول من حكم من الأمراء الجفاتائية فيما وراء النهر - قد نشأ واحدا من هؤلاء القاجين - (وغلب تيمور فيما بعد حفيد قازاغان وقتله) . وأما الأسماء الثلاثة الأخرى فقد كانت منذ القدم أسماء لبعض أقوام المفلول . وكان كل منهم يحكم جزءا معيناً من الأراضى في بلاد جاغاتاي . فكان الآرلات في شمال أفغانستان والجلالير بجوار خوجند على ضفاف جيحون ، وكان البارلاس يحكمون ضفاف نهر كشكة وإلى جانب هذه القبائل كانت توجد عشائر جاغاتائية تكونت حول بعض الخانات والأمراء ثم حملت أسماءهم بعد موتهم ، وكان لهذه العشائر رؤساؤها كما كانت لها أراضيتها ، ففي جوار بلخ مثلا كانت توجد (عشيرة كبك) = (كبك توماني) وقد ورد في المخطوطة مجهولة المؤلف التي اصطلحنا على تسميتها (مخطوطة اسكندر) أن كبك حصل في أثناء سلطة أخيه ايسان بوقا على حق أن يجمع حوله بعض الأغنياء من كل قبيلة (ولا شك أن هؤلاء الأغنياء

هم البدو الذين يملكون اخبر عدد من القطعان) * ويقول المؤلف : ومن هؤلاء الناس تنحدر الجماعة التي تتسمى الآن - من فرط غرورها - بجماعة كبك (تاكه امروز مفاخرت يانجو كرئى كبك ميكنند) ويقرر نفس المصدر أن قبيلة الأمير ياساوور عدو كبك قد انضمت الى هذا الأخير بعد هزيمة ياساوور . * ولكن الياساووريين كانوا يعيشون في عهد تيمور الى جوار سمرقند بوصفهم احدى البطون المستقلة وكان رئيسهم الأمير خضر يحكم سمرقند كما تقرر نفس المخطوطة * .

تيمور والقبائل

ولا شك في أن العلاقات كانت وثيقة بين تيمور وقبيلة بارلاس التي ينتمى اليها ، وكثيرا ما كان أفراد هذه القبيلة يوصفون بأنهم (اخوة تيمور) ، وكان تيمور حتى يعد أن نصب رئيسا على امبراطورية جاغاتاي يناضل ضد أمراء الآرلات والجلائرية ، ليحكم مدة أطول حتى لقد أعلن في سنة ١٣٧٦ أن قبيلة جلاير قد حلت ، بل محيت وألحقت بقاياها بالقبائل الأخرى * .

وعلى أية حال ، فلم يكن الأمراء المقربون الى تيمور هم أمراء البارلاس وحدهم ، بل كان من بينهم أمراء يمثلون قبائل أخرى ، ومن هؤلاء آق بوغا المنتمى الى قبيلة نايمان ومن دلائل قربه أنه حجز لنفسه - كما حجز غيره من زملاء تيمور في القتال - مكانا الى جوار قبر تيمور (كان المفروض أن يكون قبر تيمور في أول الأمر في شهر سبز) ومن اللافت أن أماكن هذه القبور كانت تسمى موجيل وهي الكلمة التي تطلق على موضع الكتيبة أو مكان الفرد في ميدان القتال ، ويدل هذا على أن تيمور كان موطن اجلال الجاغاتائيين عامة والأعيان منهم خاصة * ولكنه مع هذا كان يحس أنه أقرب الى العنصر العسكري في البلاد منه الى سكان المدن والقرى * .

هذا ولكن البدو في جحومتى اسيا الوسطى وهما حكومة المغول وحكومة جاغاتاي كانوا يعتقدون أن تيمور قد ارتكب جرما كبيرا باختياره مدينة كبيرة لتكون عاصمة للملكه ، ولأنه - وان لم يتخذها مقرا دائما له - بدأ يشيد فيها المباني ،

ذلك أن البدو كانوا يعتبرون هجرة أمرائهم ورؤسائهم الى المدن اخلا لا بقانون جنكيزخان ، وقد نسب اترك آسيا الصغرى النصيحة الباقلة (شد الرحال دائما لا تقعد) الى أوغوز خان والنص التركي لهذه النصيحة هو : (دائم كوج أدلر ، أوتوراق أولمايالر) ، وكلمة (أوتوراق) الواردة في هذه العبارة والتي يستعملها أترك آسيا الصغرى أقرب معنى الى الكلمات الأوروبية المستعملة في نفس المعنى (مثل Sédentaire الفرنسية و Sesshaft الألمانية و Osedlyi الروسية) من كلمة (جاناك) المستعملة في آسيا الوسطى ، ومما لا شك فيه أن النفور من حياة الحضر كان أكثر تأصلا في منغوليا منه في الغرب .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر اضطر الخان المغولي يونس - بسبب استياء رعاياه من المغول - الى التخلي عن توطن آق صو (مع أن آق صو هذه ما كانت لتدرج في عداد المدن الا بالنسبة الى ظروف منغوليا) هذا على حين كان خلفاء تيمور قد أحرزوا في نفس الوقت شأوا بعيدا بفضل ما شيدوا من مبان في سمرقند وهراة .

ولما استولى يونس بعد سنين على سايرام وطشقند (من المعروف أن قبره في طشقند) خرج عليه قسم من المغول برياسة ولده أحمد الذي ما لبث أن اصطدم بأبيه وبأخيه الأكبر . وقد بقى أحمد هذا - كما كان دائما - محاربا بدويا محتفظا بتقاليد البدو وبزيهم وعلى هذه الصورة رآه صهره بابر سنة ١٥٠٢ .

وقد تفردت روايات حوادث القرن الرابع عشر بالإشارة الى تمرد البدو على الدولة الجاغاتائية ، بسبب نزعة

الحكام الى حياة الحضر ، وكان المؤرخون يمدحون قازاغان
لأنه بقى مستمسكا بقواعد الحياة البدوية ، يقضى الشتاء
على ضفاف نهر جيحون ، والصيف على جبال بلجوان ،
ولا يطأ أراضى اهل المدر .

وقد هاجم ابنه عبد الله مدينة خوارزم دون اذن منه
فافتدى الأهالى أنفسهم بمائتى تومان (مليون دينار فضى) ،
ولكن أباه لم يكد يعلم بهذا الاعتداء غير المسبب على بلاد
المسلمين حتى أخذه بشدة .

ويقال ان قازاغان كان يحسن معاملة الترك والتاجيك ،
ومع أن عبد الله قد أحسن الادارة بعد وفاة قازاغان ، الا أنه
أثار الاستياء باتخاذه سمرقند مقرا للحكم ، فقد أدى هذا
الى أن خلعه الأمراء قبل مضى عام على وفاة أبيه ، وبعد بضع
سنين حافلة بالقلقل قبض حسين حفيد قازاغان على أزمة
الحكم ، وحاول هو الآخر أن يتخذ من بلخ عاصمة له ولكن
تيمور نصحه بأن يعتبر بما حدث لعمه وأقنعه بالعدول عن
الفكرة ، ثم قامت الثورة ضده واشترك فيها تيمور فلما قتل
حسين انتقل الحكم الى تيمور ، ولم يكد يمسك بمقاليد الحكم
حتى ارتكب ما سبق أن أخذ عليه عبد الله وحسين ، فاتخذ
من المدينة الكبيرة سمرقند مقرا للحكم وبنى بها القلاع
والحصون . ويمكن أن نستنتج من هذا أن سكان الاستبس
لم يكونوا يريدون استبدال حياة الحضر ، بحياة البداوة ،
وأن بقاءهم فى مروجهم كان متمشيا مع قوانين جنكيز خان
من ناحية ، ومع منافع أهل الحضر - وهم التاجيك - من
ناحية أخرى .

ولم يكن الخان والأمراء ينتقلون وحدهم الى المدينة ، بل
كان يرحل معهم كثير من أبناء عشيرتهم ، وكان التوفيق
صعبا بين منافع السكان القدماء وبين هؤلاء المهاجرين الجدد ،
خاصة أن السكان القدماء كانوا تحت حكم رؤساء البدو
وكانوا يتحملون الضر بسبب الحروب الداخلية بين هؤلاء
الرؤساء .

ويقول مؤلف مخطوطة الاسحندر عندما تناول تأسيس مدينة أنديجان فى عهدى (قايدو) و (توبا) ان الخانات كانوا يستوفدون الناس من كل البلاد الخاضعة لهم ليسكنوهم فى المدينة وفى زمن المؤلف كان لكل قوم أو - بتعبير أدق - لكل بطن من بطون البدو * حى خاص بالمدينة *

تيمور وحضارة المدن

كان تيمور عارفا بالفارسية الى جانب التركية ، ملما بالاسلام من حيث هو عقيدة واقفا على العلوم والفنون الاسلامية ، استدعى العلماء من كل مكان الى سمرقند ، وحفر القنوات وشيد المباني حتى لقد كانت أفعاله فى التعمير لا تقل أثرا فى نفوس معاصريه عن أعماله فى التخريب والتدمير ، ولم يكن العنصر التركى يسهم فى أعمال تيمور * وكانت خوارزم - من بين ممتلكات تيمور - أكثرها تركا وقد بنى صناع خوارزم لتيمور قصرا عظيما فى شهر سبز اسمه القصر الأبيض (آق سراى) ولم يكن بهذا القصر - عدا اسمه - أى شىء تركى فلم تنقش مثلا أية كلمة تركية فى القصر على حين وجدت بين نقوش جدرانها - أبيات كثيرة فارسية - ولم يكن تيمور من محبى الشعر فارسيا كان أو تركيا ، واذا استثنينا ما يقال من أنه قابل حافظ سنة ١٣٧٧ ، فانه يمكن القول بأنه لم يعرف شاعرا واحدا من شعراء ايران ، وقد برهن تيمور بالقبة الفخمة التى أنشأها فوق قبر الولي التركى أحمد اليسوى على عنايته بالأمور الروحية لرعاياه من الترك (وكانت هذه القبة هى البناء الوحيد الذى شيده تيمور خارج سمرقند وشهر سبز) ، ومع هذا فان وثيقة وقف هذا البناء - وقد وصلت إلينا - محررة بالفارسية *

وسأحاول أن أجمع فى المحاضرة القادمة بعض المعلومات عن مستوى أتراك آسيا الوسطى الاقتصادى والحضارى فى عهد خانات الأوزبك *

المحاضرة الثانية عشرة

امبراطورية تيمور

لا شك في أن تيمور لم يكن يقصد - أبان تأسيس امبراطوريته - إلى تحقيق غايات البترك القومية وإنما كان يقصد إلى الاستيلاء على أكبر عدد من الممالك ، أو على العالم كله إذا أمكن ، وليس لدينا دليل على أن تيمور كان ملما بتاريخ الاسكندر المقدوني ، ولكن مؤرخه ينسب إليه عبارة نسبت من قبل إلى الاسكندر وإلى من شابهه من غزاة العالم ، ومن بينهم عضد الدولة أقوى حكام البويهيين في القرن العاشر الميلادي ، وهذه العبارة هي (لا يستحق العالم كله أن يملكه حاكمان) . وقد فكر تيمور في أن يكمل فتوحاته بفتح الصين مثله في ذلك كمثّل خوارزمشاه من قبله ونادر شاه من بعده ، ولم يكن بينه وبينهما سوى فرق واحد هو أن فتح الصين بالنسبة إلى خوارزمشاه ونادرشاه كان غاية بعيدة المنال ، أما بالنسبة إليه فقد كان أمرا ممكنا أعد له عدته وحشد له جيوشه ولم يحل بينه وبين الغزو إلا الموت ، وكانت استعداداته للغزو معروفة في الصين ، حتى لقد بدأ الصينيون يتخذون التدابير لدفع الهجوم المتوقع . وتقول إحدى الروايات أن قادة جيش تيمور أرادوا بعد وفاته أن يواصلوا تنفيذ الخطة ويزحفوا على الصين ، ولكن شغلهم عن هذا ما ظهر في داخل امبراطورية تيمور من فتن وقلق ، ونستطيع أن ندرك من كل ما تقدم إلى أي حد كان الأتراك المسلمون يهتمون بالصين . ولقد أشار بابر في مذكراته إلى أنه كان يحلم كثيرا بقيادة حملة ضد الصين ، بل لقد واصل هذا التفكير بعد أن انقطع عن كل نشاط سياسي بسبب هزائمه العسكرية ، وكان وقتذاك لا يستطيع أن يبقى في

الصين لو دخلها فاتحا مثلما كان تيمور سيفعل، بل كان سيقوم هناك بوصفه ضيفا فقط .

وفي عهد تيمور وخلفائه بقيت سمرقند مركزا تجاريا مهما ، يرد عليه كثير من السلع الصينية ومع هذا ، فلم يكن بتركستان في العهد المغولي معلومات علمية عن الصين ، كتلك التي وجدت في نفس العهد بايران ، وخاصة في كتب رشيد الدين ، وقد وصف سفارة شاهرخ الى الصين (١٤١٩ - ١٤٢٢) - وهي السفارة التي اشترك فيها وفد من سمرقند - عضو ايراني في هيئة السفارة نفسها .

خراب خوارزم

كانت المناطق المتأثرة بالمدينة الايرانية هي الهدف الأصلي لغزوات تيمور، وكانت خوارزم - لأسباب جغرافية - أول هذه المناطق استهدفا للغزو . ولم تكن خوارزم - وسكانها في ذلك الوقت من الأتراك - تقل حضارة عن أية منطقة من مناطق ايران ، وقد نقل منها تيمور كثيرا من العلماء والصناع الى سمرقند فشيّدوا له القصر المسمى آق سراي وما زالت بقاياها حتى اليوم تدل على مهارتهم ، فهو لا يقل حسن صنعة عن أي مبنى من مباني تيمور بسمرقند وبخاصة من حيث تغطية الجدران بالفسيفساء الصيني .

وقد قضت الظروف وقتذاك بأن تتحمل خوارزم من ويلات الحروب التيمورية أكثر من غيرها .

وكانت خوارزم - قبل ذلك بقليل - قد تخلصت من حكم الألتون اوردو ودخلت تحت حكم أسرة من تلك الأسر التي ظهرت - كأسرة تيمور - بين المغول المتتركين ، ولكن حسين صوفي وهو أحد حكام خوارزم لم يكن يسمح بأن يقارن بين أهل خوارزم الذين تمثلوا الحضارة الاسلامية تمثلا كاملا وبين الجاغاتائيين الذين يشبهون المشركين زيا وثقاليد ، وفي سنة ١٣٧٢ رفض المحادثات مع سفير تيمور الموجود

بنخوارزم وقال له في خشونة ان بلادكم دار حرب وان مجاهدتكم فرض على المسلمين . وبعد أن استولى الجاغاتائيون على خوارزم سنة ١٣٨٩ ثارت ضدهم عدة مرات .

وفي أثناء الحرب بين خان الآلتون اوردا توختاميش وبين تيمور انحازت خوارزم عدة مرات الى توختاميش ، بل سكت فيها العملة باسمه ، ومن أجل هذا كله كان طالع خوارزم وبخاصة عاصمتها أوركانج ، أشد نحسا من سائر البلاد التي فتحها تيمور . ومع أن سكان المدن قد تعرضوا غير مرة أثناء حروب تيمور للقتل العام ، فلم تتخذ التدابير للابقاء على خراب هذه المدن ، ومن هنا كان عدد السكان كثيفا فيما بعد في نفس الأماكن التي قتل بها عشرات الألوف . وفي نفس هذه الأماكن عاش أحفاد تيمور . ولكن أوركانج - كمدينة - كانت قد امحت تماما ، وزرع في مكانها الشعير اعلانا على خرابها . وبعد ثلاث سنين تقرر احياء أوركانج ولكن في بع مساحتها قبل التدمير ، ومع هذا فلم تستطع أن تستعيد أهميتها التجارية والثقافية ، وخاصة أنها كانت - بسبب موقعها الجغرافي - معرضة للأضرار الناجمة عن الحرب بين الأوزبك أي أتراك الآلتون اوردا وبين الجاغاتائيين . كان تيمور كما رأينا نموذجا للمحارب الجاغاتائي ، ولا شك في أن الأتراك الجاغاتائيين كانوا أقرب الى نفسه من التاجيك أصحاب القومية الايرانية . وفي جيش تيمور كان يوجد الايرانيون جنبا الى جنب مع الترك . ولكن المؤرخ الخراساني حافظ أبرو يقرر أن تيمور كان يعتمد أكثر ما يعتمد على الكتائب الخراسانية في جيشه ، وفي نفس الوقت كان تيمور يقول في كلمة منسوبة اليه : « ان الخصال العسكرية قاصرة على الترك » . وقال تيمور أيضا قبيل وفاته يوصي أبناءه وأحفاده ان السلطان أحمد جلاير - الذي كان فيما مضى حاكما على غرب ايران - لم يكن يقلقه أو يشغل باله لأنه كان تاجيكي المزاج .

ومهما يكن ، فلا بد ان تيمور كان متأثرا ككل الأتراك بالمدينة الايرانية ، وكان تيمورا أميا لا يقرأ ولا يكتب . ولكنه كان على قسط من الثقافة وكان يلعب الشطرنج ويخالط العلماء وحصل له من معادثاتهم علم ببعض العلوم ، وقد أدهشت معلوماته التاريخية ابن خلدون أكبر مؤرخي العرب في ذلك الوقت ، ولم يكن تيمور يعنى بالانتصارات العسكرية فحسب ، بل كان يجلب العلماء الى عاصمة ملكه ليتوج عظمته بالأبنية الفخمة وبمنشآت الري ، وكان تيمور يعتمد في كل ذلك على أصحاب الثقافة الايرانية أو - على الأقل - على أناس ينتمى أغلبهم الى العنصر الايراني .

وبمناسبة الحملة التي كان يزمع أن يقودها لغزو الصين اتخذ - في أواخر سنى حياته فقط - بعض التدابير التي لم يكن يتحرج أى حاكم معاصر لنا من أن يتخذها منذ البداية ، فحاول أن يخضع الأقوام التركية المغولية اخضاعا كاملا ، ولم يكن قام ضدها قبل ذلك الا ببعض الغارات ، ثم بنى القلاع فى مناطق الاستبس وكانت القلعة المشيدة الى جوار بحيرة (ايسيق - كول) تعتبر من القلاع الأمامية ، وبذل الجهود كذلك لاهياء الزراعة ولاحياء الحياة الحضرية ، ولكن كل ما حقق تيمور من الاصلاحات ما لبث أن زال بعد وفاته ، ولم يوفق خلفاؤه - رغم كل جهودهم - فى اخضاع البدو من جديد .

التيموريون فى هراة وفى سمرقند

ولم يكن تيمور حسن الحظ فى أولاده وأحفاده مثل جنكيز ، فان أولاده لم يعجزوا عن توسيع حدود الامبراطورية فحسب ، بل عجزوا أيضا عن المحافظة عليها ، فبعد قليل من وفاته فقد أبناؤه كل بلادهم ما عدا تركستان والمناطق الشرقية والجنوبية من ايران .

ولكن صغر الامبراطورية والهدوء النسبى الذى سادها فى الداخل ، وضيق العمليات الحربية ، كل أولئك مكن من

يُنال الجهود في النواحي المدنية على نحو لم يكن موجودا في عهد تيمور .

وتحولت العاصمة من سمرقند الى هراة مقر شاهرخ بن تيمور ، الذي أصبح - بعد عدة حروب داخلية - الحاكم الأعلى على كل البلاد الخاضعة لأبناء تيمور ، وقد حكم أولوع بك أكبر أبناء شاهرخ في مدينة سمرقند زهاء أربعين عاما (١٤٠٩ - ١٤٤٩) ظلت سمرقند في خلالها أكثر المدن ازدهارا ، وقد فاقت المباني التي شيدها أولوع بك المباني التي أقامها جده تيمور قوة بنيان ، ودقة أبعاد وروعة مظهر ، لم يكن لمباني سمرقند أو هراة أى طابع تركى قومى ، نعم لقد أنشئت - بالاضافة الى المساجد والمدارس - الحمامات والربط والمؤسسات الخيرية بوجه عام ، ولكن لم يكن من بين هذه المؤسسات جميعا بناء له طابع قومى ، كذلك البناء العظيم الذى شيده تيمور حول قبر اليسوى ، وكتلك الزاوية التى أعدها للدراويش المقيمين ولاستقبال الدراويش الوافدين من الخارج ، وفي الوثائق الرسمية وصفت هذه الزاوية - وهى جزء من نفس البناء المذكور - بأنها خانقاه أعدت لإقامة الدراويش « خانقاه مسافر بناء » .

واقامة هذا البناء عمل يتفق مع الاعتقاد بأن من واجب الرؤساء قضاء حوائج الرعايا واکرامهم .

الأدب الجغتائى فى

عهد التيموريين

وفى مقابل هذا تقدم الأدب التركى فى عهد خلفاء تيمور بعد أن لم يكن له ذكر فى عهده هو ، نعم كان الشعر موجودا فى امبراطورية الجاغاتائيين منذ زمان ، فقد كان كابل شاه (الذى نصب خانا فى سنة ١٣٦٦ ثم خلع بعد مدة قليلة) يقول الشعر وكان له صيت شعبى حتى القرن الخامس عشر ، وكان يقرر بوصفه خانا أنه من خلفاء جنكيز خان . ومن الواضح أن لغته هى التركية ، والمرجح أنه كتب بها

أشعاره ، وكان سيف الدين برلاس وهو رفيق تيلمسوز في ميادين الحرب يقول الشعر بالفارسية والتركية ، والحق أكثر الشعراء شعبية بعد وفاة تيمور هما الشاعران السكاكي ولطفی ، وكان الشاعر الكلاسيكي علي شيرنوائي يقين بمواهب لطفی الشعرية ، وقد مضى على ولادته حتى عامنا هذا الهجري خمسمائة عام (كان ذلك سنة ١١٣٤ هـ - ١٣٤٥) هجرية .

أما السكاكي فقد مدح في أشعاره السلطان خليل (١٤٠٥ - ١٤٠٩) حفيد تيمور ، وحاكم سمرقند ، ثم مدح من بعده أولوغ بك ، وكانت أشعاره فيه أكثر منها في السلطان خليل ، وقد تحدث الشاعر عن نفسه في قصائده التي أهداها لأولوغ بك فقال : « سيدور الفلك ستين طوالا قبل أن يجود الزمان بشاعر تركي مثلي ، وبحاكم عالم مثلك » ،

أما الشاعر لطفی فكان يقول ان أشعاره التي لا تقل عن أشعار سلمان الساوجي (وهو من شعراء إيران في القرن الرابع) معروفة لأولوغ بك ، وقد عاش الشاعر التركي (سيدى أحمد بن ميرانشاه) وهو من ذرية تيمور في كنف شاهرخ وأولوغ بك ، ويمكن أن نستنتج من عنوان منظومته (تعشقنامه) التي كتبها لشاهرخ سنة ٨٢٩ (١٤٣٥ - ٣٦) أنها كانت تقليدا في بعض نواحيها لمنظومة (معبتنامه) للخوارزمي شاعر الألتون أوردا في القرن الرابع عشر ، وفي نهاية عهد التيموريين (في أواخر الخامس عشر وأوائل السادس عشر) كان بانرو هو من خلفاء ميرانشاه يقرض الشعر بالتركية ، ويؤخذ من كلامه أن ابن عمه بايسونقور الذي حكم زمانا في سمرقند كان هو الآخر شاعرا شعبيا .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر ظهر على شيرنوائي فأفلت نجوم الشعراء أجمعين . ولم تعش آثار بعد موت مؤلفها الا آثار نوائي ، كما لم تتجاوز مؤلفات حدود الممالك التيمورية الا مؤلفاته ، فحتى مؤلفات بابر - ولا مرأ

فى قيمتها - لم يبق منها الا عدد قليل من المخطوطات ، وقد تعرضت للنسيان ، حتى اكتشفها علماء أوربا من جديد .

وكان نوائى الذى ينزح الى الثقافة الايرانية قد أدخل فى الشعر التركى بعض الموضوعات الفارسية ، ووضع كتابا عن ملوك الفرس الأقدمين .

ولكنه - على كل حال - كان يعلى شأن الشعر التركى واللغة التركية . وقد حاول أن يثبت (فى كتاب ألفه قبيل وفاته) فضل اللغة التركية على اللغة الفارسية ولم يكن أحد من المؤلفين - وبخاصة فى آسيا الصغرى - قد جرؤ فيما نعلم على أن يتناول هذا الموضوع قبل نوائى .

وكان الشعراء الترك يكتبون مؤلفاتهم فى سمرقند وهراة ، حيث كانت جمهرة السكان من التاجيك وحيث لم يكن العنصر التركى ممثلا الا فى الأسرة الحاكمة وفى الجيش ، ولكن تبوأ الأتراك كراسى الحكم كان بلا ريب يزيد أهمية اللغة التركية ، ففى مصر مثلا - حيث كان العنصر التركى ممثلا فى الجيش فقط - ظهرت بعض الكتب التركية ، وكانت غالبيتها مترجمة .

ولم يكن كل أفراد الأسرة الحاكمة يعتبرون أنفسهم تركا ، ويقدرّون التقاليد التركية ، بل لقد استطاعت التقاليد (التركية - المغولية) أن تستأصل التقاليد التركية الخالصة وأن تقوم مقامها ، وكانت التشكيلات العسكرية التركية فى ذلك الوقت احدى مخلفات امبراطورية جنكيز ، وكانت بعض الاصطلاحات العسكرية المغولية تستعمل الى جانب الاصطلاحات التركية ، ومن هذه الاصطلاحات كلمة « خوشون » التى كانت تستعمل بمعنى الفيلق العسكرى ، ولكن هذه الاصطلاحات المغولية قد ماتت . وكان مدى تعلق الخانات بقوانين جنكيزخان هو الذى يحدد مدى استمساكهم بالتقاليد التركية ، ففى هراة مثلا لم يكن شاهرخ يريد أن يتصف الا بأنه سلطان مسلم وخليفة ، وأبى لذلك أن يعترف

يقوانين جنكنيزخان ، على حين كان اولوغ بك فى سمرقند
يرعى فى الأمور العسكرية — على الأقل — قوانين جنكيز، وكان
يجلس على العرش ملوكا اسميين ، كما كان يفعل تيمور ،
وعلى الجملة كان يدبر أمور الملك مستوحيا جده .

أولوغ بك

وعلى العكس من تيمور لم يستطع اولوغ بك أن يغير
— فى حياة أبيه — على غرب آسيا ، وكان من نتائج هذا أن
اكتسبت غزواته فى الآلتون اوردا وفى منغوليا أهمية لم
تكتسبها غزوات تيمور ، ولكن اولوغ بك لم يستطع مع هذا
أن يعيد النظر فى الخطط التى وضعها تيمور فى أواخر
حياته ، بل كان قصاراه أن يرفع الى العرش الأسر التى يرضى
عنها من سكان البلاد الأصليين ، وهى الغاية التى ارادها
تيمور ولم تتحقق له ، وكان من باب أولى ألا تتحقق لأولوغ بك
الذى لم تكن له فيما يبدو مواهب جده العسكرية ، ولا سجاياه
كفاتح . حتى أن نتيجة أكبر مشروعاته العسكرية وهو
هجومه على منغوليا فى سنة ١٤٢٥ كانت سلبية ، وفى نهاية
حكمه ، كانت المناطق الخاضعة لحكمه أضيق منها فى بداية
عهده : إذ اغتصب منه المغول الولايات الواقعة شرقى سايرام،
واغتصب الأوزبك المناطق المجاورة لسيحون والواقعة فى
الجزء الأسفل من تركستان (توركستانك أشاغى طرفلرندة)
وفى ذلك الوقت عظمت قوة الأوزبك تحت حكم الخان
أبى الخير ، وعلى أيدي أولاده وأحفاده كانت نهاية سلطنة
التيموريين .

وقد استولى أبو الخير لمدة محدودة فى شتاء ١٤١٠ —
١٤٣١ على مدينة أوركانيج ، وعلى القسم الشمالى من خوارزم،
وفى ١٤٤٨ انقض أبو الخير على ما وراء النهر ، بينما كان
أولوغ بك يحاول — عقب وفاة شاهرخ — أن يدخل خراسان
تحت حكمه ، وفى ١٤٥١ أغار أبو الخير على المناطق المجاورة
لسمرقند ونهبها ، ثم بدأ يتدخل فى الحروب الداخلية التى

وقعت بين التيموريين فيما وراء النهر، فبمعاونته مثلاً انتصر (أبو سعيد) (من خلفاء ميرانشاه) على عبد الله وهو من خلفاء شاه رخ وابن أخى أولوغ بك، وكان انتصار أبى سعيد نصراً (لخواجة أحرار) كبير الدراويش فى آسيا الوسطى وزعيم المعارضين لأولوغ بك ولنظمه الادارية .

وبان أولوغ بك يجعل جده تيمور، ويحافظ فى نفس الوقت على التقاليد العسكرية التركية - المغولية . بل كان الى حد ما وطنياً تركيا وتشهد على هذا النقود التى سدها باسمه فى سمرقند وهراة خلال العامين اللذين قضاها على رأس حكومة التيموريين ١٤٤٧ - ١٤٤٦ . (قبل سنة ١٤٤٧ كانت العملة تسك فى سمرقند باسم شاه رخ ، مع أن سمرقند كانت فعلاً تحت حكم أولوغ بك ، ويوشك أولوغ بك أن يكون الوحيد بين التيموريين الذى نقش عملته باللغة التركية . وتوجد عملة منقوشة بالتركية بين عملات تيمور نفسه) وأما العبارة المنقوشة على سكة أولوغ بك فهى (أمير تيمور كور كان همتيدىن أولوغ بك كور كان سوزوم) وترجمتها : ان كلمتنا - ببركة الأمير تيمور كوركان - هى كلمة أولوغ بك كوركان .

وكانت كلمة سوزوم أو سوزمن بمعنى (كلمتى) أو (كلمتنا) كانت هذه الكلمة تستعمل حتى أواخر عهد الأسرة بمنعنى يارليغ أى (الأمر الملكى) وهى ترجمة الكلمة المغولية (أوكامنو) tige Manu التى تجدها على عملة تيمور ، وأما كلمة (كوركان) فمعناها الصهر وهى لقب اتخذته تيمور ، كما اتخذته بعض أولاده للدلالة على أنهم ينتمون الى جنكيزخان .

التيموريون والمدنية الاسلامية

ولم يكن استمساك أولوغ بك بالقومية التركية يمنعه من أن يأخذ من المدنية الايرانية أكثر مما أخذ تيمور ، اذ لم يكن يقتصر - مثل تيمور - على لقاء العلماء ، بل كان يشتغل

هو نفسه بالعلم عامة ويعلم الهيئة خاصة، وهو من هذه الناحية نموذج نادر في التاريخ الاسلامي لتجباتكم العالم، وكان معاصروه يشبهونه في هذا الباب، بالاسكندر المقدوني تلميذ أرسطو، أي أنهم لم يكونوا يجندون له شلبيها في التاريخ الاسلامي، وتشتهر كتب أولوغ به وكتب خلفائه الأقربين في علم الهيئة بأنها آخر ما وصل اليه المسلمون في موضوعها *

ويدل تعلق أولوغ بك بالعلم على أن سمرقند في عهده كانت أرقى منها في عهد تيمور، وكان من أصحاب تيمور بعض العلماء، وكان منهم قسم من عساكر الترك ولكن لم تكن هناك علاقة بين هؤلاء وهؤلاء، ولم يكن بين أصحاب تيمور من الترك عالم واحد * فأما أولوغ بك فلم يقنع بأن يكون هو نفسه عالما في الهيئة، بل اتخذ لنفسه من بين أصحابه من الترك تلميذا وخلفا هو علي قوشجي، ويدل اسم هذا الشخص على أنه كان كبير القائمين على خدمة الصقور (شاهينجي) عند أولوغ بك، وكان له بهذه الصفة من المقربين اليه، لأن (أولوغ بك) كان مولعا بالصيد بالصقور ومن هنا سماه بابر (قوشجي بادشاه)، أي الملك صاحب الصقور *

وقد تعلق علي قوشجي مثل سيده بعلم الهيئة، واشترك في انشاء مرصد أولوغ بك وفي ترتيب جداول الزيج، ولا بد أنه كان أصغر سنا من أولوغ بك يدلل أنه يشير اليه في الجداول بعبارة (ابني) = (فرزند)، وظل علي قوشجي وفيما لعله بعد وفاة أولوغ بك، ثم اشتغل في استانبول وتوفي سنة ١٤٧٤ وكان يجوب بلاد التيموريين بالزى التركي مما يؤيد أنه كان تركي الأصل * ويمكن أن يستنتج من هذا أن عساكر الترك (الجاغاتائيين) كانوا يختلفون في المظهر الخارجي عن أهل البلاد من التاجيك، وأن هذا الخلاف كان موجودا في عهد أولوغ بك كما كان موجودا في عهد تيمور *

ولاشك في أن ظهور العلماء من امثال أولوغ بك وعلى قوشجى من بين الناطقين بالتركية أمر له أهمية ، وان كان هؤلاء العلماء لم يحاولوا أن يكتبوا بالتركية ولكن حرروا كتبهم بالفارسية والعربية .

ويظهر من كتاب أولوغ بك أنه كان يؤثر العلوم ذات الأهمية العالمية على الدراسات القومية ، وذلك لان العلوم الأولى لا تتأثر باختلاف اللغة أو الدين وبالإضافة الى التأثر بالمدنية الايرانية ، فقد كان تيمور - رغم تقريبه لطبقة العسكر من الأتراك - يقرب أيضا أصحاب القومية الايرانية حتى لقد اتخذ لسلطنته شعارا فارسيا هو « راستى رستى » أى «العدل قوة» . ومن المعروف أن أولوغ بك - على علمه - كان أكثر تركية من جده ، ولكنه كان من غير شك يحسن اللغة الفارسية ، ومن المحتمل أنه كان يناقش بها أصحاب علم الكلام من أهل البلاد وكان من بين علماء الكلام هؤلاء مشايخ الاسلام فى سمرقند ، وهم أحفاد برهان الدين مرغينانى مؤلف الهداية من رجال القرن الثانى عشر ، وعنه ورثوا مشيخة الاسلام فى سمرقند ، ومن الجدير بالملاحظة أن مشايخ الاسلام هؤلاء كانوا يهتمون - مثل أولوغ بك نفسه - بعدم رعاية أحكام الاسلام ، وبالانغماس فى المحرمات (لم يكن أحد يجسر فى عهد تيمور أن يتهم الحاكم بمثل هذا) . والواقع أن ما كانوا يستمتعون به فى ذلك العهد ، كدعوة المغنيات وإقامة الحفلات أمر غير عادى وغير جائز من وجهة نظر الاسلام ، وفى نفس الوقت فان هذه التصرفات تدل على مدى بعد الحياة فى سمرقند فى عهد تيمور وأولوغ بك عن أحكام الدين ، وكان من المنتظر ألا يفيد من هذه الحرية ومن هذا الرقي المدنى الا الأحكام وطبقة الأغنياء ، ولكن الواقع أن طبقة الشعب لم تكن بمنأى عن كل هذا ، فقد روى (قلاوينخو) وهو يصف الحفلات التى كانت تقام فى عهد تيمور أن الشعب كان يدعى للمشاركة

فيها ، ويروى ابن عريشاه أن سراى تيمور وحدائقها كانت مفتوحة للأغنياء والفقراء مادام تيمور غير مقيم فيها .

ومما يجدر ذكره جريان العادة فى مناسبات افراح الاسرة المالكة على اعلان ان السكان (تارخان) اى معصون من الضرائب ، وكان على الاهالى ان يدفعوا من اموالهم للقاتحين من البدو وأن يشتغلوا لحسابهم، متلهم فى هذا كمثل دافعى الجزية من غير المسلمين فى الدول الاسلاميه ، ولم يذن دخول هؤلاء البدو فى الاسلام ليغير هذه العادة المجافيه للتقاليد الاسلاميه ، وفى سنة ١٣٦٥ ثار أهالى سمرقند على حكامهم من الترك واتهموهم بأنهم يصرون على جبايه (الجزية) من المسلمين ، ولم يكن اعفاء الأهالى من الجزية تطبيقا لحكم اسلامى ، بل ربما كان تطبيقا لأحد قوانين البدو الخاصة بأهل الحضر ، وهو قانون التارخان (أى الاعفاء من الضرائب) وكان تمتع أى فرد بالاعفاء يعنى أنه أخرج من طبقة دافعى الجزية وألحق بطبقة النبلاء ، وقد حفظت أوامر الاعفاء هذه بين البراءات التى صدرت بأسماء الخانات فى الحكومات التى انقسمت اليها امبراطورية المغول، وقد بقى حق الاعفاء قائما فى مناطق الفولجا حتى بعد خضوعها للحكم الروسى ، وكان سازيا حتى عهد اسكندر الثانى ، ولا شك أن قانون البدو لم يكن يقصد أساسا الى أن يعفى سكان مدينة بأسرها من الضرائب . ومع هذا فقد ظل هذا القانون مطبقا على سكان العاصمة بعد ذلك حتى عهد الأوزبك . وفى نهاية القرن الثامن عشر أصدر شاه مراد والأمير مسعود وهما من أشد الناس استمساكا بالشريعة وحماسا لها ترخانا ، أعفى بمقتضاه أهالى بخارى من الجزية والضرائب أى أنهما لم يرجعا فى هذا الأمر الى الشريعة ولكن الى قوانين البدو .

وكان هذا الامتياز يضع أهل العاصمة فى مكان أعلى بالنسبة الى سكان المدن الأخرى ، وإلى سكان القرى الذين ساءت حالتهم الاجتماعية بصورة مؤلمة تحت حكم البدو .

الانهيار

لم يكن للتيموريين ولا لغيرهم من دول آسيا الوسطى الوقت الكافى ليقيموا على أرض الوطن حياة ثقافية راسية الأساس ، وقد أحدثت القلاقل فى فترة الانتقال ازيمات استغلها الغزاة الأجانب . فلا شك مثلاً فى أن ظهور خواجه أحرار ، وثورة الدراويش ، كانا متصلين بجهاد الايرانيين القومى ضد الترك فقد كان خواجه أحرار نفسه من التاجيك ولم يكن بين أنصاره المقربين تركى واحد فيما نعلم ، ومع هذا فقد كان التصوف ينتشر بين بدو الترك وكان أبو سعيد متفقاً مع خواجه أحرار ، ولكن هذا الاتفاق لم يقطع علاقته بتقاليده القومية ، وتدل على ذلك رؤيا رآها أبو سعيد ، فقد رأى أحمد اليسوى وخواجة أحرار ، وقال له الأول ان الثانى هو مرشده (أى مرشد أبى سعيد) . وكان أبو سعيد كحاكم يحافظ على تقاليد التيموريين ، وكان يرسم على عملته شعار تيمور وهو عبارة عن ثلاث حلقات صغيرة .

خانية الأوزبك

هلك التيموريون فى صراعهم ضد قوم من الترك خرجوا من الاستبس وهم الأوزبك ، ولم يكن هؤلاء الأوزبك قد تعرضوا لتأثير الحياة الحضرية الايرانية الا قليلاً جداً بالنسبة الى الجاغاتائيين ، فحافظوا بذلك على عادات البدو وتقاليدهم ، ولم يكن خانات الأوزبك يحتاجون - كما احتاج تيمور واولوغ بك - الى أن يستثيروا فى نفوس البدو النعرة العسكرية للقومية التركية ، فلم تكن الأساطير المتعلقة بخصال الأوزبك العسكرية مرتبطة بالخانات ولكن كانت مستقلة عنهم تماماً بل كانت فى كثير من الأحيان ضدهم ، وقد أدرجت مناقب الأوزبك العسكرية فى حروب القرنين الرابع عشر والخامس عشر فى مؤلفات المؤرخين التيموريين ، وكانت هذه المناقب أكثر حيوية من المناقب التى وضعت عن تيمور وأجداده ، وفيما وراء النهر ظهرت الى جانب الروايات

التاريخية عن تيمور أخبار اسطورية كذلك ، ولكنها حررت باللغة الفارسية ، وما لبثت ذكرى تيمور أن تحولت الى نوع من التقديس الدينى ، كما تشهد بذلك النفوس المسكوكة على عملة أولوغ بك ، وأما التصوير الحى لتيمور الأعرج (أقساق تيمور) بوصفه قائدا عسكريا فيوجد فى مناقب التتار والنوغاى لا فى تركستان .

كان الأوزبك ، كما كان الأتراك فى عهد التيموريين ، يرون فى أحمد اليسوى وليا قوميا .

وقد سميت المدينة التى دفن بها أحمد اليسوى - وكانت قد أصبحت فى وقت ما عاصمة للأوزبك - سميت هذه المدينة (تركستان) وتدل هذه التسمية دلالة واضحة على تقديس الترك لأحمد اليسوى ، وعلى أهمية الأفكار التركية القومية عند الأوزبك ، وتوجد فى المبنى الذى شيده تيمور على قبر اليسوى قبور كثير من خانات وخواتين الأوزبك ، وبعد هزيمة شيبان ووفاته فى أثناء الحرب بين الأوزبك والإيرانيين سنة ١٥١٠ ، وبعد أن فقد الأوزبك - لمدة قصيرة - سمرقند وبخارى وسائر البلاد التى فتحوها ، انسحبوا الى مدينة تركستان هذه التى ورد ذكرها .

وكان شيبان حفيد أبى الخير فاتح دولة التيموريين ، وهو تركى مؤمن بتركيته ، ولكنه مع هذا لم يكن مندفا فى فتوحاته بأحاساسه بقوميته التركية .

وكان كغيره من البدو يفتح البلاد واحدة بعد الأخرى ولا يقف الا أمام الصعوبات التى لا يمكن اقتحامها ، وبفضل انتصاراته العسكرية قبض - كما قال مؤرخ إيرانى - على ناصية المجد فى توران وإيران ، وفتح خراسان ، وما كان ليقتنع بفتح إيران كلها لو لم يهزم أمام جيوش اسماعيل الصفوى مؤسس إيران الحديثة ، وقبل ذلك بقليل هزمه قسم من القازاق فى مناطق الاستبس الشمالية .

(وهؤلاء القازاق فريق من الاوزبك انشقوا على قومهم وسموا من اجل ذلك (قازاق) وكان البدو يطلقون هذا الاسم على الجماعات التي تنشق على اقوامها وتحاربها) وكان تعبير (اوزبك - قازاق) مستعملا في اول الامر ، ويدل وجود مثل هذه الفئة المنشقة على أن الاوزبك كانوا مثل من سبفهم من البدو لا يميلون الى الانضواء باختيارهم تحت لواء خاناتهم الذين كانوا يستغلونهم في توسيع رقعة ممتلكاتهم ، وكان فتح ما وراء النهر على يد فئة جديدة من الترك ، لم تتأثر قطعيا بالمدنية الايرانية عاملا على تطوير اللغة التركية فيما بعد ، وبخاصة في ميدان الترجمة ، والواقع ان هناك عددا من المؤلفات كتبت لخوانين الأوزبك الأول ومنذ سنة ١٥٣٠ تحدث القوم عن أبي سعيد حاكم سمرقند (وهو ابن عم شيبان) بوصفه تركيا يجهل الفارسية جهلا تاما ، ولكن الفاتح لا يستطيع أن يظل هكذا أجنبيا بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة .

وكان عبيد الله خان بخارى المتوفى (١٥٣٩) ، (وهو ابن أخى شيبان) يعتبر من أصحاب الكمال لا لأنه يحافظ فقط على تقاليد البدو ، ولكن لأنه يراعى أيضا أحكام الشريعة الاسلامية .

وفي القرن السادس عشر كان خان بخارى المشهور عبيد الله (توفى ١٥٩٨ وأخذ في حوزته - عدا ما وراء النهر - خوارزم وخراسان) يدير أمور ملكه بنفس الروح ، ولما اعتلى عبيد الله العرش سنة ١٥٨٣ حمل على فروة بيضاء ، وكانت تقاليد البدو تقضى بأن يمسك بأطراف الفروة الأربعة أربعة رؤساء يمثلون أربع قبائل من قبائل البدو ، ولكن عبيد الله عدل عن هذا وبدلا من أن يحمل الفروة هؤلاء الرؤساء الأربعة حملها رؤساء الطرق الصوفية ببخارى ، ويدل هذا على أنه كان يحاول أن يؤلف بين عادات المشركين من البدو وبين الروح الاسلامي السائد في دولته .

وبلغ عبد الله مقاصده باتباع الوسائل التي اتبعها غيره من حكام آسيا الوسطى من المغول والترك ، وكان عهده عهد خير على سكان المدن خاصة فقد أفادوا من أداة حكمه القوية ، وما زالت مآثره العمرانية تذكر فتشكر في تركستان حتى يومنا هذا . فإليه ينسب شق كثير من القنوات ، وبناء كثير من الكراوات سرايات وغيرها من المؤسسات الخيرية . ولكن البدو لم يكونوا يحتاجون في ذلك الوقت - كما لم تكن بهم حاجة من قبل - إلى أن يتحدوا تحت راية حاكم قوي ، ومن هنا فقد كانت انتصارات عبد الله عليهم دامية إلى أقصى حد ، ولم يكن عبد الله يقنع باستئصال أفراد الأسرة الحاكمة بمن فيها من الرضع بل كان يبيد الكتل الشعبية أيضا ، وخصوصا عندما غزا مناطق الاستبس الشمالية ، ويحكى أن قوما أرادوا ألا يواصل المجزرة بعد أن بدأها في إحدى المرات فدفعوا أمامه - عن قصد - عربة تحمل جثث القتلى ، ولكنه لم يرق ، ومضت المجزرة حتى نهايتها ، ومع هذا فلم يفد كثيرا من هذا القتل العام ، فعلى الرغم من خسائر القازاق الفادحة ، فقد هاجموا - قبل وفاة عبد الله - بلاد ما وراء النهر ، ووصلوا إلى سمرقند ، وما لبثت الدولة التي أسسها عبد الله أن مزقت وقسمت بعد وفاته ووفاة ابنه عبد المؤمن ، وانتقلت كل المناطق التي فتحها إلى أسرة أخرى لم يكن لها من قبل إلا جزء من بلاد أبي الخير ، ولم يستطع أحد من الخانات المتعاقبين أن يوحد البلاد بقدر ما وحدها عبد الله

خوارزم تحت حكم الأوزبك

ومن المظاهر التي أثرت على مصير خوارزم ظاهرتان : انعدام الوحدة السياسية بين الأوزبك ، وفقدان الحماس لخلق هذه الوحدة .

وكانت خوارزم في آخر عهد التيموريين تابعة للسلطان الحاكم في هراة ومستقلة استقلالاً تاماً عن سلطان سمرقند ،

ولم يغز الشيباني خوارزم الا بعد سمرقند أى فى نفس الوقت الذى وجه فيه حملته الى خراسان ، ومنذ عهده كانت خوارزم جزءا من الخانية الاوزبكية التى تضم سمرقند وبخارى ، ولكن شاه اسماعيل بعد ان انتصر فى حرب ١٥١٠ ترك سمرقند وبخارى لبابر اخر التيموريين ، وبدأ يعين على خوارزم ولاية من قبله هو ، ثم طرد أقارب الشيباني بابر من بلاد ما وراء النهر ، وطرد الولاية الايرانيون قوما من الاوزبك من نسل شيباني ولكن ينتمون الى فرع غير فرع ابي الخير ، وفى القرن السادس عشر خضعت خوارزم مرتين (فى عهد عبيد الله وعبد الله) لخانات بخارى ، وكان من نتائج ذلك ان طال عمر أسرة ابناء الشيباني بخوارزم عن عمر أسرة الاوزبك بسمرقند وبخارى ، ذلك ان حكمها استمر حتى آخر القرن السابع عشر تقريبا ، بينما انتهت أسرة ابي الخير فى القرن السادس عشر ، ويروى المؤرخ الخوارزمي خان أبو الغازي (ت ١٦٦٣) أن زوال أسرة ابي الخير كان عقوبة لها ، على ما قام به عبد الله من اباداة أفراد الأسرة الحاكمة بخوارزم ، ويرى أيضا فى تصرفات عبد الله بخوارزم علامات الجهل ، ولكنه مع هذا يقدر عبد الله كحاكم ويقرر أن العملة التى سكنت فى زمانه كانت مرتفعة القيمة فى سوق النقد الدولية ومع هذا ، فقد كان أبو الغازي من بين خانات خوارزم أول من بدأ سلسلة الهجوم على بخارى ، وبدأها بشخصه ، حتى ان بخارى - فى عهد ابنه وخليفته آنوشه - دخلت لمدة قصيرة تحت حكم الخوارزميين .

الفوضى والانحطاط الثقافى

وهكذا بدأ منذ ذلك الوقت الصراع الدامى بين الأقوام التركية بآسيا الوسطى ، ذلك الصراع الذى استمر حتى فتح الروس والصينيون تركستان ولم يكن هذا الصراع يقع بين الحكومات فقط ، بل كان مشتتلا أيضا بين العناصر المختلفة التى تنضوى تحت لواء كل حكومة على حدة ، وفى القرنين

السادس عشر والسابع عشر كانت الاقاليم الخاضعة للحكم التركي ، تمتد من بحر الخزر غربا الى هامى فى الشرق ومن هندوكوش وقوئتلون فى الجنوب الى حدود البلاد الروسية فى سيبيريا شمالا ، وكانت حال هذه المناطق الشاسعة تدل على أنها انحطت حضاريا من وقت قريب، ويحار المؤرخ الذى يريد أن يشرح هذا الوضع فى التمييز بين السبب والمسبب وهذه هى الحال فى كثير من المشكلات التاريخية ولم يكن بد، وقد وقع جزء كبير من آسيا الوسطى بيد قوم متخلفين حضاريا كالأوزبك ، من أن تفقد آسيا الوسطى جزءا من أهميتها فى التجارة الدولية ، ذلك أن نشاط التجار كان محفوبا بالصعاب بسبب فقدان السلطة السياسية الموحدة فى تلك الدول ، ففى خوارزم مثلا كان كل عضو من الأسرة الحاكمة يحاول أن يجبى لشخصه رسوما على كل شىء .

ومهما يكن ، فقد كان من الممكن تخطى كل الصعاب فى سرعة ويسر لو أن الطريق الذى يقطع آسيا الوسطى والذى سلكته القوافل حتى ذلك الوقت ، كان قد احتفظ بقيمته التى اكتسبها فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فى عهدى تيمور وأولوغ بك . تلك القيمة التى فقدتها تدريجيا فى النصف الثانى من القرن نفسه ، بعد أن كشف الأوروبيون أمريكا والطريق البحرى الى الهند ، وبعد أن انتقلت الأهمية الكبرى الى التجارة البحرية التى قبضوا على أزمته ، وعدا هذا فقد أوجد استيلاء الروس على سيبيريا طريقا بريا جديدا يصل بين أوروبا وبين الشرق الأقصى ، فحتى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، كان تجار سيبيريا يتعاملون مع الصين بواسطة قوافل تجارية تصل ما بين آسيا الوسطى وبين مدينة جوجونو على حدود الصين ، وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر، عقدت بين روسيا والصين بعض المعاهدات التى نظمت علاقتهما التجارية ، فظهر نتيجة لهذا طريق جديد الى الصين (وهو طريق سيبيريا) الذى عززه فى أوائل القرن العشرين خط حديدى ، وهكذا أخذت أهمية تركستان تسقط

فى ميدان التجارة الدولية ، ولئن كانت سيطرة الأوزبك المتخلفين حضاريا على آسيا الوسطى ، قد حتمت تحويل الطرق التجارية الى مسالك أخرى ، فان هذا التحويل قد أثر عليهم بدوره تأثيرا سيئا فزاد مستواهم الحضارى انحطاطا ، وحال بينهم وبين الرقى الى حد كبير ، ومع هذا ، فليس بين أيدينا ما يثبت أن الأوزبك وغيرهم من أتراك آسيا الوسطى كانوا — فى القرنين السادس عشر والسابع عشر — أقل قابلية للمدنية من غيرهم من أتراك العصور الوسطى .

التركمان

كانت خوارزم أقصى مواطن الترك فى آسيا الوسطى نحو الغرب وكان اهلها يتكونون — بالاضافة الى الأوزبك — من السارت والتركمان ، ولم يكن الأوزبك قد استعملوا بعد كلمة (سارت) بمعنى كلمة (عجم) أو (غير تركى) كما كان يفعل التيموريون ، بل كانت كلمة سارت فى ذلك الوقت تدل على سكان المدن وهم قوم يتكلمون التركية مثل الأوزبك ، ولكنهم يختلفون عنهم اختلافا كبيرا من الناحية الحضارية ، وفى العادات والتقاليد . وكان أبو الغازى يدرك الفروق بين الأوزبك والسارت لا من حيث ان الأوزبك بدو يحتفظون بنظامهم القبلى فقط ، بل من حيث هم أيضا قرويون يشتغلون بالزراعة ، ولم يكن السارت فى ذلك الوقت قد لعبوا دورهم السياسى والعسكرى فى تاريخ خوارزم ، وعلى العكس من هذا كانت الوقائع الدامية متوالية بين التركمان والأوزبك حتى أواخر القرن السادس عشر ، وفى بعض الأحيان كان خانات خوارزم يستعينون بالتركمان فى صراعهم ضد رؤساء الأوزبك ، وكانوا يسفكون كثيرا من الدماء الأوزبكية بأيدي هؤلاء التركمان ، ومما يدل على ما كان للتركمان من الأهمية أن المؤرخ الخوارزمى أبا الغازى أفرد تاريخهم بكتاب ، عدا الكتاب الذى ألفه فى تاريخ الترك وخصص الجزء الأكبر منه لتاريخ الأوزبك ، وقد حافظ التركمان أكثر من الأوزبك

على طرز حياتهم العسكرية وعلى اشعارهم القومية ، بل لم يحزن
لغيرهم من الاقوام التركية شاعر قومى ، فقد كان لهم الشاعر
مخدوما قوليا ، ولم يكن التركمان يعتبرون الاوزبك اتراكا
بل كانوا يعتبرونهم (تات) ، وكان محمود الكشغرى يطلق
هذه الكلمة على غير البدو من سكان المدن وكان التركمان فى
ذلك الزمان يعيشون - كما عاشوا دائما - فى فوضى سياسية ،
ومما يلفت النظر أن هؤلاء التركمان الذين خرج منهم
مؤسسو أكبر امبراطوريتين تركيتين وهما الامبراطورية
السلجوقية ، والامبراطورية العثمانية هؤلاء التركمان لم
يكن لهم فى أى وقت دولة مستقلة ، ومنذ القرن السادس
عشر كان بعض أقسام التركمان يخضع للأوزبك فى خوارزم
وبعضهم للبخاريين وبعضهم للعجم ، وكانوا - فى اثناء
الحروب التى تقوم بين هذه الدول - ينضمون أحيانا الى
هؤلاء ، وأحيانا الى هؤلاء ، وأحيانا يحارب بعضهم بعضا ،
ولكنهم مع هذا كانوا يغلبون أعداءهم ، وكان التركمان أشد
الناس مقاومة للروس وآية هذا أن جيوش الروس لم تفقد
العلم والمدافع الا فى حربها مع التركمان فى سنة ١٨٨٠ .

خانية خيوة

وكان أوزبك خوارزم يدافعون عن دولهم رغم أن
ظروفهم لم تكن لتساعد على ذلك ، وفى النصف الثانى من
القرن السادس عشر وقعت بخوارزم مأساة جديدة من فعل
الطبيعة وظروف الاقليم ، فقد توقف جيحون بعض الوقت
عن امداد فرعه الأيسر الذى يروى أوركانج كبرى مدن
المنطقة ، وبدأ يصب مياهه كلها فى بحيرة آراك ، وظهرت
فى دلتا جيحون عاصمة جديدة هى خيوة ، ومدن أخرى قامت
فيها - مدن محدودة - حكومة مستقلة سياسيا عن خيوة . ولما
كان الخوارزميون أقل تأثرا بالمدينة الايرانية ، فقد استطاعوا
أن يحافظوا على لغتهم وعلى تقاليدهم أكثر من البخاريين ،
وفى القرن السادس عشر وضع لأحد الخانات وهو دوست خان

سجل جامع للتقاليد القومية . وفى القرن السابع عشر أخرج أبو الغازى كتابه التاريخى المهم فحرره بلغة يفهمها الطفل فى الخامسة من عمره ، فلم يكتف باستبعاد الحكايات العربية الفارسية ، بل حاول أيضا ألا يستعمل الكلمات الجاغاتائية القديمة ، وكان أبو الغازى قد أقام بايران عشرة أعوام فكان لذلك من أصحاب الثقافة بالنسبة الى أبناء قبيلته .

وكان أبو الغازى يقبض على مقاليد الحكم بقوة ، وقد اصطنع - ليبرر استبداده - نظرية تشبه نظرية معاصره الانجليزى هوبس Hobbes وخلصتها أن من واجب أفراد الجماعة أن يسلموا ارادتهم لواحد منهم محافظة على النظام ، وليس بعيدا أن تكون نظرية هوبس هذه قد وصلت الى أبى الغازى بواسطة بعض الانجليز المؤمنين بها ، والمقيمون وقتذاك بايران . وقد أعجب خليفته أنوشة بنظرية الحكم الاستبدادى الايرانية ، ولقب نفسه بعد فتح مشهد بلقب (شاه) ، ثم سمى القناة التى شقها بعد ذلك (شاه آباد) مما يدل على مدى اعتزازه بلقبه الجديد ، وعلى الرغم من هذا ، فلم تكن الظروف تساعد على اقامة عرش قوى فى خوارزم الصغيرة ، وما لبثت الأسرة بعد وفاة أنوشة أن انقرضت . وانتقل الحكم الى أيدي البطون البدوية التى حافظت - رغم هذا - على المبدأ القائل بأن حق اعتلاء العرش قاصر على أبناء جنكيزخان ، وهكذا كان القازاق يستقدمون من الاستبس الخانات المغلوبين فيولونهم العرش ، ويسمى المؤرخون هذا التقليد (لعبة الخان) = (خانبازى) وكان البخاريون يرون أن أوزبك خوارزم أصحاب أفكار مستقلة لا يتبعون أهواء حكامهم ، وقد بلغت الفوضى أقصى حدودها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حتى لقد خربت مدينة خيوه تخريبا تاما ، ثم بدأ النظام يستتب منذ سنة ١٧٧٠ تحت حكم أسرة جديدة هى أسرة ال (قونغرات) التى وفق أعضاؤها فى تأسيس حكومة قوية ببلادهم ، ثم لقبوا أنفسهم فيما بعد بلقب (خان) .

وفي سنة ١٨٤٠ كان خان خيوة لا يزال يحكم منطقته واسعة تمتد من مرغاب الى ضفاف المجرى الادنى لسيحون ، ولكن حدود هذه المنطقة ما لبثت ان ضاقت كثيرا بسبب الثورات التي قام بها التركمان والقازاق ، ولما استولى الروس على خيوة في سنة ١٨٧٣ تركوا خوارزم لخان خيوة ، وكانت حدود خوارزم قد ضاقت جدا ، وعندما خططت الحدود القومية في سنة ١٩٢٤ تلاشت خوارزم كدولة وألحق جزء كبير منها بأوزبكستان ، وألحق الباقي بتركمانستان ، فالى أى مدى كان هذا الاجراء المنبثق عن مبدأ القومية مرغوبا فيه ؟ هذه مسألة يمكن أن تعرض للمناقشة ، والواقع أن خوارزم لم تكن لها قومية خاصة منذ القرن الحادى عشر ، ولكنها - مع هذا - كانت كيانا قائما بذاته من حيث التقاليد وطرارز المعيشة والخصائص الاقتصادية ، وكان من الطبيعى ألا يعنى هذا الكيان كله دون أن يخلف أثرا .

خانية بخارى

ولكن حياة الحكومات الأخرى لم تكن كثيرة القلاقل الى هذا الحد ، فلم يكن بالمناطق التي يحكمها خان بخارى من العناصر المتضادة الا الأوزبك والتاجيك وكانت السلطة السياسية فى يد الأوزبك .

ولما ضعفت سلطة الخان فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، دخلت بعض المناطق تحت حكم رؤساء القبائل الأوزبكية المنعزلة وهكذا ، ظهر من جديد النظام الاقطاعى الذى كان سائدا فى تركستان فى القرن الرابع عشر ، أى فى نهاية العهد المغولى ، وقبل ظهور تيمور ، ولم يكن بد - عدا هذا - من وقف اعتداءات القازاق الذين كانوا قد خربوا سمرقند حتى تلاشت من الوجود بعض الوقت .

وقد كانت - بخارى على عكس خيوة - مصنونة من مثل هذه الاعتداءات حتى فى أوقات الهزائم المنكرة التي كانت تتحملها وهى تجاهد أعداءها فى الداخل والخارج .

وفي عهد اسرم. مانغيت الجديدة التي تلقب أعضاؤها بالأمراء لم يطرأ أي وهن على سلطة خانات بخارى، بل اضطلع هؤلاء الأمراء بالكفاح المرير ضد أرستقراطية البطون الأوزبكية. أو على خد تعبیر العالم خانيكوف ضد الاقطاع البخارى، ومع أن هذا الكفاح لم يكلل بالنجاح فإنه زاد قوة حكومة الأمراء في بخارى، حتى لقد استطاع بعضهم أن يضم خوقند - لفترة ما - إلى مناطق حكمهم، ونفذ هؤلاء الأمراء بعض مشروعات الري أحياء للزراعة التي كانت قد اضمحلت، وتوطن الأوزبك الذين ألفوا حياة الحضر في الأماكن التي استصلحت من أراضي وادي زرفشان، ولم يبق في أيدي التاجيك - مع بعض الاستثناءات - إلا القرى الموجودة في الجبال، ومع هذا، فقد بقي أهالي المدن الرئيسية كسمرقند وبخارى تاجيكا * بل كان الأمراء أنفسهم تاجيك أكثر منهم أوزبك، ويقول المؤرخون من أهل خيوة إن جيش بخارى كان مكونا من التاجيك مع أن العنصر الأوزبكي كان هو العنصر العسكري في خانية بخارى *

خانية خوقند

وفي فرغانة حيث توطن العنصر التركي منذ العهد المغولي، طرد التاجيك إلى الجبال، ومع هذا فقد كان التاجيك والأوزبك في فرغانة - كما كانوا في خوارزم - منفصلين عن السارت وكانت كلمة سارت تطلق في ذلك الوقت على سكان المدن من الناطقين بالتركية، وكان هؤلاء السارت يشكلون في فرغانة قوة سياسية مهمة، بل لقد حاربوا الأوزبك وبخاصة الفرع القبجاقى الذى استولى على الحكم بعض الوقت *

أما القازاق، فكانوا يستعملون كلمة (سارت) بمعنى آخر، إذ كانوا يستعملونها في مقابل كلمة (قازاق) التي تؤدي معنى (البدو) في الاستعمال الجارى عندهم، أي أنهم كانوا يطلقون كلمة سارت على سكان المدن والقرى بغض

النظر عن اللغة التي يتكلمونها ، وفي القرن التاسع عشر
وسع خوانين خوقند رقعة الأراضي المزروعة في قرغانه بما
نفذوا من مشروعات الري ، كما بذلوا جهودا كبيرة لترقية
الحياة الحضريّة - وعدا هذا فقد حاربوا بخارى واستطاعوا
أن يوسعوا المناطق الخاضعة لحكمهم الى سيحون من ناحية
الشمال الغربي ، والى منطقة يدى صو فى الشمال الشرقى ،
ثم بدعوا يبذلون الجهود ليخضعوا القازاق والقيرغيز لحكمهم .

القازاق والقيرغيز والقالموق

وتطلق المصادر الروسية كلمة (قيرغيز) على شعبين
مختلفين تمام الاختلاف هما القيرغيز والقازاق ، ثم قيل
للقيرغيز (قاراقيرغيز) تمييزا لهم عن القازاق وقد رأينا
أن القازاق عبارة عن قسم من الأوزبك الذين تحرروا من
حكم أبى الخير فى القرن الخامس عشر فقط ، أما القيرغيز
فقد كانوا موجودين منذ زمان بعيد ، وان كنا لا نستطيع أن
نعلم متى ولا كيف توطنوا مكانهم الحالى فى الجزء الجنوبي
من منطقة يدى صو والشرقى من منطقة سيحون ، ومع هذا
فلم يرد ذكر للقيرغيز فى الأخبار المروية عن غزوات تيمور
واولوغ بك ، وانما ذكروا أول ما ذكروا فى القرن السادس
عشر ، حيث كانوا يقيمون فى منطقة يدى صو تحت حكم
السلطان خليل بن الخان المغولى أحمد .

ولم يرد شئ عن المكان الذى جاءوا منه الى هذه المنطقة ،
ودخل هؤلاء القيرغيز غير مرة خلال القرن السادس عشر تحت
حكم خانات القازاق ، وحاربوا فى صفوفهم ضد المغول
المتتركين الذين كانوا يحكمون كاشغر ، وفى القرنين السابع
عشر والثامن عشر حاربوا مع القازاق المهاجرين المغول
الوافدين حديثا وهم القالموق الذين كانوا قد حكموا لفترة
ما آسيا الوسطى ، ومما يجدر ذكره أن القالموق اشتركوا فى
هذه الحرب لحسابهم الخاص ، وفى القرن الثامن عشر استولوا

على طاشقند وسایرام وترکستان وكانت كلها تابعة فى ذلك الوقت للقرغيز ، بل خضعت لهم أيضا بخارى .

ولما كانت البوذية قد رسخت تماما عند القالموق فانهم لم يستطيعوا أن يدخلوا فى الاسلام ، كما دخل خلفاء جنكيزخان ، فلم يسلم الا عدد قليل يطلق عليه الآن (سارت قالموق) وما لبثت دولة القالموق هذه القوية ان دمرت على ايدى الصينيين سنة ١٧٥٨ ، وكانت الحرب من الضراوة بحيث أبید فيها قسم كبير من القالموق ، وعندما أراد القالموق - خلافا لرغبة روسيا - أن يتجهوا من حوض الفولجا الى الشرق ، أنزل بهم القازاق ضربات جديدة قاصمة ، وبعد أن انتهت دولة القالموق حاول الصينيون أن يدخلوا القازاق والقرغيز تحت حكمهم ، لكن روسيا تصدت لهم وكسبت الدعوى .

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ألغى الروس حكم الخانات بين القازاق ، أما القرغيز فلم يكن لهم - من الأصل - خوانين من عنصرهم وهى ظاهرة لاحظوها هم أنفسهم ، ولما كان القرغيز قد أدخلوا تحت حكم الروس بعد القازاق ، فقد استطاعوا - لذلك - أن يحتفظوا مدة أطول بتشكيلاتهم العسكرية وقد خلفت الحروب بين القرغيز والقالموق أثرا فى الملاحم القرغيزية (وخصوصا فى حكايات ماناس) ومع أن القرغيز فى القرن التاسع عشر لم يكونوا يعلمون شيئا عن نصوص الاسلام وشعائره (مثلهم كمثله أسلافهم فى القرن السادس عشر) ، فان ملاحمهم هذه تصور هذه الحرب كأنها حرب دينية .

وقد حصل القرغيز الآن - كما حصل القازاق - على حق تكوين جمهورية قومية .

ولأسباب مختلفة كان حظ القرغيز فى القرن التاسع عشر أسوأ من حظ القازاق ، ومازالت حال القرغيز الآن محزنة من الناحيتين الصحية والثقافية .

أتراك الألتاي واليتيسى

لم يكن لأتراك الألتاي ويتدعى الأعلى كيان سياسى خاص فاندمجوا فى دولة القالموق ، وقد قبل أتراك الألتاي - بعد تكون الجمهوريات القومية - اسم (أوبرات) وهو فى أصله عنوان على القالموق .

تركستان الشرقية

وكان القالمون قد استولوا فى القرن السابع عشر على شرقى تركستان، حيث كان يحكم بعض خانات المغول المتتركين الذين يطلقون على أنفسهم اسم المغول ، وبعد أن تبدلت الظروف السياسية أخذ استعمال هذه الكلمة يزول تدريجيا مثلها كمثلى اصطلاح (جفتاي) فى تركستان الغربية . ولم يحتفظ أتراك شرق تركستان باسمهم القومى حين كانوا تحت حكم القالموق ولا حين حكمهم الصينيون فيما بعد ، ولم تكن بهم حاجة الى هذا الاسم فقد كانت أقسامهم المختلفة توسم باسم المكان الذى تعيش فيه ، كان يقال (كاشغرلىق . طورفانلىق الخ) . وكان الأمراء المسلمون يحملون غالبا اللقب الصينى (وان) أى ملك ، وعدا هذا فقد انتقلت السلطات السياسية - منذ عهد خانات المغول - الى رجال الدين وهم (الخوجات) أى العلماء الذين نشأوا فى فرغانه وبوجه خاص فى جزئها الشمالى الذى يسكنه التاجيك ، ويمكن أن نصف حركات الخوجات بغرب تركستان بأنها جهاد قومى قام به التاجيك ضد الأوزبك والقازاق ، وأما فى تركستان الشرقية التى تم تتركها فقد كان العلماء مندمجين فى الترك ، وكانوا يحملون ألقابا تركية ، وقد كان يقال ان هؤلاء الخوجات هم ناشرو الاسلام فى تركستان الغربية ، ولكن ليس بالمصادر ما يدل على ذلك ، بل المعروف أن الاسلام قد استقر هناك منذ القرن الخامس عشر ، وأن خانات المغول كانوا ينشرونه بحماس ، بل بالقوة أحيانا ، فكانوا يلبسون

رعاياءهم العمائم - بل يقال إنهم أجبروا المغول على قص
ضفائيرهم ، وكان الخوجات - تقوية لنفوذهم - يحاربون
تقديس مشايخ الصوفية المحليين مع أنهم مسلمون ومن المحتمل
أن أماكن هؤلاء الأولياء كانت مقدسة قبل دخول الاسلام في
هذه المناطق حتى اذا أسلمت نسبت هذه الأماكن الى بعض
الأولياء المسلمين ، وقد حدث مثل هذا في أوروبا حيث يقدر
بعض قديسي النصارى في أماكن كانت تقام فيها من قبل
العبادات الوثنية .

وأما الحالة الثقافية في شرق تركستان فهي آلم من حالة
الأوزبك ، اذ ضعف هناك أثر أوروبا وغرب آسيا ، وكانت
اللغة الفارسية هناك هي لغة العلم الى حد ما .

وفي منتصف القرن السادس عشر حرر محمد حيدر
كتابه في التاريخ باللغة الفارسية ، ويرى علماء أوروبا أن
هذا الكتاب هو الأثر العلمي الوحيد الذي حرر في كاشغر ،
وقد ترجم هذا الكتاب عدة مرات فيما بعد الى اللغة التركية
التي صارت وحدها لغة الأدب ابتداء من القرن الثامن عشر ،
ولكن منذ ذلك الوقت لم يظهر أثر أدبي له قيمة ، وكان من
نتائج الحركات السياسية في سنة ١٨٦٠ أن استعاد شرق
تركستان استقلاله لمدة قصيرة ، وفي نفس الوقت ، كان غرب
تركستان قد وقع في قبضة الروس .

والواقع أن قصة الحرب في شرق تركستان حافلة
بالفجائع ، اذ لم تكن الحرب مستعرة بين الأهالي وبين الصينيين
فحسب ، ولكنها كانت تستعر بين الأهالي أنفسهم لغیر غاية
ولغير سبب ، حتى لقد اعترف بعض المؤرخين المسلمين المحليين
بأن الأهالي كان يسرهم أن تقوم من جديد حكومة صينية .

وبقيت تركستان الشرقية تابعة للصين حتى بعد سقوط
إباطرة المانجو وقيام الجمهورية الصينية ، ولكن الأحداث
في روسيا أوجدت الأمل في أن يكون لتركستان الشرقية على
الأقل استقلال ثقافي وشخصية مستقلة .

ويريد المثقفون بتركستان الصينية الآن أن يسموا أنفسهم (الأويغور) مع أن حكم الأويغور لم يصل أبدا الى حدود كاشغر الغربية ، ومع أن بقايا من الأويغور مازالت تعيش في أقصى الشرق على حدود الصين ، وتدين هذه البقايا الأويغورية بالبوذية وقد كانت تستعمل الأبجدية الأويغورية التي نسيها الترك منذ القرن الخامس عشر ، وكان لها — بنفس هذه اللغة الأويغورية — أدب ديني خاص وان يكن مترجما ، ولكن هذه البقايا استبدلت أخيرا أبجدية التبت بالأبجدية الأويغورية .

المستقبل

ويرتبط مستقبل أتراك آسيا الوسطى كما يرتبط مستقبل غيرهم من الأمم بمدى مشاركتهم في الحضارة العالمية .

ولا داعي لأن نتوقع الآن احياء الطريق التجارى الدولى الذى كان يربط غرب آسيا بالصين فى العصور الوسطى بانشاء خط حديدى يمتد من غرب آسيا الى الصين مارا بتركستان . . لا داعي للاعتماد على هذا المشروع الذى أثير أخيرا فى الصحف ، اذ من المستبعد أن يبحث هذا المشروع الذى تكتنفه كثير من الصعاب الفنية مع وجود الخط الحديدى الذى يصل الى الصين بطريق سيبيريا ، ولكن من المحتمل أن تستفيد تركستان وبخاصة تركستان الغربية اذا نفذ المشروع الذى طرح للبحث من زمن بعيد ، وهو مشروع مد خط حديدى من أوروبا الى الهند .

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ي . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راى	الأرض الغامضة
والترالن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دumas	آلهة مصر
د . قدرى حفى وأخرون	الإنسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النصاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشرافيس . بى . كوكس	ديلان توماس .
جون لويس	الإنسان ذلك الكائن الفريد
جبول ويست	الرواية الجديدة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وأدبنيت	القوة النفسية للأحرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	ستندال

- رسائل وأحاديث من المنفى
الجزء والكل (مصاورات في مضمار
الفيزياء الذرية)
فيرنز هيزنبرج
سندنى هوك
ف . ع أدنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د . نعمة رحيم العزاوى
د . فاضل أحمد الطائى
جلال العشرى
هنرى باريوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
د . روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . سبنسر
د . ناعوم بيتروفيتش
جوزيف داهموس
د . لينوار تشامبرز رايت
د . جسون شسندلر
بيير البير
د . غبريال وهبة
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
فرانكلين ل . باومر
شوكت الربيعى
د . محيى الدين أحمد حسين
- معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
اثر الكوميسديا الالهية لدانتى فى الفن
التشكيلى
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
القنشة الأسرية والأبناء الصغار

- نظريات الفيلم الكبرى
مختارات من الأدب القصصى
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الأدب اليابانى
الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتابة السيناريو للسينما
الزمن وقياسه
أجهزة تكييف الهواء
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
العالم والطلاب والمدارس
- ج . دادلى اندرو
جوزيف كونراد
د . جوهان دورشز
طائفة من العلماء الأمريكیین
د . السيد عليوة
د . مصطفى عنسانى
صبرى الفضل
فرانكلين ل . باومر
جسابريل باير
انطونى دى كرسبى
دوايت سوين
زافيلسكى ف . س
ابراهيم القرضاوى
بيتر رداى
جوزيف داهموس
س . م . بورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمبسون
ونورمان د . اندرسون
د . انور عبيد الملك
والث وثمان روسستو
فريد س هيس
جون يوركهارت
آلان كاسبيار
سامى عبيد المعطى
فريد هويل
شاندرى ويكراما ماسينج
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
هاشم النحاس
- الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكونية
دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والايذز
نجيب محفوظ على الشاشة

صور افريقية	دوركاس ماكليفتسوله
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لمورى
وظائف الاعضاء من الالف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيه الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر ٠ بورر
الفكر التاريخى عند الاغريق	وميلتون جولد ينجر
قضايا وملامح الفن التشكيلى	أرتولد توينبى
التغذية فى البلدان النامية	د ٠ صالح رضا
بداية بلا نهاية	م ٠ ٥ ٠ كنج وآخرون
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جورج جاموف
حوار حول النظامين الرئيسيين	د ٠ السيد طه أبو سديرة
للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيسلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاي متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الاتقراض الكبير	مichaيل ألبى ، جيمس لفلوه
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرايس جونيور

- عن النقد السينمائي الأمريكي
ترانيم زرادشت
السينما العربية
دليل تنظيم المتاحف
سقوط المطر وقصص أخرى
جماليات فن الاخراج
القاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
الحملة الصليبية الاولى
التمثيل للسينما والتليفزيون
العثمانيون في اوربا
صناع الخلود
الكنايس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)
رحلات فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)
في النقد السينمائي الفرنسي
السينما الخيالية
السلطة والفرد
الازهر في ألف عام
رواد الفلسفة الحديثة
سفر نامه
مصر الرومانية
الاتصال والهيمنة الثقافية
مختارات من الآداب الآسيوية
كتف غيرت الفكر الانساني (٣ ج)
الشموس المتفجرة
مدخل الى علم اللغة
حديث النهر
من هم القطار
ماس تريخت
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
- ادوارد ميرى
اختيار / د . فيليب عطية
اعداد / موني براخ وآخرون
آدامز فيليب
نادين جورديمر وآخرون
زيجمونت هبتر
ستيفن أوزمنت
جوناثان ريلي سميث
توني بار
بول كولنسر
موريس بير براير
الفريد ج . بتلر
رودريجو فارتيما
فانس بكارد
اختيار / د . رفيق الصبان
بيتر نيكوللز
برتراند راسل
بينارد دودج
ريتشارد شاخست
ناصر خسرو علوى
نفتالى لويس
هيربرت شيلر
اختيار / صبرى الفضل
أحمد محمد الشنوانى
اسحق عظيموف
لوريتسو تور
اعداد / سوريال عبد الله
د . أبرار كريم الله
اعداد / جابر محمد الجزار
ه . ج . ولز

الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونبيوم
رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد ف . بيرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز متز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيموه
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنواوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبيانومايم	توماس ليههارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الافلام	جوزيف . م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستوفسكى (٢ ج)	جورج ستايز
ما هى الجيولوجيا	ويليام ه . ماثيوز
الاحمر والبيض والاسود	جارى ب . ناش
انواع الفيلم الأمريكى	ستالين جين . سولومون
رحلة الامير رودلف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركو بولو ٣ ج	عبد العزيز جاويد
الفيلم التسيجلى	محمود شامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	يانسكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٦/٥٦٤٩

ISBN — 977 — 01 — 4794 — X

لعبت القبائل التركية دورا هاما في تاريخ آسيا على مدار ألف عام تقريبا، واصطدمت بالقوى السياسية والعسكرية الكبرى هناك وتداخل تاريخها مع تاريخ شعوب المنطقة.

وهذا الكتاب يعرض لتاريخ الترك منذ البواكير الأولى لنشأتهم أي منذ كانوا قبائل لم تحمل بعد ذلك الاسم الذي قدر لها أن تحمله طيلة تاريخها حتى دالت دولهم في وسط آسيا وخضعوا للروس والصينيين في العصور الوسطى.

ولا يقتصر الكتاب على العرض التاريخي، بل عنى مؤلفه و. بارتولد (١٨٦٩ - ١٩٣٠) بدراسة التأثيرات الحضارية والدينية واللغوية والعوامل الجغرافية والاقتصادية والطرق والمسالك التجارية وغيرها من العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي ساهمت في تشكيل تاريخهم.